

بجہ النالیف والترجمة والنشر

چاتر دے مک

المؤلف: جورج برنارد شو

المترجم: الدكتور أحمد زکی بک

العدد الرابع

عیون ادب الفری

القاهرة

طبعة لينة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

مقدمة المترجم

هذه قصة « جان درك » لمؤلفها « جورج برنارد شو » .
أما المؤلف فقد حضرته خطيباً ، وسمعتة مجادلاً ، وقضيت
عقداً من الدهر في بلده وبين قومه فلم أجد بينهم اسماً في عالم
الأدب والسياسة تُرْمَف له الآذان كاسمه ، ولا جدلاً يهرع
الناس لحضوره كجدله ، ولا لساناً أقذع في النقاش وألذع في
الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تَنَمَّ عن صاحبها كفكاهته .
كتبت له إحدى الغانيات الجليات الفاتنات تعرض عليه أن
يتزوج منها وتغريه بأنه إذا اجتمع جمالها وعقله أنتجا أحسن
الخلف . فأجابها بقوله : أخشى أن يجتمع عقلك وجمالي . واستمعتُ
منذ أشهر بالراديو لحفلة أقيمت في إنجلترا لإحياء ذكرى من
ذكريات شيكسبير ، لا أذكر بالضبط مناسبتها ، وكان خطيب
الحفلة برنارد شو ، فسمعت صوته خافتاً قد أضعفته الشيخوخة
ولإذا به يبدأ كلامه بسؤال الناس : « أتعرفون لماذا دعاني القوم
للخطابة في هذا الحفل ؟ » . فأنصت الناس وعلى شفاههم لا شك
ابتسامة ، توقفاً للنكتة التي لم تفارقه حتى بعد فواته الثمانين . فجاء

جوابه خافتاً كذلك: «أظنهم فعلوا ذلك لاعتقادهم أنى أنا الثانى من بعد شيكسبير». فسمعت على الأثير صدى الضحكات العاليات فى ذلك الجمع الحاشد. وهى نكتة تحمل أكثر من معنى واحد إذا نحن قرناها برأيه المعروف فى شيكسبير^(١). ولم ينحصر صيت «شو» فى الجزر البريطانية، بل تعداه إلى كل بلد ينطق بالإنجليزية، وإلى كل مثقف لا ينطق بها، فهو فى الأدب الإنجليزى من أكبر شخصياته إن لم تقل أكبرها، وذلك فى القرن العشرين وإلى أحقاب خلت. وهو فى إنجلترا يحتل مثل المكانة التى احتلها أناطول فرانس فى فرنسا، وكانا صديقين حميمين، ذوى مشربين متقاربين. أذكرُ أن أناطول استقبل صديقه شو مرحباً به، وهما شيخان، فضمه وقبله على الملاء على عادة الفرنسيين، فاحمر وجه شو، ففى إنجلترا لا يقبل إلا النساء.

أما عن القصة، وهى إحدى القصص الثلاث التى يرى النقادون أنها خير ما أنتج شو، فقد حضرته تمثل فى لندن منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، وكان دور جان تقوم به الممثلة الشهيرة سبيل ثرنديك «Sybil Thorndyke» وكنت فى زمرة

(١) لا يقدر شو شيكسبير كتقدير الناس له. ويعتقد شو أن شيكسبير مهما جد واجتهد فهو لا يستطيع أن يأتى برواية كروايته Back to Methuselah، أو كروايته الأخرى Heartbreak House. ولا يثنيه عن هذا الاعتقاد شىء أبداً.

ينهم صديقٌ مصريٌّ حميمٌ معروفٌ بإسلاميته ، وباتباع دينه على حقيقته ، وهو إلى اليوم مؤمنٌ شديد الإيمان ، عالمٌ كثير العالم ، مثقفٌ واسع الثقافة ، ولكنه يفلو أحياناً فيترمت ترمتاً قد يأباه الفكر الطليق . وحسبى هذا فى وصفه فأنى أخشى أن أكون قد سمّيته . وكانت الرواية بالطبع نصرانية ممعنة فى النصرانية ، فعمجت كيف يحضر مثله مثلها ، وترقت أنظر ما يكون منها فيه . ودرجت الرواية من منظر إلى منظر حتى جاء المنظر الخامس فى الكندراية حيث انفض عن جان كل أصحابها ، حتى الملك الذى توجّه ، ونصحوها بالكف عن الحرب والرجوع إلى أبيها ورفيها فانفجرت فيهم تقول :

« لو أنى اتبعت مثل هذا الحق بالأمس ، فإلى أى حال كنتم تصيرون . إنكم لآعون لى فيكم ولا نصيحة . نعم أنا فى هذه الدنيا وحيدة . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركت أبى لأسف بلادى ، فطلب إلى إخوتى أن يفرقونى فى البحر إذا لم أطمه فأرعى غنمه . بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما ضره أن تجرى دماها ، إذا عاشت خرافه ناعمة فى مهتوك حماها . وحسبت أن أرى نصراء خاضاء لبلادى فى بلاط ملكها ، فلم أجد إلا ذئاباً يتنازعون على قطع من أشلاء وطنٍ ممزق . وحسبت أن الله أحباباً فى كل مكان ، لأن الله محبٌ لكل إنسان . واعتقدت فى سذاجتى أنى سأجد فيكم قلاعاً رواسخ تدفع الأذى عنى ،

فإذا بي أجدم تخلفوني خلع النعال البالية . ولكنى الآن قد تكشفت لى
حقيقتكم ففرقتها عيانا ، ورأيت الحق فى أمركم عريانا ، ولن يكسب أحد
من معرفة الحق خسرانا . وتهجدونى بوحدتى ، وما بى والله ذعرت منها .
إن فرنسا وحيدة . وإن ربى لوحد . فما وخذتى إلى جانب وحدة قومى
ووحدة الله ربى . لقد تعلت الآن أن وحدة الله هى سرّ قوته . ألا
ما كان حال الله لو أنه أصنى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب
مريضة غيورة . قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ستكون فى وحدتى
بجوار الله ، فلن تخوننى صداقته ، ولن تؤوزنى محنته ، ولن تخذلى
نصيحتة . وسأستمدّ مدّداً من مدّده ، فأفتح الممالك ، وأركب الأخطار
حتى أموت . والآن أخرج إلى الشعب ، إلى عامة الناس ودهائمهم ، فلعل
الحب الذى أجده فى عيونهم يفرّج عنى كربة البغضاء التى أجدها فى
عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً لحرقى ، ولكنى إن سیرت إلى النار ،
فإنما أسير عبرها إلى الخلود فى قلوب الناس ، فى هذه القلوب سأحيى
أبد الآباد . والآن تداركنى بلطفك يا رحمن . »

وكانت المثلة قوية التمثيل قوية الأنوثة رغم درع الفولاذ
التي تلبسها . فنظرت إلى صاحبى فإذا دمه يجرى مدراراً ، ويكاد
يشهق فيفضحنا . وانتهى الفصل فحمدت الله . ولكن جاء
الفصل السادس حيث حوكت وأحرقت فلم يكن هذا الفصل
أقل تأثيراً من سابقه فى نفس صاحبى المسلم المؤمن . عندئذ
أدركت أن العاطفة الدينية شئ والدين نوع آخر ، وأن من

الحوادث النصرانية ما يهز قلب المسلم حتى إلى البكاء ، ومن الحوادث الإسلامية ما يحرّك عاطفة النصراني ، وأن فؤاد الإنسان في صميمه واحد مهما اختلفت العقائد والأوطان . فلما دعتى لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى ترجمة هذه الرواية لم أجد في نصرانيتها مانعاً من قبول ترجمتها . بل على النقيض وجدت فيها حافظاً على ترجمتها لما فيها من هذه العاطفة الدينية المشتركة بين الإسلام والمسيحية . وإن في اشتراك العاطفة الحب والتعاطف . قال تعالى : « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » .

أحمد زكي

المنظر الأول

[صباحٌ صاحٍ من أصباح الربيع ، على نهر موز ^(١) Meuse بين
لورين Lorraine وشمبانيا Champaigne ^(٢) ، في عام ١٤٢٩ ، في قلعة
فوكولور ^(٣) Vaucouleurs .]

[وفي المنظر اليوزباشى رُو يردى بُدريكور Robert de Baudricourt ،
عينٌ من رجال الحرب ، وسيم جميل ، جمّ النشاط ، إلا أنه لا إرادة له .
ويعلم هذه النقيصة من نفسه فيحاول أن يخفيها بالتغضب والتسخط الشديد
على خولّيه ، وبالإرغاء والإزباد في وجهه . ثم الخولّى وهو رجل حقير ذليل ،
قليل اللحم قليل الشعر ، يُعجزك تقديرُ سنّه ، فهو ثمانِ عشرة سنة
أو خمسٌ وخسون أو ما بينهما . وهو من صنف الرجال الذين لا تُذويهم
الأعمار لأنهم قطّ ما أزهروا .]

[والرجلان في حجرة مشمسة ، وهى من حَجَر ، في الطابق الثانى من
القلعة . أما الضابط فجالسٌ على كرسى من خشب الأرو إلى خوان متين بسيط
على شاكلة الكرسي ، وهو مثله من الأرو . وتظهر من وجه الضابط
صفحته اليسرى . أما الخولّى فيقف في مواجهته في الطرف الآخر من
الخوان ، هذا إذا سمينا تلك الوقفة الدليّة المسترخة المستعيزة وقوفًا . ووراء

(١) نهر ينبع في فرنسا ومصبه بهولندا في البحر الشمالى .

(٢) اللورين وشمبانيا مقاطعتان في الشمال الشرقى لفرنسا .

(٣) بلدة صغيرة على نهر موز .

الخلوى شباك مفتوح من شبايك القرن الثالث عشر ، وقد قسمت فراغه قوائمُ على أسلوب ذلك القرن . وبالقرب من الشباك برج صغير ذو باب ضيق ، تعلوه قبوة ، يؤدي إلى سُلّم لفاف يهبط إلى فناء القلعة . وفي الحجرة تحت الخوان مقعد ذو أربع أرجل متين ، وتحت الشباك صندوق من الخشب .

* * *

رؤيب : ما عندك بيض ! ما عندك بيض !! عليك لعنة الأولين والآخرين يا رجل ، ماذا تعني ؟ ما عندك بيض !
الخلوى : سيدي ، ليس الذنب ذنبى إنما هي إرادة الله .
رؤيب : يا للكفران ! تقول لى ما عندك بيض ، ثم تُلقي ذنب ذلك على الله !

الخلوى : سيدي ، ماذا أصنع وأنا لا أستطيع أن أبيض ؟
رؤيب : [ينهمك] ها ! إنك تمزح !
الخلوى : لا يا سيدي ، عَلمَ الله ! إن البيض يُعوزنا جميعاً ، كما يعوزك ، اضطراراً ، وأى مندوحة عن ذلك والدجاجات تأبى أن تببيض ؟

رؤيب : صحيح ، صحيح ! [ينهض] والآل استمع لى أيها الوغد .

الخلوى : [فى ذلّة] نعم سيدى .

روبير : من أنا ؟

الخلوى : من أنت ، سيدى ؟!

روبير : [يمشى نحوه] نعم . من أنا ؟ أنا روبر ، سيد
بُذريكور ، ويوزباشى هذه القلعة قلعة فوكولور ، أم أنا فارس
من رعاة البقر ؟

الخلوى : لا وعفواً يا سيدى ، فما أنت إلا رجل كبير ،
أكبر من الملك نفسه .

روبير : بالضبط ! والآن أتدرى ما أنت ؟

الخلوى : أنا لا شىء يا سيدى ، سوى شرفٍ كسبته
بأنى خوليتك .

روبير : [يتقدم نحوه ويدفع به إلى الحائط دفعت لكل صفة يصفه
بها دفعة] أنت لك الشرف بأنك خوليتى ، ولك فوق هذا الفضلُ
على جميع خول فرنسا بأنك أسوأهم ، وأجهلهم ، وأثّهم ،
وأعجنهم ، وأغباهم ، وأبلههم ، وأربلهم فآ ، وأستباهم أنفاً .
[يأخذ فى الرجوع بخطى واسعة إلى الخوان] .

الخلوى : [وقد انكش على الصندوق مذعوراً] نعم يا سيدى ،
فلا بد أنى أترامى هكذا بالنسبة لرجل عظيم مثلك .

روبير : [يدور على عقبه إليه] تعنى أن الذنب يرجع إلى ؟
الخلوى : [يتقدم إليه مسترخياً مستغفراً] واه ياسيدى ، إنك
دائماً تُلوى كلماتى البريئة .

روبير : سألوى رقبتك إذا ما سألتك كم لدينا من البيض
فجُرؤت فقلت لى مرة أخرى إنك لا تقدر أن تبيض .
الخلوى : [محتجاً منكراً] واه سيدى ، واه سيدى ...

روبير : لا تقل واه سيدى ، واه سيدى ، بل قل لا ياسيدى ،
لا ياسيدى . إن دجاجاتى الثلاث البربرية^(١) ودجاجتى السوداء
أكثر الدجاج بيضاً فى شمبانيا ، ثم تأتيني بعد هذا وتقول
لا يبيض عندك ! أين البيض ؟ من سرقه ؟ أجبْ وإلا رfstك
إلى باب القلعة ، فأنت كذاب ، وتبيع متاعى للصوص . واللبنُ
نقص بالأمس كذلك ، فهل أنت ناس ذلك ؟

الخلوى : [مستينساً] أعلمُ ذلك ياسيدى . أعلمه علماً لا أنساه
أبدًا . ذهب اللبن ، وذهب البيض ، وغداً يذهب كل
شئ لدينا .

روبير : كل شئ لدينا ؟! أفنسرَق كل شئ . إذن ؟

(١) نبة إلى بربر ، ويقصد بها شمال أفريقيا ما بين مصر إلى المحيط الأطلسى .

الغولى : لا ياسيدى ، ليس فى الدار من يسرق شيئاً ،
وإنما حلت بنا لعنةٌ ساحرة .

روبير : ليس مثلى من يصدق مثل هذا . إن روبيير دى
بدريكور يحرق الساحرات ويشنق اللصوص . فقم وأتى بخمسين
بيضة وبجالونين من اللبن ، وأحضرها هنا جميعاً قبل الظهر ،
وإلا فرحة الله على عظامك ، فسأحطمها لك تحطياً ، وأعلمك ألا
تستغفلنى مرة أخرى [ويعود فيتخذ مكانه من الكرسي كمن قفى
قضاء مبرماً لا رجعة فيه] .

الغولى : سيدى ، إنى أقول لك ليس لدى بيض ، ولن
تجد لدى بيضاً ولو قتلتنى ما دامت الفتاة على الباب .

روبير : الفتاة ! أية فتاة ؟ عمّ تتحدث يا هذا ؟

الغولى : الفتاة التى جاءت من لورين Lorraine ياسيدى ،
من بلدة دُمرِيمى Domrémy .

روبير : [يقف غاضباً أشد الغضب] يا أرض ميدي وباسماء
أطبق ! ماذا تقول أيها الرجل ؟ أتقول إن هذه الفتاة لازالت هنا ،
هذه الفتاة التى بلغت من الوقاحة أن طلبت لقائى من يومين ،
هذه الفتاة التى أمرتك بحملها إلى والدها وأعطيتك أمرى إليه
أن يضربها ضرباً طلياً ، هذه الفتاة لازالت هنا ؟

الخلوى : طلبتُ إليها أن تذهب ياسيدى ولكنها لا تفعل .
 رويير : لم أقل لك اطلب إليها أن تذهب ، وإنما قلت
 ارم بها رمياً . لديك خمسون فارساً كيّياً ، ولديك أربعة وعشرون
 خادماً غلّا قويا ، كل هؤلاء لا ينفذ أمرى ، فهل خافوها جميعاً ؟
 الخلوى : إنها عنيدة تثق أشدّ الوثوق بنفسها .

رويير : [يأخذ بقناه] عنيدة ! إذن فانظر ما أصنع ؟ سأرمى
 بك على هذا السلم .

الخلوى : لا ياسيدى ، أرجوك ياسيدى .

رويير : كن عنيداً إذن وامنع نفسك من السقوط . إنه
 أمر هين ، أمر تستطيعه أية فتاة رثة الهيئة قدرة .

الخلوى : [وقد تعلق مسترخياً في يديه] سيدى ، سيدى ،
 إنك لا تستطيع أن تتخلص منها برمي أنا [يضطر رويير إلى إسقاطه
 من يديه ، فلما سقط يقع على الأرض على الركبتين وينظر إلى سيده
 مستسلماً ذليلاً] أرايت ياسيدى ؟ إنك أصدق عزماً منى ، وأصدق
 كثيراً ، ولكن كذلك هى .

رويير : قل لى أقوى منك أيها المأفون .

الخلوى : لا ياسيدى ، ليس هذا ، فإنما هى قوة شخصيتك
 ياسيدى . إنها أضعف منّا جميعاً . إنها فتاة قليلة لا حول فيها

ولا قوة ، ومع هذا لا نستطيع إخراجها .

روبير : إنكم جماعة أنذال . إنكم تخافونها .

الخلوى : [ينهض على حذر] لا يا سيدى . نحن إن خفنا
فإنما نخافك . أما هي فتبتُّ فينا الشجاعة والثقة . والحق أنها
لا تخاف من شيء ، فلعلك سيدى تقدر أن تُخيفها .

روبير : [بوجه عابس] ربما . أين هي ؟

الخلوى : تحت ، فى فناء القلعة يا سيدى ، تتحدث على
عاداتها مع الجند . إنها تتحدث دائماً إلى الجند إلا إذا هي صلت .
روبير : صلت ! ها ! أتعقد أيها النبي أنها تصلى . إنى
أعرف أى صنف من الفتيات ذلك الذى لا يفتأ يتحدث إلى
الجند . والآن آن أن تتحدث الفتاة إلى قليلا [يذهب إلى النافذة
ويصرخ بقوة منها] أنتِ يا من هناك !

صوت فتاة : [صوت بهيج قوى خشن] أتعينى ؟

روبير : نعم أنتِ .

الصوت : أبوزباشى أنت ؟

روبير : نعم أنا أبوزباشى ولعنة الله على وقاحتك . اطللى

هنا [يتكلم إلى الجند فى الفناء] أروها الطريق يا هؤلاء ،

وأسرعوا بها إلى [يترك النافذة ويعود إلى مجلسه لدى الخوان ويجلس جلسة الأتية] .

الخلوى : [يتكلم في همس] إنها تريد أن تكون جنديا ،
وتطلب إليك أن تعطىها ملابس الجند . تطلب درعا يا سيدي ،
وسيفاً كذلك والله [يسترق الخطا وراء رويير] .

[تدخل جان من باب البرج . وهي فتاة ريفية قوية البنية ، سنها بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، في ملابس محترمة حمراء . ولها وجه غير مألوف : فبينها متباعدتان كل البعد ، وهما جاحظتان ، وهكذا تجدهما دائماً في كل من لهن أو لهن خيال قوى . وأتقها حسن الشكل طويل واسع . وشفتها العليا قصيرة . وفما تقرأ فيه العزم القوي ولولم ترق شفتاه . وذقها جميل تقرأ فيه الحرب والصراع . ثم هي تتقدم إلى الخوان مغتبطة مبتهجة بأنها استطاعت أخيراً أن تخترق الحرم إلى صاحبنا ، مليئة أملاً بتحقيق رجائها . وعبس رويير فلم تردّها تعبيسته ولا أخافها أبداً . ولها صوت ترسله على سجيته فكأنما تخرجه من قلبها ، فيه الثقة ، وفيه الضراعة ، وفيه الترضى ، فلا يستطيع أحد أن يتنكر له] .

جان : [تحييه بثنية من ركبتيها] صباح الخير يا سيديايوزباشى .
أيها اليوزباشى ، إن عليك أن تعطىنى حصاناً ودرعاً وأن تمدّنى
بعض الجند ثم ترسلنى إلى الدوفين^(١) Dauphin ، بهذا يأمرك
مولاي .

(١) لقب لولاء الأكبر لكل ملك من ملوك فرنسا . والمقصود به هنا هو شارل السابع ملك فرنسا .

روبير : [وقد اغتاظ] مولاك يأمرنى ؟! ومن مولاك هذا ؟
وفى أى داهية يكون ؟ عودى إليه وقولى له إنى لست دوقاً
ولا شريفاً فى خدمته فألتقى منه أمراً ، وإنما أنا سيد بدريكور
لا ألتقى أمراً إلا من الملك .

چان : [تطمئنه] نعم يا سيد بدريكور ، وصواب
ما تقول ، غير أن مولاي رب السموات والأرض .
روبير : ما هذا ! إن الفتاة مجنونة [إلى خويله] لم ألمّ تقل .
لى أيها الأحمق إنها مجنونة ؟

الخولى : لا تغضبها ياسيدى وأعطيها ما تريد .
چان : [جازعة ولكن غير غاضبة] إنهم جميعاً ياسيدى
يقولون إنى مجنونة إلى أن آتحدث إليهم . إن إرادة الله قضت .
عليك بأن تفعل ما يوحى إلىّ به الله .

روبير : إن إرادة الله قضت علىّ بأن أرسلك إلى أبيك ،
وأن آمره بحبسك وضربك حتى يخرج من جسمك هذا الجنون .
فإذا أنت قاتلة ؟

چان : إنك تظن أنك فاعل ما تقول ، ولكن هيئات
فسترى أن الأمور تجري على غير ما تريد . ألم تقل إنك لن ترانى ،
ثم ها أنت الآن ترانى !

الخلوى : [يتوسل] نعم سيدى ، إنها تقول الحق يا سيدى .
 رويير : اسكت أنت يا أحمق .
 الخلوى : [بذلة] نعم ، سيدى .

رويير : [يتحدث إلى جان وهو فى ألم من إحساسه بضياع ثقتة
 بنفسه] إذن فأنت تستغلين إذنى لك فى الدخول على ؟

جان : [فى خفة روح] نعم ، سيدى .

رويير : [يحسّ بانتلابه فيضرب الخوان يديه ضرباً شديداً ،
 وينفخ صدره ويبرزه تكبراً وتعظاً] هذا يذهب بالضعف الذى أصابه
 الساعة فى إرادته ، وهو ضعف عرفه من نفسه حتى ألغى [أنصتى إلى
 أيتها الفتاة . إني سأملئ عليك إرادتى .

جان : إفعل بالله يا سيدى . إن الحصان ثمنه ستة عشر
 فرنكا ، وهذا مبلغ كبير ، ولكنى سأقتصده فى الدرع ، فإنى
 سأبحث بين الجند عن درع تلبسنى بالقدر الذى يكفينى . إني
 مخشوشة فليست بى حاجة إلى درع جميلة تفصل على تفصيلا
 كالتى تلبسها أنت . ولن أحتاج إلى عدد كبير من الجند ،
 فالذوفين سيمطينى كل ما يكفينى من ذلك ، لرفع الحصار عن
 أورلين^(١) Orleans .

(١) بلدة فرنسية على الشاطئ الشمالى لنهر اللوار . قصد إليها الإنجليز بعد =

روبير : [وقد طاربه] رفع الحصار عن أربلن ؟
 جان : [بكل بساطة] نعم يا سيدى . هذا ما أرسلى الله
 لأدائه . ويكفينى أن ترسل مئى ثلاثة رجال أخيار يعطفون على .
 وقد صاهدونى على الذهاب مئى . وم بولى وچاك ...

روبير : بولى Polly ! أيتها الفاجرة كيف تتجربين على
 السيد برتران دى پولنچيه Bertrand de Poulengy فتسمينه
 بولى فى وجهى ؟

جان : هكذا يسميه إخوانه يا سيدى ، وما علمت أن له
 اسماً غير هذا . وچاك ...

روبير : هذا السيد چُون أف مِتز John of Metz على
 ما أحسب ؟

جان : نعم يا سيدى . فچاك سيذهب مئى عن طيب خاطر .
 إنه رجل طيب كريم يعطينى المال فأفرقه على الفقراء . وأظن
 چون جدساف John Godsav سيأتى أيضاً ، وديكُ النبَّالُ
 أيضاً Dick the Archer ، وخادماهما چُون أف هُنكورت
 John of Honecourt وچليان Juliau . قد رتبْتُ كل شئ

= أن تغلبوا على النصف الشمالى من فرنسا (شمال نهر اللوار) ، غاصروها وطمعوا
 بعد فتحها أن تكون مفتاحاً لفتح النصف الجنوبى من فرنسا .

ياسيدى ، ولن أكلفك مشقة إلا أن تُصدر أمرك إليهم .
 روير : [يتأملها وقد علتة ذهلة من الدهش] ألا لعنة الأولين
 والآخرين على أن يجرى كل هذا من ورأى ولا أدرى !
 جان : [فى خفة روح لم تتعكر] لا ياسيدى ، لالعة عليك .
 فالله غفور رحيم . والقديستان كترينة Catherine ومرغريت^(١)
 Margaret ، وهما تتحدثان إلى كل يوم [يفتح فاه كأنما شديه] ،
 سيشفعان لك عند الله ، وستدخل الجنة ، وستذكر بأنك أول
 من أعانى فى سبيل الله .

روير : [يتحدث إلى الخولى وهو لا يزال فى قلقه ، ولكنه يغير
 لهجته لاهتمامه إلى نهج جديد يخرج به من ورطته] أصحیح ما قالت
 عن السيد دى بولنچيه ؟

الخولى : [يجيب وبه رغبة شديدة ظاهرة فى الجواب] نعم
 ياسيدى . وصحيح كذلك ما قالت عن السيد دى متز ، فكلاهما
 يود الذهاب معها .

روير : [ينبس بما لا يفهم وهو غارق فى الفكر ، ثم يذهب إلى
 النافذة وينادى من فى القناء] أنتم يا هؤلاء . أرسلوا إلى السيد

(١) ما قديستان . أما القديسة كترينة فهى راعية الفتيات وقد استشهدت
 حول سنة ٣٠٧ ميلادية على ما يذكرون . وأما القديسة مرغريت فاستشهدت حول
 سنة ٢٧٥ ميلادية .

دى پولنچيه . [يعود فيتحدث إلى جان] ، وأنتِ فاخرجى الآن وانتظري في الفناء .

جان : [تبسم له ابتسامة وضاعة] أفعُلُ يا سيدي .
[ثم تخرج] .

روبير : [إلى الخولى] اذهبِ معها أيها المعتوه الرعش ،
وابقِ حيث تسمعني ، ولا ترفع عينك عنها ، فسأدعوها إلى
مرة أخرى .

الخولى : بالله أفعُلُ يا سيدي ، واذكر تلك الدجاجات ، وأنها
أحسن دجاج يبيض في شمبانيا ، و ...

روبير : بل تذكرُ أنتِ حداثي ، وغب عن بصرى قبل أن
ينال ظهرك .

[يتراجع الخولى مريعاً فيلتقي عند الباب ببرتران دى پولنچيه ، وهو
رجل فرنسي ، لمفاوى المزاج مترهل ، وهو فارس ممتاز^(١) gentleman-at-
arms ، له من العمر ستة وثلاثون عاماً أو نحوها ، وهو موظف في قسم
البوليس الحربي ، غائب الفكر حلاًم ، يندر أن يتكلم إلا إذا كلمه أحد ،
فإن هو أجاب أجاب في بطاء وعناد . فهو على النقيض من روبير ،
فروبير يعتز بنفسه ويفرضها على الناس ، وله صوت جهير ، وله في الظاهر

(١) هو في العرف القديم واحد من رجال أربعين ، جرت العادة بإصطحاب الملك
لهم حينما ظهر في تمثيل الدولة . ثم صار القرب رتبة شرف .

نشاط جم ، وله في الباطن إرادة منحلة غاية الانحلال . يلتقي الخولى بولنجه
على الباب فيتراجع ويفسح له السبيل ثم يذهب هو لحاله .
[يرفع بولنجه يده بالسلام ويظل واقفاً يترقب أمراً] .
روبير : [ملاطفاً مؤانساً] لم أدعك لعمل من أعمال الوظيفة
وإنما لحديث أخويّ غير ذى كلفة ، فاجلس [يجر له المقعد بمشط
رجله من تحت الخوان] .

[يرخي بولنجه من صلابته ويدخل في جوف الحجرة ، ويحمل المقعد
فيضعه بين الخوان والنافذة ، ويجلس وهو ساهم يفكر . أما روبير فيرتكز
على طرف الخوان بين الواقف والجالس ، ثم يبدأ حديثه] :

روبير : أصغ لي يا بولي ، أريد أن أحدثك حديث الوالد .
[يرفع بولنجه بصره إليه دقيقة غير باسم ، ولكنه لا ينطق بكلمة] .
روبير : إنه حديث عن هذه الفتاة التي شغلت بعض همك .
لقد رأيتهَا ، وقد تحدثتُ إليها . فهي أولا مجنونة ، ولكن هذا
ليس بذى بال . وهي ثانياً ليست بنتاً فلاحاً ، بل هي من أواسط
الناس ، وهذا يجعل الأمر خطيراً . أنا أعرف طبقتها جيداً ،
فأبوها حضر هنا في المام الفائت ليمثل قريته في قضية ، فهو
بعض أعيانها ، وهو مزارع لم يرتق إلى طبقة الأسياد
gentlemen ، فهو يكتسب من زراعته ويرتق منها ، ولكنه
على كل حال ليس فلاحاً عاملاً يحرث الأرض ولا صانعاً . وقد

يكون له ابن عم في المحامين أو بين القساوسة . وأمثال هؤلاء الناس قد لا يكون لهم خطر في المجتمع . ولكنهم مع هذا قد يسبّبون متاعب كبيرة لرجال السلطة ، أعنى لى . وأنت تقصد إلى التعبير بهذه الفتاة ، وتضحك عليها بإفهامك إياها أنك تأخذها إلى الدوفين ، وهذا أمر لا شك يترأى لك في غاية البساطة ، ولكن اعلم أنك إن أحدثت لهذه الفتاة سوءاً ، فسُتحدث لى ألف سوء ، فإننى سيدأبىها وحامىها . إذن فأنسى صداقتى وارفع يدك عنها .

بولنجه : [بحرارة متعمّدة] يا لها من كبيرة ! إن عيني لا تنال من هذه الفتاة إلا ما كانت تناله من السيدة العذراء نفسها لو أنى نظرت إليها .

روبير : [ينزل عن الخوان] ولكنها تقول إنك أنت وچاك وديك تطوّعتم بالذهاب معها . فلأى شيء ما تطوّعتم ؟ لا تقل لى إنكم اقتنعتم بالهراء الذى تقول وأنكم ذاهبون معها إلى الدوفين .

بولنجه : [ببطء] إن فى هذه الفتاة شيئاً خفياً . إن فى المخفر تحت رجالاً فى أفواههم بذاعة وفى قلوبهم قذارة ، أو بمضمهم

هكذا ، ولكنهم لم يفوهوا قطّ بكلمة تتصل بأنوثها ، وم
يمقدون ألسنتهم عن اللعن والسباب في حضرتها . إن بها شيئاً
خفياً ، سرا لا يُكْتَنّه ، لعلنا إن جرّبناه جِدنا عبقاه .

روبير : بولى ! بولى ! ما هذا الحديث ؟ تماسكْ يا رجل
وانظر ما تقول . إن البصر بالأمور لم يكن يوماً خير فضائك ،
ولكن هذا الذى تزعم فات الحدّ وفاض [يتراجع روبرير عنه مستاء
محتقزاً] .

بولنجيه : [لا يظهر فيه أثر لاستياء روبرير وتقززه] ماذا يفيد
البصر بالأمور ؟ لو كانت لنا بصيرة إذن لانضممنا إلى دوق
برجندى^(١) Duke of Burgundy وإلى ملك الإنجليز . إن نصف
فرنسا إلى اللوار في أيديهم . ولهم باريس . ولهم هذه القلعة ، فأنت
تعلم علم اليقين أنك اضطُرت إلى تسليمها إلى دوق بدفورد
Duke of Bedford ، وأنتك إنما احتفظت بها على عهد أن
لا تخون . أما الدوفين ففي شينون^(٢) Chinon ، كالفأر محصوراً
في ركن ، غير أنه يأتى أن يقاتل كما يقاتل الفأر . وعدا هذا
فنحن لا ندرى أنه الدوفين حقاً ، فأمة تقول إنه ليس الدوفين ،

(١) برجندى مقاطعة فرنسية في شرق فرنسا .

(٢) بلدة فرنسية على نهر فين وهو فرع من نهر اللوار . وهي في الجنوب الغربي
من بلدة أرلين وتبعد عنها نحواً من مائة ميل .

وَمَنْ أَعْرِفُ بُولِدٍ مِنْ أُمِّهِ . فإِذَا تَرَى فِي مَلَكَةٍ تَقُولُ إِنَّ وَلَدَهَا
مِنْ حَرَامٍ ؟

روبير : إِنِّهَا زَوْجَتِ ابْنَتِهَا مَلِكَ الْإِنْجِلِيزِ ، فَهَلْ تَلُومُهَا ؟
پولنچيه : إِنِّي لَا أَلُومُ أَحَدًا ، وَلَكِنْ شُكْرًا لَهَا عَلَى
مَا صَنَعَتْ ، فَالْدُوفِينُ كَسِيرٌ ذَلِيلٌ ، وَلَا بَدَ لَنَا مِنْ مُوَاجَهَةِ الْحَقِيقَةِ
عَارِيَةً . إِنَّ الْإِنْجِلِيزِ سَيَأْخُذُونَ أُرْلِينَ Orleans وابنَ الفَاعِلَةِ^(١)
دُونَا Dunois لَنْ يَسْتَطِيعَ إِيقَافَهُمْ .

روبير : إِنَّ ابْنَ الْفَاعِلَةِ هَزَمَ الْإِنْجِلِيزِ مِنْذُ عَامَيْنِ فِي
مُنْتَرَجِي Montargis وَكُنْتُ مَعَهُ .

پولنچيه : مَهْمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بِالْأَمْسِ فَرَجَالَهُ الْيَوْمَ مُسْتَضْعَفُونَ
أَذْلَاءُ ، وَلَنْ يَجِينَا الْآنَ إِلَّا مَعْجَزَةٌ ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَعْجَزَاتِ
روبير : إِنَّ الْمَعْجَزَاتِ لَا بَأْسَ بِهَا يَا بُولِي ، وَلَكِنْ
الصَّعُوبَةُ فِي أَنَّهَا لَا تَقَعُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ .

پولنچيه : هَكَذَا كُنْتُ أَحْسَبُ بِالْأَمْسِ ، أَمَّا الْيَوْمَ فَأَنَا
فِي رِيْبَةٍ مِنْ ذَلِكَ [يَقُومُ وَيَمْشِي نَحْوَ النَّافِذَةِ مَفْكَرًا] . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
فَخَالِنَا الْيَوْمَ يَقْضَى بَأَنَ لَا تَتْرَكَ أَبَايَا إِلَّا طَرَقْنَاهُ ، وَفِي هَذِهِ الْفَتَاةِ
شَيْءٌ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَسْمِيهِ .

(١) هَذَا لَقَبُ الَّذِي عَرَفَ بِهِ وَاسْمُهُ دُونَا Dunois

روبير : أتظن أن الفتاة تستطيع إتيان المعجزات ؟ قل لي ؛ أتظن ذلك ؟

بولنجه : إن الفتاة في ذاتها معجزة أو بعض معجزة ، ومهما يكن من أمرها فهي آخر سهم في جمانا ، فالخير في إطلاقه لا في حبسه والرضا بالهزيمة [يمشى على غير هدى نحو البرج] .
روبير : [ياخذ في التردد] أحقاً تظن ذلك ؟

بولنجه : [يدور نحوه] وهل أبقّت لنا الحوادث شيئاً نظنه غير ذلك ؟

روبير : [يذهب إليه] قل لي يا بولي ، لو كنت في مكاني أكنت تأذن لفتاة كهذه أن تختلك عن ستة عشر فرنكا ثمناً لحصان ؟

بولنجه : أنا أدفع ثمن الحصان .

روبير : تدفعه حقاً ؟ !

بولنجه : نعم أدفعه لأعزز رأبي فيها .

روبير : أتقاصر على أمل خائب كهذا ، بهذا القدر من المال ؟

بولنجه : هذه ليست مقاومة .

روبير : فاهى إذن ؟

بولنجيه : إنها حقيقة واقعة كالفجر الطالع . إن كلماتها
وحرارة إيمانها أوقدت في القلب ناراً .

روبير : [يأساً منه] مجنونان استويتما في الجنون والله .

بولنجيه : نحن الآن في حاجة إلى طائفة من المجانين . ألا
ترى أين أدّى بنا العقلاء ؟

روبير : [عندئذ يكسح عجزه وضعف إرادته علنا كل ما ادّعاه
من مظاهر العزم القوي] سأحس من نفسى السخف والتفيل ،
ومع هذا فإن كنت موقناً مما تقول . . ؟

بولنجيه : موقن يقيناً يدفعنى إلى أخذها لشينون Chinon
إلا أن تمنى أنت .

روبير : ليس هذا من العدل فى شيء . إنك تلقى
التيمة على .

بولنجيه : إنها عليك لا محالة ، بأيّ قضاء قضيت .

روبير : نعم ، نعم ، فهذا هو عين الحرج . فبأيّ قضاء
أقضى ؟ إنك لا تدري مقدار ما أنا فيه من ارتباك وخيلة [يخطو
خطوة بطيئة وفي نفسه أمل خفى أن تأتى جان فتكون له رأيه] أما

تظن الخير أن أستدعى جان فأحدثها مرة أخرى ؟

بولنجه : [ينهض] نعم [ثم يذهب إلى النافذة وينادى] جان !

صوت جان : هل سمح لنا بالذهاب يا بولى ؟

بولنجه : اصعدى وتعالى هنا . [يلتفت إلى رويير]

أأتركك وإياها ؟

رويير : لا ، بل ابقى هنا وشُدْ أزرى .

[يجلس بولنجه على الصندوق ، ويعود رويير إلى كرسى الإمرة والسلطة ؛ ولكنه لا يجلس عليه بل يظل واقفاً ليستطيع أن ينفخ نفسه فيزداد مهابة . ثم تدخل جان وهى تطفح بالأخبار السارة الكثيرة] .

جان : چاك رضى بأن يدفع نصف ثمن الحصان .

رويير : [يجلس وقد ذهب عنه انتفاخه] جميل جميل

والله !!

بولنجه : [بصوت قوى حادّ وهو عابس زاجر] اجلسى يا جان .

جان : [تزدجر بعض الشيء ، ثم تنظر إلى رويير] هل

لى أن أجلس ؟

رويير : افعلى ما تؤمرين .

[تثنى ركبتيها احتراماً ، ثم تجلس على المقعد بينهما . ويجهاد رويير

فى الظهور بالقوة والجبروت ليخفى خبلته التى هو فيها] .

روبير : ما اسمك ؟

جان : [تتحدث بلا كلفة] في اللورين يسمونني دائماً جيني ،
وهنا في فرنسا يسمونني جان ، والجند يدعونني بالفتاة .

روبير : ما لقبك ؟

جان : لقي ؟ ما هذا ؟ إن أبي يسمي نفسه أحياناً دَرَك ،
ولكنني لا أعلم عن هذا شيئاً . إنك لقيت أبي . إنه ...
روبير : نعم ، نعم ، أذكر ذلك . إنك تأتين على ما أظن
من دُمرَيمي Domrémy باللورين ؟

جان : ولكن ما خطرُ هذا والفرنسية لغتنا جميعاً ؟

روبير : لا تسألني الأسئلة وإنما أجيبها . كم سنك ؟

جان : سبع عشرة سنة . هكذا يقولون لي . وقد
تكون تسع عشرة ، فأنا لا أدري .

روبير : قلت إن القديسة كترينة والقديسة مرغريت
تحدثان إليك كل يوم ، فإذا عُنيت بهذا ؟

جان : إنهما يتحدثان .

روبير : ما شكلهما ؟

جان : [يتولاها العناد بفتة] لن أخبرك شيئاً عن هذا ، فهما

لم تأذنا لي

روبير : ولكن أرايتهما رأى العين ؟ أتحدثنا إليك فعلا
كما أتحدث إليك الآن ؟

جان : لا . إن حديثهما ومرآهما يختلفان كل الاختلاف
عن هذا . إني لن أستطيع أن أحدثك في ذلك ، فلا تحدثني في
الذي أسمع من أصوات .

روبير : ماذا تعنين ؟ أصوات ؟

جان : إني أسمع أصواتا تأمرني بما أفعل . إنها تجيء
من عند الله .

روبير : إنها تجيء من خيالك .

جان : بالطبع ، فهكذا تأتي رسائل الله إلى خلقه .

بولنجيه : غلبتك يا صاحبي .

روبير : لا ، أبداً . [إلى جان] فالله إذن يأمرك برفع

الحصار عن أورلين Orleans ؟

جان : وبتتويج الدوفين في كاتدرائية رانس Rheims

روبير : [يستدرك أنفاسه] تتويج الدو... ! والله عال !

جان : وبطرده الإنجليز من فرنسا .

روبير : [في استهزاء] ثم ماذا بعد هذا ؟

جان : [في خفة روح جذابة] هذا يكفي الآن ، فشكراً لك ياسيدي .

روبير : أظنك تحسبين رفع الحصار سهلاً كطرد بقرة من حقل ؟ أظنك تحسبين الجندية صناعة يتعاطاها كل إنسان ؟
جان : بل أحسب أن الأمر لا يصعب جداً إذا جاءك نصر الله ، وإذا أنت رضيت أن تضع حياتك في يد الله يفعل بها ما يشاء . إن كثيراً من الجند سُذَّجُ أغرار .

روبير : [يتجهم] أغرار ! أرايت الإنجليز يقاتلون ؟
جان : إنهم ليسوا إلا رجالاً ، خلقهم الله كما خلقنا ، وأعطاهم أرضاً ولغة غير لغتنا وأرضنا ، وتأبى مشيئته أن يحتلوا أرضنا ويتكلموا لساننا .

روبير : ما الذي أدخل هذا الهُراء إلى رأسك ؟ ألسنت تعلمين أن الجند إنما هم أتباع لرب الإقطاع ، وأنهم لا يعينهم ولا يعينك مَنْ يكون هذا الرب ، وسواء عندهم أن يكون دوقٌ برجندي أو ملك فرنسا أو ملك الإنجليز . وما دخل اللغات في هذا ؟

جان : لا أفهم كلمة مما تقول . إن الله رب السموات

ربُّنا أجمعين ، وهو قد قَسَمَ فينا الأرض والآلِسنَ فجعلنا أمما وأقطاراً ، وقد شاء الله أن تُبقَى كلُّ أمة على قطرها ، ولولا هذا لكان من الإنم قتل الرجل الإنجليزي في الميدان وإهراق دمه وقد حرَّمه الله ، ولولا هذا لكنتَ ياسيدى على وشك أن تدخل النار . لا تفكر ياسيدى فى واجبك لربِّ الإقطاع وإنما فكر فى واجبك لربِّ السماء .

بولنجه : لافائدة من هذا يارويير . إنها تُفحمك وتُخرسك كلما فتحت فاك .

رويير : هى تفحمنى الا والله ، وسترى . [إلى جان] نحن لا نتحدث عن الله ولكن عن الأمور الواقعة . إنى أسألك أيتها الفتاة مرةً أخرى : أرايتِ الإنجليزيَّ يحارب ؟ ألم ترَهُم أبداً يسلبون ويحرقون ويقلبون الريف الأخضر خراباً يباباً ؟ ألم تسمى القصص تُروى عن « أميرم الأسود »^(١) Black Prince

(١) الأمير الأسود لقب جرى على إدوارد أمير الغال (١٣٣٠ — ١٣٧٦) أكبر أولاد إدوارد الثالث ملك إنجلترا (١٣١٢ — ١٣٧٧) ، غزا الاتان فرنسا أكثر من مرة وجرت لها مع الفرنسيين موقعتان شهيرتان طمعاً فى عرش فرنسا ، أولاما موقعة كريسى Crécy فى ٢٥ أغسطس سنة ١٣٤٦ قاد فيها الأمير الأسود بعض جيش أبيه وأبلى بلاء حسناً . وثانيتها موقعة پواتييه Poitiers وفيها أسرا الأمير ملك فرنسا وباروناته وحمل الملك أسيراً إلى إنجلترا

وقد كان أسود من الشيطان ؟ وملكهم ^(٢) ، ألم تسمى الحكايات .
تُحكى عن آية ^(٣) ؟

جان : يجب أن تنزع الخوف من قلبك يا رويير .

رويير : لعنة الله عليك ! ما أنا بخائف . ومن ذا الذى .
أذنك أن تستينى رويير ؟

جان : هكذا سُميتَ فى الكنيسة بإذن الله . وما لك .
من اسم آخر فهو اسم أليك أو أخيك أو غيرهما .
رويير : صة . صة .

جان : أنصبت إلى أيها السيد . فى بلدنا فى دُمرى .
Domrémy اضطرتنا الحال إلى الفرار من العسكر الإنجليزى إلى .
أقرب قرية ، وفى هذه القرية وجدناهم قد خلقوا ثلاثة من .
جرحاهم . واتفق لى أن عرفت هؤلاء الثلاثة اللّمانين المساكين .
خير معرفة ، فلم أجد لهم من قوة الجسم نصف قوتى .
رويير : أتعرفين لماذا يُسمَوْنَ اللّمانين ؟

(٢) ملك الإنجليز المذكور هو هنرى السادس (١٤٢١ — ١٤٧١) توج فى
لندن عام ١٤٢٩ وتوج فى باريس ملكا على فرنسا فى عام ١٤٣٠
(٣) أبوه هو هنرى الخامس (١٣٨٧ — ١٤٢٢) ملك إنجلترا ، غزا فرنسا
طمعاً فى مرشها ودخل باريس

جان : لا . كل الناس تسميهم لعانين^(١) .
روبير : ذلك لأنهم دائماً يدعون الله بعضهم في بعض بأن
يلعنهم ويهلك أرواحهم . فهذا معنى الكلمة في لغتهم ، فكيف
تجدين ذلك ؟

جان : رحمهم الله . إنهم سيمودون إلى بلادهم ، إلى
الأرض التي خلقها الله لهم وخلقهم لها ، وعندئذ يفعلون كما يفعل
عباده الصالحون . لقد سمعت قصة أميرم الأسود . إنه ما لبث
أن وطئت قدماه أرض بلادنا حتى تقمصه الشيطان فصار مارداً
أسود شريراً . ولكنه في بلاده ، في الأرض التي خلقها الله له ،
كان من عباد الله الصالحين . وهكذا شأن الناس . فأنأ لو ذهبت
إلى إنجلترا ضد مشيئة الله لأغروها وأعيش فيها وأتكلم لغتها ،
إذن لتقمصني الشيطان . فإذا جاءني الشيخوخة أخذني الفرع كلما
تذكرت ما صنعت من السوء في صباى .

روبير : قد يكون هذا . ولكن كلما ركبت الشيطان
ازددت مِراساً في الحروب . ومن أجل هذا سيأخذ الإنجليز
أرلين Orleans بما ركبهم الشيطان . وأنت لن تصديهم عنها ولا
عشرة آلاف مثلك .

(١) أصل الكلمة جددامز Godamns وهي تركب من كلمتين جد God كلمة
معناها الله ، ودام damn كلمة أخرى معناها يلعن . ومن الإنجليز من يفرم عند السباب
باللعن كما يفرم بعض الشرقيين بالدعاء باللعنة

جان : ألف واحد مثلى يصدونهم عنها . بل عشرة
 مثلى يصدونهم إذا كان الله معهم [تضييق بجليستها وسكونها فتقوم فجأة
 وتهجم عليه] إنك لا تفهم يا سيدى . إن جنودنا يُغلبون لأنهم
 يحاربون لخلاص رقابهم والإفلات من الموت . والحرب أقصر
 الطرق إلى النجاة . وفرساننا النبلاء Knights لا يفكرون إلا فى
 مال الفداء . فالحال معهم « ندفع أو تدفعون » لا « تُقتل
 أو تُقتلون » . فسأعلمهم كيف يقاتلون حتى تكون مشيئة الله فى
 هذا البلد الأمين ، وعندئذ يطردون الإنجليز من فرنسا طرداً ،
 ويسوقونهم كالخراف سوقاً . وستعيش أنت ويعيش بولى ليريا
 أرض فرنسا وقد خلت منهم أجمعين ، فلا يكون فيها إلاملك واحد ،
 ليس هو الملك الإنجليزى الإقطاعى ، ولكن ملك الله الفرنسى .
 رويير : [إلى بولنجه] بولنجه ، قد يكون كل هذا خرفاً ،
 ولكن الجنود قد يصدقونه ، فإن هم صدقوه هاجبهم إلى القتال .
 على أنهم ما هاجبهم إلى القتال شىء قلناه أبداً . والدوفين نفسه قد
 يؤمن به ، فإن هى استطاعت حملة على القتال حملت عليه كل
 الناس من ورائه .

بولنجه : لا أرى فى التجربة ضرراً ؟ فهل ترى فيها شيئاً ؟
 إن فى هذه الفتاة سرا

روبير : [يلفت إلى جان] والآن أنصتي إلى أيتها الفتاة ،
[يضيق ذرعاً بقطعها الكلام عليه] لا تعجلى بمقاطعتى قبل أن
أتم تفكيرى .

جان : [ترتمى فى ثقل على المقعد كتلميذة مدرسة طيبة] سمعاً
وطاعة ياسيدى .

روبير : إن أمرى إليك أن تذهبي إلى شينون Chinon
بصحبة هذا الرجل السرى وثلاثة من أصحابه .

جان : [يضىء وجهها فرحاً وقد شابكت بين يديها] أى سيدى
الأكرم . إنى أرى هالة تدور حول رأسك كهالة القديسين .
بولنجه : وكيف يكون دخولها إلى الحضرة الملكية ؟

روبير : [وقد كان ينظر فوق رأسه يبحث عن الهالة فى شيء
من الخشبة] لا أدرى . تدخل إلى حضرة بمثل ما دخلت إلى
حضرتى . فإن استطاع الدوفين أن يمنعها من الدخول فهو من
الرجولة فوق ما كنت أحسب . [يقوم] . سأبعث بها إلى شينون
ولها أن تقول إنى بعثت بها ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون فهذا
كل طوق .

جان : والملابس ؟ تأذن لى فى ملابس الجند ، أليس
كذلك ياسيدى ؟

روبير : البسى ما تشائين و عليك تبعته فليس لى شأن فيه .
چان : [تثور فرحاً بنجاحها] هيا يا بولى هيا ! [تخرج مندفعة] .
روبير : [بصافح بولنچيه] مع سلامة الله يا عزيزى . لى
مجازف فى الذى أتيت و قل من الرجال من يصنع مثل الذى
صنعت ، ولكنى أرى كما ترى أن فى هذه الفتاة شيئاً خفياً .

بولنچيه : : نعم إن بها سرا . فى حفظ الله [يخرج]
[يعود روبير من الباب على مهل وهو يحك رأسه يفكر فى الذى
حدث ، وهو فى ريبة شديدة أن يكون قد تغفلت أنه مخبولة هى فوق
خبيلتها دونه فى المجتمع شأنًا] .

[يدخل الخولى جاريًا هالعا يحمل سلة]

روبير : ماذا عندك الآن ؟

الخولى : سيدى ! إن الدجاج بيبيض بغير حساب . ستون
بيضة يا سيدى .

روبير : [يتصلب فى ارتعاش . ثم يرسم علامة الصليب على نفسه
ثم ينبس بالكلمات الآتية فى عسر من شفتين قد هرب الدم منها]
المجد لله فى السماء [ثم يقول فى صوت عال وهو ياهث لانتقاطع أنفاسه]
إن رسالتها من الله حقا .

المنظر الثانى

[فى بلدة شينونف Chinon فى مقاطعة تورين Touraine . يظهر طرف من حجرة العرش وقد انفصل عن باقى الحجرة بستار فصار مدخلا لها . وقد وقف فيه رجلان ينتظران قدوم الدوفين ، أحدهما مطران مدينة رانس Rheims وهو رجل قارب الخمسين معلوفٌ بدين ليس له من مظهر كُنسَى غير الضخامة والوجاهة ، وله فى السياسة شأن . والرجل الثانى كبير أمناء الملك ، للنسنيور دى لَتريمى ، de La Trémouille وهو رجل فطيع متعجرف مليء كركق أفهم خمرآ . وفى الحائط إلى يمين الرجلين باب . وتاريخ اليوم الثامن من مارس عام ١٤٢٩ . والوقت الأصيل] .

[يقف المطران وقفة وقار ، وإلى يساره كبير الأمناء يرغى ويزبد غاضباً عاصفاً] .

لَتريمى : ماذا يعنى الدوفين بهذا ؟ ماذا يعنى بجبسننا فى انتظاره كل هذه المدة ؟ وأنت ما صبرك ووقوفك هكذا كالصنم ؟

المطران : إنك تعلم أنى مطران ، والمطارنة بمض صنوف الأصنام . أو على الأقل فن بمض عملنا أن نتعلم أن نحتمل

كالأصنام وقاحة البلاء وجهل الأغبياء . وعدا هذا ياعنزي
يا كبير الأماناء ، أليس من حق الدوفين أن يجسك في انتظاره ؟
لترى : لعنة الله على الدوفين ، وَعَدَتِكَ اللعنة ! أتدري
كم لى عليه من الدين ؟

المطران : أكثر كثيراً مما لى أنا عليه ، لاشك ، لأنك
أغنى منى كثيراً . وهذا على فرض أنك أقرضته كل ما تستطيع
إقراضه ، فهكذا فعلت أنا .

لترى : سبعة وعشرون ألفاً ! هذه آخر نشلة نسلها .
سبعة وعشرون ألفاً !

المطران : وماذا صنع بها كلها ، فإنى لم أر قط عليه
كسوة تصلح أن أرمى بها لقسيس .

لترى : إنه يتغذى بدُجيجة أو بقطعة خسيصة من
الضأن . يقترض منى آخر درهم ومع هذا لا تجد عليه من آثار
ذلك شيئاً . [يظهر حاجب فى الباب] أخيراً !

الحاجب : لا يا مولاي . ليس هذا بالملك ، وإنما هو

السيد دى ريه de Rais .

لترى : الشاب ذو اللحية الزرقاء ! ولماذا تستأذن له ؟

الحاجب : الكبتن لاهير La Hire معه . حدث حادث
على ما أحسب .

[يدخل الكبتن جل دي ريه Gilles de Rais ، وهو فتى أنيق
رزين ، يُرْهِى بلحية مُحَوَّاة صغيرة صبغها بالأزرق ، وازدهاء منها أنه انفراد
بها فأرسلها في بلاط لا تُرْسَل فيه اللحي . وهو رجل يدأب دائماً ليكون
محبباً إلى الناس ، ولكن تعوزه البهجة المطبوعة ، وهو في صميمه غير
لطيف . ومصادق ذلك أنه تحدّى الكنيسة بعد ذلك بإحدى عشرة سنة
أو نحوها فاتهمته بأنه كان يبغى المتعة ويطلب اللذة من أفعال قاسية فظيعة ،
ومن جرّاء هذا شتقوه^(١) . أما الساعة فلم يكن قد أظله بعد ظلّ المشاق ،
فهو يتقدم في اتهاج إلى المطران . عندئذ يخرج الحاجب] .

ذو اللحية الزرقاء : عبدك ووليك ياسيدي المطران . ونهارك
سعيد يا مولاي ، أتدرى ما حدث للاهير ؟

لترعى : إنه سبّاب بنىء فلعله انتابته نوبة من السب
واللعن تركته صريعاً .

(١) جل دي ريه (١٤٠٤ — ١٤٤٠) ويلقب بنىء اللحية الزرقاء حارب
الانجليز ومنح لقب مارشال فرنسا في عام ١٤٢٦ . وقدم شارل السابع ملك فرنسا
وأثفق في خدمته مالا كثيراً من ثروة كبيرة . ورعى الأدب والموسيقى وأولاهما عطفه
وماله . ولكن كانت به سوءة كبيرة لم يظن لها رؤساؤه وأقرانه حتى اتهمه بها
الفلاحون ، ذلك أنه كان يرسل خدمه تخطف له الأولاد ، فيسومهم العنف ثم يقتلهم .
فلما خاصمته الكنيسة على الزندقة والقتل كان عدد قتلاه قد بلغ المائة والأربعين .
واعترف بخطاياهم فهرب بذلك من حكم الكنيسة . ولم تستطع الحكم عليه في تهمة القتل
-نقام بمحاكمته رئيس برلمان بريتون فحكم عليه بالشنق فشنق في ٢٦ أكتوبر سنة ١٤٤٠

ذو اللحية الزرقاء : لا ، فالأمر على تقيض ما تقول . فما هو
بالصريع ، وإنما الصريع فِرَنَك ، ذلك السَّبَاب الوحيد في تورين
الذى يستطيع غلبة لاهير في السَّبَاب ، وكان يَسُبُّ وَيُفُحِشُ فقال
له جندى ما يحمل بك السَّبَاب وأنت على باب الموت .
المطران : ولا على أى باب آخر . ولكن قل لى كيف كان
فِرَنَك البذاء على باب الموت ؟

ذو اللحية الزرقاء : سقط تَوَّافٍ بئر وغرق فيه . وراء لاهير
فارتاع حتى فقد صوابه .

[يدخل السكيتن لاهير ، وهو جندى قديم ، لا يعرف من آداب
البلاط والقصور شيئاً ، ولكنه يعرف الكثير النابى من أدب العسكر
والخيام] .

ذو اللحية الزرقاء : كنت أحدث المطران وكبير الأمناء
عنك ، فقال المطران إنك نفس ضالّة هالكة .

لاهير : [يمر أمام ذى اللحية الزرقاء بخطى واسعة ثقيلة إلى أن
يزرع نفسه بين المطران وكبير الأمناء] ليس الأمر مزاحاً ، فقد كان
الحال شراً مما ظننت . فالجندي لم يكن جندياً وإنما مَلَكاً فى
لباس جندي .

المطران والأمين وذو اللحية الزرقاء : [يصبحون معاً] مَلَكاً

لاهير : نعم مَلَكًا . إنها فتاة قامت من شميانيا في ستة من الرجال ، ونفذت بهم في الكثيف من كل شيء ، في بُرْجَنْدِيَّين^(١) وانجليز وفارّين من الجيش ولصوص نهايين وغير ذلك مما يعلم الله ، ومع كل هذا لم تقع أبصارهم على أحد إلا أهل الريف .
إني أعرف أحد هؤلاء الرجال ، هودى پولنى ، وهو يقول إنها مَلَك . ألا على اللعنة بمد هذا إن نطق فى بفاحشة أبداً .

المطران : فآتمحة فى التقوى مُبِينَةً يا كبتن .

[يضحك لتريمى وذو اللحية الزرقاء . يعود الحاجب] .

الحاجب : جلالة الملك .

[يقفون فى انتظام يؤدون واجب البلاط كمن يؤدى واجباً ثقيلًا .
ثم يدخل الدوفين من خَلَل الستائر وفى يده ورقة . وهو فى الواقع قد أصبح الملك شارل السابع منذ مات أبوه ، ولكنه لم يكن قد تتوج بعد ، وهو فى السادسة والعشرين ، وله جسم ضعيف حقير . وكانت تجرى العادة بالإلحاح فى خلق الرأس فلا تبدو من تحت غطاءه بادية من شعر ، فزاد هذا فى منظره قبحاً . وكانت عادة تجرى فى الرجال والنساء على السواء . وكانت له عينان صغيرتان ضيقتان متقاربتان ، وأنف متهدّل طويل يتدلّى من فوق شفة عليا سمكة قصيرة . وعلى وجهه بيمة الكلب الصغير الذى اعتاد الرُفْسَ الكثير فلم يؤدبه الرُفْسُ ولم يصنع منه شيئاً . ولكن لم تكن فيه جلالة

(١) برجندى مقاطعة بفرنسا .

أو غباوة . وكانت له فكاهة في صفاقة أعاتته على حسن الدفاع عن نفسه في الأحاديث . وكان في هذه الساعة مُحتاج الشاعر كالطفل وجد لعبة جديدة . دخل واتجه إلى المطران عن يساره فتراجع لاهير وذو اللحية الزرقاء نحو الستائر .

شارل : أتدرى يا مطران ما بعث لى روييردى بذريكور من فوكولور ؟

المطران : [في احتقار] أنا لا أحتفل بلعباتك الجديدة .
شارل : [غاضباً] ليست هذه لعبة . [بوجه عابس متجهّم] .
على كل حال أنا في غنى عن احتفالك .

المطران : سموك يغضب من غير ضرورة .
شارل : متشكر ! إنك دائماً حاضراً بخطبة تعظ بها .
لثريعى : [في غير رقة] كفاك شكوى . ثم ماذا بيدك ؟
شارل : وما شأنك في هذا ؟

لثريعى : إن من شأنى أن أعلم ما يجرى بينك وبين حامية فوكولور [يجذب الورقة من الدوفين ويبدأ يقرأها في صعوبة ويتتبع كلماتها بأصبعه كلمة كلمة ، يتهجى مقاطع الكلمات مقطّعة مقطّعة] .
شارل : [كسير النفس] إنكم جميعاً تحسبون أن لكم أن تاملونى كما تشاؤون لأنى مدين لكم ، ولأنى لا أحسن القتال .

ولكن اعلّموا أن في هذه المروق يجري دم الملوك .
المطران : حتى هذا مشكوك فيه يا صاحب السمو ، ولن
يجد الناظر فيك شيئاً من مخايل جدك شارل الحكيم .
شارل : دَعُوا جدي وذكره فأُكاد أُطيقه . إنه غلا في
الحكمة فلم يكتف بنصيبه منها ، وجار على أنصبة الأسرة
جميعها واستحوذ عليها كلها الخمسة أحقاب تأتي من بعده ، وخلفني
بينكم سخيفاً ضعيفاً تمتهنوني وتتوعدوني جميعاً .
المطران : اضبط نفسك يا سيدي فهذه الغضبات الصارخة
لا تليق .

شارل : أموعظة أخرى ! أشكرك . أليس من الأسف
الكثير أن القديسين والملائكة لا تأتيك برغم أنك مطران ؟
المطران : ما ذا تعني ؟

شارل : ها ، ها ! سل هذا المتعطر الشرير [يشير إلى
لثري] .

لثري : [وقد هاج غضباً] احبس لسانك يا هذا . أتسمعي ؟
شارل : بالطبع أسمعك فلا داعي للصراخ . إن كل من
في القلعة يسمعك . قل لي ، لماذا لا تذهب إلى الإنجليز وتصرخ
فيهم هذا الصراخ ، وتهزمهم نيابة عني ؟

لترى : [يرفع قبضة يده مهدداً] أنت أيها الـ . . .

شارل : [يجرى وراء المطران] إياك أن ترفع يدك عليّ . . إنها الخيانة المظلمة .

لاهير : حلما أيها الدوق حلما .

المطران : [بقوة] لا ، لا . إن هذا لا يُجدي . سيدى الأمين الأكبر ، أرجوك ، أرجوك ، فلا بد من بعض النظام فىنا . [إلى الدوفين] وأنت يا سيدى إن عجزت عن حكم مملكتك فلا أقلّ من أن تبغى حكم نفسك .

شارل : موعظة أخرى ! أشكرك

لترى : [يعطى الورقة للمطران] خذْ واقرأ لى هذه الورقة المنكودة . لقد أصعد الدم إلى رأسى فلم أعذأتين من حروفها شيئاً . شارل : [يخرج من خلف المطران ويذهب وراء لترى ويطلب من فوق كتفه اليسرى] أنا أقرأها لك إن أحببت . أنا أعرف كيف أقرأ ، حقاً لا كذبا .

لترى : [باحترار شديد ، وبدون أن تؤثر فيه التعميرة اللاذعة التى قصدتها شارل] نعم تعرف أن تقرأ ، وهذا كل ما تصلح له . أقرأت ما بها يا مطران ؟

المطران : كنت أحسب بدريكور أعقل من هذا . إنه يبحث إلينا بينت فلاحه معتومة ..

شارل : [مقاطعاً] لا ، لا ، إنه بحث ملكا . إنه بحث قديسة . وهى تنجى إلى أنا ، نعم إلى أنا ، أنا الملك لا إليك أنت يا مطران ، برغم قداستك . فإن أنت جهلت الدم الملكي أين يكون فقد عرفت هى مكانه [يمشى إلى الستائر من بين لاهير وذى اللحية الزرقاء رافعا أفعه غفورا زاهيا] .

المطران : لن ترى هذه الفتاة البلهاء .

شارل : [ينفك راجعاً] ولكنى أنا الملك وسوف أراها لترى : [بحسوة] إذن فهى لن تراك ، فإذا عندك الآن ؟ شارل : قلت لك سأراها ، وفى هذه المرة سأعرف كيف يطاع أمرى .

ذو اللحية الزرقاء : [ضاحكا منه] يا صبيّ يا شقيّ ! ماذا كان جدك الحكيم يقول لو أنه سمع منك هذا ؟

شارل : سؤالك هذا دليل جهلك يا ذا اللحية الزرقاء . إن جدى كانت له قديسة تملو فى صلاتها فى الهواء وتخبئه بكل ما يؤد علمه . وأبى المسكين كانت له قديستان ، مارى دى ميا

Marie de Maillé وجسك أفنيون Gasque of Avignon . إن
هذا من تقاليد الأنسة ، فلست أبالي بالذى تقولون ، فلا بد لى
من قديسة أنا أيضاً .

المطران : إن هذه المخلوقة ليست قديسة . وما هى حتى
بالمرأة المحترمة . إنها لا تلبس ملابس النساء ، بل ملابس الجند ،
وهى تركب مع الجند وتطوف الريف مع الجند ، فهل تحسب
يا صاحب السمو أن امرأة كهذه خليفة بالدخول إلى بلاطك ؟
لاهير : صه ! [يذهب إلى المطران] أتقول إنها فتاة تلبس
درعاً كالجنود ؟

المطران : هكذا يصفها بدريكور .

لاهير : ولكن ، وحياة كل عفريت ، وعزة كل شيطان
مرديد — آه عفوك اللهم ماذا أقول ؟ — بل وحياة العذراء مريم
وعزة القديسين أجمعين إن هذه إلا الملك الذى صَعَقَ فرنك
البذاء وقتله لفحش لسانه .

شارل : [فرحاً بنصره] ألا ترون ! إنها معجزة !

لاهير : أخشى أن تصعقنا جميعاً إذا نحن أسأناها ، فبربك
يامطران إلا وزننت ما تقول وتفعل .

المطران : [بشدة] كلام فارغ ! من هذا الذى صُيِّق ؟ إن
هو إلا رجل سافل سكير ليم ألف مرة على خشه ، ثم ساقه
القدر إلى بئر فسقط وغرق فيها . مصادفة من مصادفات الحوادث
لاهير : أنا لا أعرف المصادفات ما هى ، ولكنى أعرف
أن الرجل مات ، وأنها قالت له إنه سيموت .

المطران : ولكننا سنموت جميعاً يا كبتن .

لاهير : [يصلب على صدره] أعوذ بالله من الموت [يتراجع

خشية الاستمرار فى الحديث]

ذو اللحية الزرقاء : من الميسور أن نكتشف إن كانت
هذه الفتاة ملكاً أو غير ملك . دعونا ندعى إذا هى حضرت أئى
أنا الدوفين ، ثم ننظر ما سيكون منها ، أتعرفنى ، أم تجوز
الحيلة عليها .

شارل : إنى موافق ، فإن هى لم تتبين أين يجرى الدم
الملكى فلا عرفتها ولا عرفتنى .

المطران : إن تنصيب القديسين من عمل الكنيسة ، فبال
بدريكور يدخل فيما لا يعنيه ، وما باله يفتصب القساوسة أعمالهم .
لا والله ، لن تدخل هذه الفتاة هنا أبداً .

ذو اللحية الزرقاء : ولكنك يامطران . . .

المطران : [بصلابة] إني أتكلم باسم الكنيسة [إلى الدوفين]
فهل تجاسر أن تأذن لها في الدخول ؟

شارل : [مرتاعاً ولكنه عابس] إذا كنت تنذرني بقطعي
من الكنيسة فبالطبع ليس لي ما أقوله . ولكنك لم تقرأ ذيل
الكتاب . بدريكور يقول إنها ترفع لنا الحصار عن أرلين ،
وتهزم لنا الإنجليز .

لتريمي : كلامٌ هُراء .

شارل : إذن فهل تقوم أنت برفع الحصار بكل ما أوتيت
من غلظة وطمع .

لتريمي : لا تسبني في وجهي ، أفسامع أنت ؟ إني حاربت
أكثر مما فعلت أنت أو تفعل أبداً ، ولكني لا أستطيع تقطيع
نفسى هنا وهنا .

شارل : لا بأس عليك ، ففي هذا بعض البلاغ .

ذو اللحية الزرقاء : [يأتي بين المطران والملك] أليس عندك جاك
دُنُو Jack Dunois على رأس جيوشك في أرلين ، دنوا الشجاع ،
دنوا الوسيم القسيم ، دنوا البطل البارع الذي لا يُملب ، دنوا

حبيب النساء جماء ، دنوا ابن الفاعلة ذوالملاحة والجمال ؟ أَيْمَقَل
أن فتاة من بنات الريف تقدر على ما لا يقدر عليه هذا الرجل ؟
شارل : إذن فلم لا يرفع الحصار عن أُرلين ؟

لاهير : إن الرياح تهب على غير هواه .

ذواللحية الزرقاء : أُرلين ليست على بحر المنش ، فإله وللرياح
تهب على غير هواه ؟

لاهير : إن أُرلين على نهر اللوار ، والإنجليز ممسكون
برأس الجسر ، فلا بد له إن أراد أن يأخذهم من ورائهم أن يرسل
رجاله عَبْرَ النهر وضد التيار . ولكن ريحا قوية لعينة لا تفتأ
تهب عكس اتجاهه . وقد أمر القساوسة أن يقيموا الصلوات
ويدعوا الدعوات عسى أن تتغير الريح دون جدوى ، ودفع لهم عن
صلواتهم ودعواتهم أجراً كثيراً حتى أملّه الدفع . فالذى يحتاجه
الآن معجزة تنزل عليه من السماء . إنكم تقولون لى إن الذى
فعلته الفتاة لفرئك البذاء لم يكن من المعجزات فى شيء . فهبوا
لم تكن معجزة ، ولكنها قضت عليه قضاء مبرما . وهذه الفتاة
لو أنها دَعَتْ للريح فتغيرت وجهتها ، ففى وسعكم أيضاً أن لا تمُدُّوا
ما تصنع معجزة ، وهذا لا يضير شيئاً ، ولكنها قد تقضى

بذلك على الإنجليز قضاء مبرماً . فما ضير هذا ، وما ضرر التجربة فيه ؟

المطران : [وقد جاء على قراءة الكتاب كله وأخذته التفكير]
يظهر أن بدريكور لا شك تأثر بأمر هذه الفتاة تأثراً كبيراً .
لاهير : إن بدريكور جحش كبير ، ولكنه جندي مكين
أيضاً ، فهو لو ظن أنه غالب الإنجليز ، لظن ذلك معه الجيش كله .
لترمي : [إلى المطران وهو في تردد] خذهم على هوام
وأعطهم ما يريدون . إن رجال دنوا مُسلمون البلد لا محالة ، مسلموها
على الرغم منه ، إذا هم لم يأتهم من يشد أزرم ويُحيي أملهم ويبت
الجرأة في قلوبهم .

المطران : إن الكنيسة لا بد لها من امتحان الفتاة قبل
أن يُقضى بأمر فيها . وعلى هذا ، فبما أن سموه يرغب في
حضورها ، فادعوها تدخل إلى البلاط .

لاهير : سأجدها وأدعوها [يخرج] .

شارل : تعال معي يا ذا اللحية الزرقاء ، وهيا نهني أمرينا
حتى لا تستطيع الفتاة تمييزي . فكن أنت الملك [يخرج من خلال
الستائر] .

ذو اللحية الزرقاء : أنا أكون هذا الشيء الحقير ! اللهم

عفوا يارب السماء ! [يخرج وراء الدوفين] .

لترى : أترى تستطيع الفتاة تمييز الدوفين ؟

المطران : بالطبع تميزه .

لترى : وكيف ؟ أتى لها عرفانه ؟

المطران : إنها تعرف ما يعرفه كل الناس في شينون : أن

الدوفين أحقر من في البلاط منظرأ وأخصهم ملبسأ ، وأن الرجل

ذا اللحية الزرقاء إن هو إلا جل دى ريه Gilles de Rais .

لترى : فأتى أن أذكر هذا .

المطران : إنك لا تعلم من أمر المعجزات ما علمت أنا . إن

علم المعجزات من بعض صناعتى .

لترى : [وقد اختلط فكره واستاء قليلا مما قال المطران] ولكن

هذا لا يكون معجزة أبداً .

المطران : [فى هدوء] ولم لا ؟

لترى : خلنا فى الجد وقل لى ما هى المعجزة ؟

المطران : إن المعجزة يا صديقى حادث يبعث فيك الثقة

ويخلق الإيمان . فهذا طبيعة المعجزات ، وهذا مقصدها .

والمعجزات قد تظهر غريبة جدا لمن يشهدونها ، وقد تظهر فى

غاية البساطة لمن يأتونها . ولكن لا ضير من هذا ، فهى

معجزات حقًا ما بعثت في الناس الإيمان حقًا .

لترى : حتى ولو كانت خداعا .

المطران : إن الخداع يخدع ، ولكن الحادث الذي يبعث
الإيمان لا يخدع ، فهو إذن معجزة لا خداع .

لترى : [يحك رقبته وقد اختلط عليه ما يسمع] إنك مطران
فلا بد أنك على حق ، ولو أن الريبة تبدو لي بعض الشيء فيما
تقول . على أنى لست رجلا من رجال الكنيسة ولهذا تتعمى على
هذه الأمور .

المطران : نعم لست رجلا من رجال الكنيسة ، ولكنك
رجل من رجال السياسة وجندى من رجال الجيش ، فقل لي بالله
أستطيع جباية الضرائب من الناس أو إغراء الجنود بالتضحية
بأرواحهم إذا هم علموا بالواقع الجارى بدلا مما يتراءى لهم أنه
الواقع الجارى .

لترى : لا وربك ، إذن لهاجوا وماجوا وأحدثوا
الأحداث قبل مغيب الشمس .

المطران : أليس من السهل أن تقول الحق لهم ؟

لترى : لن يصدقوه ورب العزة .

المطران : أصبت ! أصبت ! إذن فاعلم أن الكنيسة عليها
حُكم الرجال لخير أرواحهم كما عليكم حكمهم لخير أجسامهم . ولهذا
وجب على الكنيسة أن تفعل ما تفعلوه : نَسْقِ إيمانهم بماء الشَّعْر
لترى : شعرا إلى أسميه غشا وخداها .

المطران : تخطئ^{*} يا عزيزي إن أنت سميتَه هكذا . إن
الأقاصيص تُحكى للعبرة ، والأمثال تُضرب في الناس ، فلا
تسَمَّى أكاذيب من أجل أنها تصف أحداثا لم تقع في الزمن أبدا .
كذلك المعجزات ليست حُدَمات لأنها كثيراً — ولا أقول دائماً —
لا تكون إلا ابتكارات بسيطة بريئة يبتدعها القسيس ليحمي
بها إيمان قطيعه . إن هذه الفتاة إذا دخلت علينا فعرَفَت الدوفين
من بين رجال البلاط ، فإن هذا العرفان لا يقع عندي موقع
المعجزة ، لأنني أعلم كيف جاء ، فهو لا يزيد في إيماني . ولكنه
يكون عند غيري معجزة ، ومعجزة مباركة أيضاً ، إذا هم أحسوا
منها تلك الهزّة التي تهتزها الأنفس لخوارق الأمور ، وإذا هم
نسوا أجسادهم وطينتها الخاطئة فيما غَشِيهم من شعور بمجد الله
فاجئ^{*} . وستجد الفتاة نفسها قد تأثرت أكثر من كل أحد
بالذي قَمَلت^{*} . وستجدها قد نسيت^{*} أيَّ السُّبُل سلكت لمعرفة

الدوفين . ولعلك أنت واجد من ذلك مثل ما وجدت .

لترى : من لى ببصرة نقّاذة أنفذ بها فيك فأعرف أى
بعضيك أكبر ، بمضك الذى يسكنه مطران الله الورع التقى ،
أم بمضك الذى يسكنه أخبث ثعلب فى تورين . ولكن هلم
بنا وإلاّ فاتتنا النكته الواقعة ، فإنى أريد أن أراها ، معجزة كانت
أو غير معجزة .

المطران : [يتهمل عن الذهاب برهة] لا تظن أنى أحب
السبل الضالة والطرقات الموحّة . إن فى الناس روحا تنمو
جديدة ، ونحن فى فجر عصر أوسع أفقا مما نحن فيه . ولو أنى
كنت راهباً بسيطاً ، ولم يكن من عملى حكم الرجال ، لطلبت
السلام لروحي والطمأنينة لنفسى لدى أرسطو وعند فيثاغورس
مؤثراً إياهما على القديسين ومعجزات القديسين .

لترى : ويحك من فيثاغورس ؟

المطران : حكيم كان يرى أن الأرض كرة وأنها تجري
حول الشمس .

لترى : أى مغفل مُطبق الجهالة هذا ! ألم تكن له
عينان تبصران ؟

[يخرج الرجالان معا من خلل الستائر . وبعد برهة تعود الستائر
فتنفرج فتكشف عن قاعة العرش كلها حتى أقصاها ، فتُرى وقد انمادت
بها هيئة البلاط . ويُرى فيها إلى اليمين كرسيان من كراسي الدولة
مرفوعان على منصّة ، وقد وقف على المنصة ذو اللحية الزرقاء يمثل دور
الملك . وكان ، كالبطانة كلها ، يستمتع بالأضحوة التي أثمروا عليها استمتعا
لا يكاد يخفيه . وفي الجدار وراء المنصة باب حَتَّى يحجبه ستار ، ولكن
الباب الأكبر في الجانب الأيسر المقابل يخفّره جند في السلاح . وبين
الباينين طريق خال اصطف على جانبيه أهل البلاط . ووقف شارل في
الصف في وسط الحجرة . ووقف لاهير على يمينه ، ووقف المطران على
يساره ، ولكنه اتخذ موقفه جنب المنصة . ووقف لتريمي في قبالة في
الصف الآخر . وجلست دوقة لتريمي على كرسي الملكة مدعية أنها
الملكة ، واجتمع حولها طائفة من النساء من بطاتها وقفن خلف المطران [
] ويزيد لفظ الأحاديث ويشدد ، فيظهر الحاجب على الباب فلا
يراه أحد] .

الحاجب : إن دوق . . . [لا ينصت أحد] إن دوق . . .
[يستمر اللفظ ، فيغضب الحاجب لانصرافهم عنه وعجزه عن لقهم
إليه فينتزع من أقرب حارس رمح ، وهو رمح له رأس بلطة ، فيضرب
برؤسه الأرض . عندئذ يذهب اللفظ وينصت الجميع وتجتمع عيون القوم
عليه] أنصتوا [ثم هو يعيد الرمح إلى الحارس] إن دوق فنقوم
Vendôme يقدم الفتاة جان إلى الملك .

شارل : [يرفع سبّابه إلى شفته يحذّر من الكلام] صه [ثم هو
يختنفى وراء أقرب رجل من البطانة ولكنه يطاول برأسه من ورائه ليرى
ما يجري] .

ذو اللحية الزرقاء : خلّوا لها السبيل إلى عرشنا .

[تدخل جان يقودها نبيل من النبلاء حيّ صامت . وهي في لباس
الجنّد ، قد قصّت شعرها فقصر وتعلّق كثيفاً حول وجهها . وما تكاد تدخل
حتى تتخلّص من يد النبيل وتقف تبحث فيمن حولها عن الدوفين] .

الدوقة :- [تحدث إلى أقرب الوصيفات] انظري ! انظري !
شعرها ! [عندئذ لا تطيق السيدات حبس الضحك فيُسرّنه عالياً] .

ذو اللحية الزرقاء : [يحاول ألا يضحك ويشير إلى السيدات بيده
غير راض عما بهن فيه من جبور] لا . لا . سيداتي !

جان : [لا تنزعج مما جرى] إلى أفعل هذا بشعري لأنّ من
الجنّد . أين الدوفين ؟

[تتوجه جان ناحية العرش فتجري في الحاضرين ضحكاتٌ محبوبسات
مسموعات] .

ذو اللحية الزرقاء : [في تواضع] إنك في حضرة الدوفين .

[فتنظر جان إليه في ارتياب ساعة من الزمان ، وتأخذ تنفّخه من
رأسه إلى قدمه ، والقوم صُموتٌ ينظرون ما عسى أن تفعل . ثم ينبثق في
محياها سرور النكتة فتقول] .

جان : اطلع مما أنت فيه إذا اللحية الزرقاء فما مثلك من
يخدعنى . ثم قل لى أين الدوفين .

[تنطلق ضحكات عاليات فى البلاط إذ يشير ذو اللحية الزرقاء إشارة
الخفية والتسليم ، ثم يضحك مع الضاحكين وينط من المنصة إلى جانب
لتريمى . أما جان فتتكص عن العرش ، وفى فمها ابتسامة عريضة ، تبحث
فى الصفين عن الدوفين ، وما هى إلا برهات حتى تغوص فى أحدهما
فتمسك بذراع شارل وتخرجه إليها]

جان : [ترفع يدها عن شارل وتثنى له ركبتيها احتراماً] أيها
الدوفين ، يا صغير ، يارقيق ، يارقيق ، إنى مرسلّة لطرود الإنجليز
عن أرلين وعن فرنسا ، ولتويحك ملكاً فى كندراثة رانس ،
ففيها يتوّج كل ملك حقّ من ملوك فرنسا الأصليين .

شارل : [يتحدث إلى رجال البلاط مرّهواً بنصرتهم عليهم] أفرايتم
يا هؤلاء جميعاً كيف تعرّفت الفتاة فعرفت أين يوجد الدم
الملكيّ . فالآن من منكم يجرؤ فيقول إنى لست ابن أبى ؟
[يتحدث إلى جان] أما أنت فإذا أردت تتويجى فى رانس فعليك
بالتحدّث فى هذا إلى المطران لا إلى . وها هو [وكان المطران خلفها] .

جان : [تدور على قدميها فى سرعة إلى المطران وقد هيمنت عليها
عاطفة شديدة] مولاي [تسقط أمامه على ركبتيها وتحنى رأسها وتمشع له

فلا تستطيع أن ترفع إليه بصرها [مولاي ، أنا لستُ إلا فتاة ريفية قليلة القدر مسكينة ، وأنت رجل جليل الخطر ، قد حباك الله بالعمر الكثير من بركته ومجده ، فبالله عليك إلا مَسَسْتَنِي يديك وباركْتَنِي بما بارَكَكَ الله .

ذو اللحية الزرقاء : [يهمس إلى لترى] ان الثعلب الشيخ قد احمرّ خجلاً .

لترى : تلك إذاً معجزة أخرى !

المطران : [يرقّ لما قالت الفتاة فيضع يده على رأسها ثم يقول] أي بني ، إنك تخلصين لله الدين ، وتُحَبِّين الإيمان حب صدق ويقين .

جان : [تقزع وترفع بصرها إليه] أنا هكذا ؟ إنى لم أفكر قط في هذا فهل في حب الدين ضير ؟

المطران : ليس في حب الدين أضرار يا بني ، ولكن فيه أخطار .

جان : [تنهض وقد شعّ في وجهها اغتباط ينمّ عن قلة تقدير للمخاطر] إن الأخطار في كل شيء وفي كل مكان ، إلا الجنة . أي مولاي ، لقد منحت القوة نفسي ، وبثت الجرأة والإقدام في

قلبي . ألا ما أوجل وما أمتع أن يكون المرء مطرانا .
تقترب ثغور القوم عن ابتسامات عريضة ، تصل أحيانا إلى ضحكات
مكتومة مسموعة] .

المطران : [يستقيم في وقته وقد رق حسه واضطرب اتزانها مما
جرى] أيها السادة ، إن في شدة إيمان هذه الفتاة لزجراً لكل
ما بدا فيكم من خفة وطيش . إنى لست إلا رجلاً ضعيفاً حقيراً ،
وكان الله في عونى ، ولكن هذه البسمات والضحكات خطيئاتٌ
مهلكات .

[تستقيم الوجوه ويسود السكون] .
ذو اللحية الزرقاء : مولاي ، ما كنا نضحك منك بل منها .
المطران : ماذا تقول ؟ انكم لا تضحكون منى أنا
الضعيف العاجز ولكنكم تهزأون بإيمانها ! اسمع يا جل دى راى
Gilles de Rais ، إن هذه الفتاة تنبأت بأن السباب الكفار
يفرق بخطيئته .

چان : [تجزع حتى تضيق عن السكوت] لا لا لا !
المطران : [يسكتها بإشارة] وأنا الآن أتنبأ بأنك ستُشنق
بخطيئتك إذا أنت لم تتعلم متى تضحك ومتى تعلى لله ^(١) .

(١) شنق ذو اللحية الزرقاء فعلا بعد ذلك وقد مر ذكر هذا .

ذو اللحية الزرقاء : مولاي . إني خجلٌ وآسفٌ على ما كان
فإذا أصنع فوق ذلك ؟ ولكنك إن تنبأتَ بأني لابد مشنوق
فهذه النبوءة ستقرّ دائماً في خاطري وستغريني بمدّ يدي إلى الجبال ،
وسأقول لنفسى دائماً إن كان لابد من الشنق ، فليكن موتى
في جمل ، لا في حمل^(١) .

[يتشجع القوم عند هذه ، ويعودون إلى الضحك كئيباً] .

جان : [وقد ساء ما حدث سوءاً كبيراً] إنك يا ذا اللحية الزرقاء
رجل لا نفع فيه ولا رجاء . إن من الوقاحة الكبرى ردّك القول
على المطران .

لاهير : [يقول والضحك الشديد يعلبه] أحسنتِ أحسنتِ
يا فتاة . أحسنتِ أحسنتِ والله .

الفتاة : [تقول للمطران في خجّر وجزع] مولاي ، لم لا تصرف
هؤلاء السفهاء عني حتى أستطيع أن أتحدث وحدي إلى الدوفين ؟
لاهير : [في انبساط] أنا تكفيني الإشارة عن العبارة [ثم
هو يرفع يده بالسلام ويدور على عقبه ثم يخرج]

(١) يعني ان كان لابد من الشنق فليشنق في ذنب كبير لا في ذنب صغير . وفي
القرون الوسطى كانوا يشنقون سارق الشاة .

المطران : هيّا بنا أيها السادة . إن الفتاة جاءت تحمل بركة الله فأطيعوها .

[يخرج الكل ، بعضهم من الباب الخفيّ ، وبعضهم من الجنب المقابل له . ويمشي المطران عبْرَ القاعة إلى الباب يتبعه لترىمى وزوجته الدوقة . وعند ما يمر المطران بجان تسقط على ركبتيها وتقبّل طرف كسائه قُبَلَاتٍ حَرَار ، فيهر للمطران رأسه بحكم الطبع رافضاً ما تفعل ، ويجذب كسائه منها ويذهب ، فتظل راكمة حيث هي ، فتسدّ بذلك الطريق على الدوقة إلا أن تحيد]

الدوقة : [في برود] من فضلك خليّني أمرّ .

جان : [تنهض سريعاً وتراجع عن موضعها] طبعاً تفضلي ياسيدتي وتقبلي معذرتي .

[تمر الدوقة وتظل جان تنظرها ، ثم تسأل الدوفين همساً] .

جان : أهذه ملكة ؟

شارل : لا ، ولكنها تحسب أنها ملكة .

جان : [تعود فتتأمل الدوقة من ورائها] أوه [وكانت الدوقة في لباس فاخر قد حدّد خطوط جسمها ، فلما صاحت جان من العَجَب الذي أخذهما لم تكن صيحتها كلها إعجاباً] .

لترىمى : [يقول للدوفين في توكيد كثير] أرجوك يا صاحب

السمو أن تتكرم فلا تعود إلى السخريّة بزوجتي [يخرج وقد سبقه الآخرون إلى الخروج]

جان : [إلى الدوفين] من هذا الرجل الفظ الغليظ ؟

شارل : هو دوق لتريمى .

جان : وما عمله ؟

شارل : يدعى أنه يقود الجيش ، وكلما وجدتُ صديقاً عزيزاً على قتله .

جان : ولم تأذن له فى قتله ؟

شارل : [يضيق صدره ، فيتوجه من القاعة إلى ناحية العرش هرباً من جاذبيتها] كيف أمنعه ؟ إنه يتهدّنى . إنهم يتهدّدونى جميعاً .

جان : أتخافهم ؟

شارل : نعم أخافهم ، ولا فائدة من وعظك إياى فى هذا . إن المراك ليس من شيعتى ، وهو لا بأس به فى هؤلاء الرجال الضخام ، فهم يستطيعون لبسَ هذه الدروع التى تثقل علىّ ، وحملَ هذه السيوف التى تنوء بها يديّ ، ولهم عضل قوىّ ، وصوت صياح ، ومزاج غضوب مُنكر . فهم يحبون القتال . فإن قعدوا عنه اشتغلوا بالسخافات وأزروا بأنفسهم ما داموا عنه قاعدين . ولكنى هادئ الطبع عاقل ، فلا أريد قتل الناس ، وإنما

أريد أن أترك وحدى أستمتع بالحياة على نحو ما أهوى . إنى قطّ ما طلبت أن أكون ملكاً وإنما غُصِبْتُ على الولاية غصباً . فإن كنتِ حضرتِ إلىّ لتدعوينى إلى القتال - إن كنتِ وفدتِ علىّ لتهتقِ بى : « قم يا ابن سانت لويس فتقلّد سيفك وسرّ بنا قُدُما إلى النصر » ، فرجائى إليك أن تفرى عليكِ أنفاسك لتبرّدى بها طعامك ، فأنا بقادرٍ على ذلك . إنى لم أخلق لهذا وكفى .

جان : [تجيبه فى إمرة وبعزم قاطع] نحن كلنا مثلك عند البداية . ولكنى سأبثّ الجراءة فيك .

شارل : ولكنى لا أريد أن تبثّى الجراءة فى . إنى أودّ النوم فى فراش وثير تحوطه الطمأنينة والسلام ، وأكره العيش المضطرب والخوف الدائم من أن أقتل أو أجرّح . بُثّى الجراءة فى غيرى ، وأعطيتهم من الحرب حتى يطيبوا ، ولكن دعينى وحدى فالوحدة هتأى .

جان : لا فائدة من كل هذا يا شارل . لا بد أن تنهض لما اختارك الله له . إنك إن أخفقت فى الملك ، لم تجد وراءك غير الشحّاذة ، فأنت بأهلٍ لصناعة غيرها . فهلمّ ، هلمّ إلى العرش فاجلسْ عليه وأرنى كيف تكون فوقه ، فقد طالما اشتقت إلى رؤيتك فيه .

شارل : وماذا يُفنى جلوسى على العرش وغيرى ممن رأيت
يأمر وينهى على هواه . ومع هذا [يجلس على العرش فلا يملؤه ولا يملأ
العين ، ويستدر عرّاه الرحمة من كل راء] فهذا هو الملكُ فانظريه ،
واملئى عينك من هذا الزرىّ الحقيق .

جان : إنك يا صبيّ لستَ بعدُ ملكا ، فأنت لا تزال
الدوفين . احذرْ أن يَفْتَّ في عضدك ما تسمع من القوم حولك .
إن الملابس الجميلة والكسّى الفاخرة لا تملأ فراغ الرؤوس
الخواوية . إن لى خبرة بالناس ، بالناس الأصيلين ، برجال الشعب
الذين يصنعون لك خبزك ، فاعلمْ متى أن هؤلاء لا يَعدّون رجلا
ملكاً إلا أن يُصَبَّ الزيت المقدّس على رأسه ، وإلا أن يُنصَّب
وَيُتَوَجَّ في كندرائية رانس . إنك رثّ الثياب يا عزيزى شارل
فإبال الملكة لا تُعنى بك كما ينبغي ؟

شارل : نحن فقراء جدا ، والملكة فى حاجة إلى درهم
تقتصده لتستر به ظهرها . وعدا هذا فإنى أحب أن أراها جميلة
الثياب ، ولا أبالى ما ألبس أنا . على أن منظرى قبيح دائماً
لبستُ أو لم ألبس .

جان : أنا الملح فيك بعض الخير يا شارل ، ولكنه لم يصل
بعدُ أن يكون جديرا بملك .

شارل : سنرى ما تأتى به الأيام . إني غيى المظهر ، ولكن قلبى ليس فيه كل هذا الغباء . إن عينيّ مفتوحتان وقلبي بصير ، فصّدّقينى إذا قلت لك إن معاهدةً واحدة طيبة خيرٌ من عشر انتصارات فى الميدان . إن هؤلاء القوم الذين يحاربون يخسرون فى المعاهدات ما يكسبونه فى المحاربات ، فialيت لنا من الإنجليز معاهدة واحدة ، إذن نخسروا فيها كل الخسران ، لأنهم فى صراع الأجسام خير منهم فى صراع العقول .

جان : إن غلبَ الإنجليز فالمعاهدة منهم ولهم ، ولفرنسا رحمة الرحمن من بعد ذلك . لا بد من الحرب يا شارل فحارب راعباً أو مُرغمًا ، وسأتقدمك لأقوى قلبك . لم يبق لنا الآن إلا الإقدام ، فلنمسك عليه يدينا كليهما خشية أن يفِلت منا ، ولنُدع الله فى صلواتنا للمزيد منه يدينا كليهما كذلك .

شارل : [ينزل عن العرش ويمشى عَبْرَ القاعة مرة أخرى هرباً من لجأيتها الغالبة] أرجو أن تكُنّى عن ذكر الله والصلوات ، فإني أضيق دَرْعاً بمن يدعون دأعماً ويصلّون . ألا يكفيننا غمّا أنا نأتى الصلاة رغماً فى أوقاتها .

جان : [ترقُّ له وترى] يا صبيّ يا صغير يا مسكين ، إنك لم

تصل قط في حياتك . إني سأعلمك الصلاة من البداية .

شارل : أنا لست صبيًا ، بل رجلاً ناضجاً كاملاً ، ووالدا ،
وقد فُت دور التعلم فلن أتعلم الآن شيئاً .

جان : أى نعم ، إن لك ولداً صغيراً سيكون من بعدك
لويس الحادى عشر ، أفلا تحارب من أجله ؟

شارل : لا . إنه ولد قبيح . إنه يكرهنى . إنه يكره كل
الناس ، ولا يحب البهيم الأنثى إلا نفسه . إني لا أريد أن أعنى
بالأطفال . لا أريد أن أكون أباً ، ولا أريد أن أكون ابناً ،
لا سيما ابناً لسانت لويس . إني لا أريد أن أكون شيئاً من كل
تلك الأشياء الجميلة الفاخرة التى تملأون بهارووسكم ، وإنما أريد
أن أكون كما أنا . فلم لا تقصرون أنفسكم على أموركم ، وتدعونى
أعنى كيف أعنى بأمر نفسى ؟

جان : [تعود إلى احتقاره] ما عنايتك بأمر نفسك إلا
كعنايتك بأمر جسدك ، هى أخصر الطرق إلى العلة والسأم .
وما أمر نفسك ؟ وما أمر نفسى ؟ أمرى أن اعين أُمى فى البيت ،
وأمرى أن تدلل الكلاب وتعصّ عيدان الحلوى . إني أسمى هذا
لغوياً باطلاً . فاعلم أننا هنا لإنفاذ أمر الله لا أمرنا . وعندى من
الله رسالة إليك ، أنت لابد مُصنغ إليها ولو طار قلبك منها هلعاً .

شارل : إني لا أريد رسالة ، ولكن هل عندك علم الأسرار وإتيانُ الكرامات ؟ أُنَبِّئُكِ المَريضَ وتُصَحِّحُ العليل ؟
أُتَسَطِّعُ قَلْبَ الرصاص ذهاباً أو شيئاً من هذا القبيل ؟
جان : إني أَسْتَطِيعُ قَلْبَكَ ملكاً ، في كَتَدْرَائِيَةِ رانس .
وتلك معجزة ستكون على ما أرى غيرَ هَيَّئَةٍ .

شارل : إذا نحن ذهبنا إلى رانس ، وكان هناك تنويج ،
فستحتاج أن^(١) Anne إلى ملابس جديدة ليس في وسعي شراءها .
أما أنا فيكفيني ما أنا عليه .

جان : ما أنت عليه ؟ وما هذا ؟ إنه دون ما عليه أحقر راج
في خدمة والدي . إن لك أرضَ فرنسا إرثاً حلالاً ، ولكنك في
حكم الشريعة لا تملكها حتى تُتَوَجَّجَ ملكاً .

شارل : إني في حكم الشريعة لن املكها على أية حال .
فهل يدفع التنويج عني ديوني ويفك عني رهوني . إني رهنت
آخر فدان إلى المطران وإلى هذا الفطريس السمين . إني مدين
حتى لذى اللحية الزرقاء .

جان : [في غيرة وإخلاص] شارل . إني من الأرض أتيت ،

(١) آن اسم زوجته .

وعلى الأرض سَمِلت ، ومن العمل فيها كسبت قوتى . فاعلم أن الأرض لك لتحكمها بالعدل وتحفظ فيه سلام الله ، لا لترهنها كما ترهن أم سَكْبيرة ملابس أولادها . أعلم أنى جئتك من عند الله لأمرك بالركوع فى كندرائية الله ، وأن تعلن فيها فى خشوع أنك تخرج عن ملكك لله إلى أبد الآبدين ، لتصبح بعد ذلك سيد الملوك على هذه الأرض بأنك عبد الله وجنديه ورسول الله وخليفته . عندئذ يصبح كل الذى بفرنسا مقدساً حتى ترابها ، ويصبح جندها جند الله ، وعُصاتها الدوقاتُ عصاةً لله . وعندئذ ترى الإنجليز عندك يَخْرُونَ إلى الأذقان خُشَعاً يرجونك الإذن لهم أن يعودوا فى سلام إلى بلادهم التى شرعها الله لهم . أفاعل أنت ما أرجوه ، أم تفعل بى ما فعل يهوذا فتخوننى وتخون من بعثنى ؟

شارل : [ينجح فيه الإغراء أخيراً] أواه ! من لى بالجرأة فأجيب إلى ما تطلبين !

جان : الجرأة ! أنا أجروُ ، ثم أجروُ ، ثم أجروُ ، فى سبيل الله . أفمى أنت أم على ؟

شارل : سأخطر وليكن ما يكون . إبنى أحذرك من الآن إبنى قد تخور عزيمتى أثناء السبيل ، ولكنى على كل حال سأخطر .

والآن انظري ما أفعل [يمجرى إلى الباب الكبير ويصيح] هلموا جميعاً !
عودوا إلى جميعاً ! [يرجع جاريًا إلى الباب الخفي المقابل وهو يقول لجان]
لا تركيني ، والزمي جانبي ، وامنعهم أن يتهددوني . [يصيح
من الباب الخفي] تقدموا جميعاً ! كل البلاط ! [يجلس على كرسى الملك ،
بينما هم جميعاً يسرعون إلى الوقوف في أماكنهم حيث كانوا أولاً ، وتشد
فيهم جلبة الأحاديث ويكثر بينهم التسأل والتعجب] . والآف جاء
دوري لأصطليها ، ولكني لا أبالي ، وهأنذا أرى بنفسى فيها .
[إلى الحاجب] أنت يا ابن البهيم صبح فيهم بالسكوت لا أبالك !
الحاجب : [يختطف ربحاً من حارس كما فعل أولاً ، ويحبط بزجه
الأرض مراراً] سكوتاً لجلالة الملك ! سكوتاً فالملك يتكلم !
[بأمرة] سكوتاً يا من هناك [يسود السكون] .
شارل : [ينهض] لقد أعطيت قيادة الجيش إلى الفتاة ،
فالفتاة تتصرف بالجيش كيف تشاء [ينزل عن المنصة] .
[يسود على القوم العجب . ويسرّ لاهير وينتشى فرحاً ويضرب
بقفازه على نغذ درعه ، وهى من القولاذ] .
لثريمي : [يتجه إلى شارل مهدداً] ما هذا ! إني أنا قائد الجيش .
[يهمّ شارل بطبعه إلى التراجع ، فتسرع جان فتضع يدها على كتفه
تطميناً وتثبيتاً . فيجتهد شارل في جمع كل شجاعته وحشد كل عزمه
للظهور بالقوة ، فيسفر مجهوده عن إسراف كثير إذ يقصف بأصبعيه في وجه
كبير أمثاله] .

چان : حسبك هذا جواباً أيها الفظ الغليظ [ثم تَفْجُؤُها
الخاطرة بأن ساعتها دَنَتْ ، فتمتشق سيفها خَطَفَ البرق ثم تصيح] من
منكم لله ولفقاته ؟ من معى إلى أرلين ؟
لاهير : [وقد أخذته صيحتها فسلَّ سيفه] لله ولفقاته !
إلى أرلين !

[تسقط چان على ركبتيها شكراً لله ، فيسقط الكل معها ، إلا المطران
فإنه يبارك عليهم بإشارته ، وإلا لترى فتخور قواه ويسب ويلعن] .

المنظر الثالث

[في أرلين ، في التاسع والعشرين من عام ١٤٢٩ . ودُنُوا Dunois ، وهو رجل في السادسة والعشرين من عمره ، يذرع الأرض بخطاه يمنة ويسرة في قطعة أرض على الجانب القبلى من نهر اللوار القصى ، وقد أشرف منها على مسافات بعيدة على طول النهر من جهتيه . وكان قد ربط بأعلى رمحه راية قليلة العرض طويلة مستدقة الطرف ، وكانت تجري ريح شرقية قوية ، فجرت الراية مجراها . وحل دنوا في يده عصا القيادة في الجيش . وكان قوى البنية ، فحمل درعه على جسمه حملا سهلا . واستعرض جبينه ، ورقّ ذقنه وتدبّب ، فبدأ وجهه كمثلث تساوت أضلاعه . وبالرغم من صغر سنه ظهرت في هذا الوجه خطوط ، خطها خدمة الجيش وتحمل التعبات ، وبدت عليه سِمَاتٌ تُنبئُ عن قلب طيب ونفس قديرة لا تعرف التصنع بالكذب ولا تتعلق بالأوهام . وكان تابعه الصبيّ جالسا على الأرض ، ومرصقا على ركبتيه ، وخداه على مُجْمَعِ كَفَّيْهِ ، وهو ينظر الماء مُتَلَهِّيا . وكان الوقت مساء . وكان الرجل والصبي كلاهما متأثرين بجمال النهر]

دونوا : [ينقطع عن السير برهة ويرفع فيها بصره إلى الراية وهي تجري مع الريح فيهب رأسه سائما ثم يستأنف خطاه] ريح الدبور !

ريح الدبور ! ريح الدبور ! ريح الغرب يا فاجرة ، لعوب أنت
عندما نريدك جادة ، وجادة أنت عندما نريدك لموبا . ريح
غرب فوق فضة اللوار . . . ما القافية التي تنسجم مع اللوار ؟
[يعود فينظر إلى الراية ويهزّ بجفّهِ إليها] تغيّري أيتها الريح عليك
لعنة الله . أيتها الريح الإنجليزية العاهرة ، هُبي من الغرب ، من
الغرب هُبي يا فاجرة . ياربحا مؤنثة ، ياربحا مخنثة ، يا صليبة الرأس
يا خاتنة العهد ، ألنّ تهبي من وراء الماء أبداً ؟

الصبي : [ينفض جفّاه] انظر ! انظر ! هناك ! هناك !

دنوا : [يقطع عليه الفرع أفكاره ويسأل في شوق شديد]
أين ؟ من ؟ الفتاة ؟

الصبي : لا ، بل الطائر السماك^(١) يطير خطفاً كالبرق الأزرق .
لقد دخل في هذه الشجيرة الكثيفة .

دنوا : [وقد خاب رجأؤه فغضب] أهذا كل ما عندك يا غبي
يا العين . تحدّثني نفسي والله أن أرى بك في هذا النهر .

الصبي : [لا يخاف من تهديد سيده ، لأنه يعلم أنه لن يفعل] إنه جميل

(١) طائر صغير جميل المنظر طويل المنقار قصير الرجلين والذنب أخضر الجناحين
أزرق الظهر أحمر الصدر . ومن عادته السكون الشديد حتى إذا وجد صيده في الماء
انطلق إليه بفتة كأنطلاق السهم .

في زرقته الخاطفة . انظر ! فهذا طائر آخر !

دنوا : [يجرى في رغبة إلى حافة النهر] أين ؟ أين ؟

الصبي : [يشير بيده] يَفُوت القَصَب ^(١)

دنوا : [فَرِحًا] نعم أراه أراه .

[يتبعان الفرخ الطائر حتى يدخل حيث لا يراه] .

الصبي : إنك عنفتني بالأمس لما فاتك أن تراه .

دنوا : قد علمت أني كنت أنتظر الفتاة لما أفزعني

بصريحك . إنك إن فعلت هذا مرة أخرى فسأريك كيف
يكون الصريح .

الصبي : ما أجل هذه الطيور ! وددت لو قدّرتُ على

صيدها .

دنوا : إن رأيتك تصيدها وضعتك في قفص من حديد

شهرًا كاملاً لأذيقك طعم الأسر . إنك غلام شرير بغيض .

الصبي : [يضحك ثم يعود إلى جلسته الأولى] .

دنوا : [يعود إلى خطاه] .

يا طائرًا يا أزرقًا دفعتُ عنك الموبقا

فانصر صديقًا صادقًا جنبك المزالقا

وغير الريح له

(١) كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوبًا .

تغيرت القافية . هذا لا يُغني .

يا طائرًا يا أزرقا دفعت عنك الموبقا

فانصر صديقًا صادقًا جنبك المزالقا

فصار فذمًا فاسقا

قافية طيبة ولكن الكلام هراء [يجد نفسه لصق الصبي] أيها

الغلام اللعين [يرجع عنه ويسير] .

يا طائرًا يا مَلِك الطيور يا خير سَمَّاك على الغدير

أطلق لنا مناخذ الدَّبور

صوت حارس جهة الغرب : قف مكانك ! من أنت ؟

صوت جان : الفتاة

دنوا : دعها تمر . إلى هنا يا فتاة ! إلى !

[تدخل جان مسرعة تتقد غضبًا ، وعليها درع فاخرة . عندئذ

تسكن الريح وتندلى الراية على الريح وتنفق خفقًا هينًا . ولا يلحظ دنوا

ما حدث لاشتغاله بجان] .

جان : [في غير تحرج] أأنت ابن الفاعلة ، قائد أُرلين ؟

دنوا : [يحتفظ بجملة ، ويحجب في شدة وقوة مشيرًا إلى ثُرسه]

هذه إشارة النُفولة^(١) أفلا ترينها ؟ وأنت ، أأنت جان الفتاة ؟

(١) فساد النسب . والنقيل ابن الزنا .

جان : نعم أنا هي .

دنوا : وأين جنودك ؟

جان : ورائي بأميال عدّة . إنهم خدعوني فجاءوا بي إلى هذا الشاطئ وقد كنت أريد ذاك .

دنوا : إني أوصيتهم بذلك .

جان : ولم هذا ؟ إن الإنجليز على الشاطئ الآخر .

دنوا : إن الإنجليز على الشاطئين جميعاً .

جان : ولكن أرلين على الشاطئ الآخر ، ونحن ننازلهم هناك . فقل لي كيف نعبّر النهر .

دنوا : [في عبوسة] إن على النهر جسراً .

جان : إذن فبالله إلاّ عبرنا النهر ووقعنا عليهم .

دنوا : هذا أمر ظاهره سهل ولكنه محال .

جان : من يقول هذا ؟

دنوا : أنا أقول هذا . ويقول هذا رجال أسنّ مني وأحكم .

جان : [في صراحة وبغير مداراة] إذن فاعلم أنهم رجال أغبياء

بُلَهَاء ، ضحكوا عليك أوّلاً ، وهم يريدون أن يضحكوا الآن على

فيأتوا بي إلى الجانب الخاطئ الأبعد من النهر : أتدري أتي جثتك

بمدد لم يحى مثله إلى قائد أو بلد أبداً ؟

دنوا : [يتنسم مصابرة] أهذا مدد منك أنت ؟
جان : لا ، ولكن مدد من الله رب السموات والأرض .
أين الطريق إلى الجسر ؟

دنوا : أنت قليلة الصبر يا فتاة .

جان : وهل هذا أو ان الصبر ؟ المدوّ على الأبواب ونحن
هنا عاطلون لا نعمل شيئا . قل لى بالله لماذا لا تحاربون ؟ أخائف
أنت ؟ إذن فدعنى أطرّد الخوف من قلبك وأطهرك تطهيرا .

دنوا : [يضحك ملء فيه ويلوح لها مُنكرا] لا ، لا ، يا فتاتي .
إنك إن نزعْتَ الخوف من قلبي صرتُ فارسا بطلا كـبعض
فرسان الأقاصيص ، وصرت شرفاء للـجيش . تعالى معى وتعلّى
أول درس فى الجندية . [يأخذها إلى حافة الماء] . أترين هاتين
القلعتين فى آخر الجسر ؟ هاتين القلعتين الكبيرتين ؟

جان : أهما لنا أم للإنجليز ؟

دنوا : اسكتى وأنصتى ! إنى لو كنت فى قلعة منهما فى عشرة
رجال لصمدتُ فيها لجيش كامل . والإنجليز لهم فيها عشرات
العشرات يحمونهما منا .

جان : ولكنهم لن يحموهما من الله . إن الله لم يعطهم هذه
الأرض التى عليها القلعتان . فهم سرقوها من الله بغيا وعدوانا .

إن هذه الأرض أعطاها لنا الله ، فلا بد لي من أخذ هاتين القلمتين .
 دنوا : وحدك ؟

جان : رجالنا يأخذونهما وأنا أقودهم .

دنوا : لن يتبعك من الرجال أحد .

جان : لن أنظر ورأى لأرى هل اتبعنى من الرجال أحد .

دنوا : [يدرك ما بها من شجاعة صادقة فبربت على كتفها فى إعجاب كثير] هذا منك جميل . إنك قد سويت من طينة يسوى منها الجنود . إنك تُفهمين بالحرب .

جان : [تجفل] أوه ! ولكن المطران قال إنى أغرم بالدين .

دنوا : عفا الله عنى ، فأنا أيضا مغرم بعض الإغرام بالحرب على قبحها ودمايتها . إنى كرجل ذى امرأتين ، فهل تريدن أن تكونى كامرأة ذات بعلين ؟

جان : [فى بساطة ساذجة] أنا لن يكون لى بعل أبداً . إن رجلا فى تول تول قاضانى لأنى نقضت وعدى بزواجه ، وأنا ما وعدته أبداً . إنى جندى ، ولا أحب أن يرى الناس فى امرأة ، وسوف لا أترددى زى النساء أبداً . إنى لا أحب ما يحبه النساء . إنهن يحملن بالرجال ويحملن بالمال ، وأنا أحلم بالطراد أقوده ، وبالمِدفِع الكبير أسدده . إنكم أيها الجند لا تحسنون استخدام

المدافع الكبيرة . إنكم تحسبون أنكم تنتصرون بأصواتها الداوية
وأدخنتها الكثيفة .

دنوا : [بهزق من كفه] هذا حق . إن المدفعية في الأكثرية
لا تساوى همها .

جان : ولكنك يا غلامُ لن تقاتل حوائط الحجر بالخيال .
لا بد لك من مدافع ، ولا بد لك من مدافع أكبر كثيراً مما تخال .
دنوا : [يتسم لرفعها الكثافة بينهما ، ويردّ عليها بأسلوبها] نعم
يا غلامه ، ولكنّ المرء بقلب مكين ، وسلم متين ، يتسلق أصلد
الحوائط حجراً .

جان : وسأكون أولّ صاعدة على السلم وصاعد ، إذا نحن
بلغنا القلعة ، وإنى أتحدّثك يا نفل^(١) أن تتبّعنى .

دنوا : ليس لك أن تتحدّثى ضابطاً من أركان الحرب يا جان
فضباط المشاة وحدهم هم المأذونون في إظهار شجاعة ، أو إيغال في
جسارة^(٢) . وعدا هذا ، فأنا أرحب بك لقد استك لا لجنديتك
فالجند المرّة المغامرون لدى منهم كفاية ، إذا دعوت لثبوا .
ولكنهم لن يغفونى شيئاً .

جان : إنى لست ماردة ، بل جارية من جوارى الله .

(١) فاسد النسب .

(٢) ضباط أركان الحرب هم الموكلون بإدارتها من وراء الصفوف .

وسيفي مقدّس : وجدته وراء المذبح في كنيسة القديسة كثرينة ،
فهناك حَبَّاءُ الله لى ، وليس لى أن أضرب به رقبة واحدة . إن
قلبي ملئ شجاعةً لا غضباً . سأقود فيتبعنى رجالك وهذا كل
ما أستطيعه ، وهو لا بدّ واقع ، وأنت لا تستطيع ردّه .

دنوا : كل شيء موقوت بأوانه . إن رجالنا لا يستطيعون
أخذ القلعتين بغارة يُغيرونها على الجسر فلا بدّ لهم من عبر النهر ،
وعندئذ يأخذون الإنجليز من مؤخرتهم على هذا الشاطئ .

جان : [ينشط فيها حسها العسكرى] إذن فأقيم على النهر عوامات ،
وضع عليها المدافع الكبيرة ، ومُرّ رجالك أن يعبروا إلينا .
دنوا : العوامات مُقامة ، والرجال عليها ، ولكنهم
ينتظرون كلمة الله .

جان : ماذا تعنى ؟ إن الله فى انتظارهم .

دنوا : إذن فسلية أن يرسل إلينا ريحاً ، فسفائنى فى أسفل
النهر لا أستطيع مغالبة الماء والهواء معاً ، فلا بد من الصبر حتى
يغيّر الله الريح . هيّا أصبحك إلى الكنيسة .

جان : لا . إنى أحبّ الكنيسة ، ولكن الإنجليز
لا يلبثون للصلوات ، ولا يفهمون غير الدق الواجع والضرب
اللاسع . فلن أذهب للكنيسة حتى يُفلبوا .

دنوا : لا بد أن تأتي معي ، فلي لبانة عندك تقضيها هناك .
جان : أي لبانة ؟

دنوا : تدعين لنا الله أن ياتينا بريح غربية . إني دعوته ،
ووهبت الكنيسة شمعدين من الفضة ، ولكن الله لم يجب
دعوتي . أما دعوتك فلعلها تجاب ، لأنك صغيرة ، ولأنك بريئة .
جان : أي نعم صدقت ، فسأصلي وأطلب في صلواتي الى
القديسة كثرينة أن تشفع لي عند الله فيأتي بي بريح من الغرب ،
فهيا بنا وأسرع ، وأرني الطريق إلى الكنيسة .

الصبي : [يعطس بشدة] اتشؤ !!

جان : يرحمك الله يا صبي ! هلم يا نعل بنا !

[يخرجان وينهض الصبي لاتباعهما ، فيرفع الترس من الأرض ،
ويعرج على الرمح ليأخذه فيلحظ أن الراية فوقه تجرى الآن نحو الشرق] .
الصبي : [يسقط الترس من يده وينادي وراءها في احتياج]
سيدي . سيدي . آلسي . آلسي .

دنوا : [يعود جاريًا] ماذا ؟ الطائر السمك ؟ [ينظر صوب
النهر عسى أن يجد الطائر] .

جان : [وقد لحت بهما] أوه ! الطائر السمك ؟ أين هو ؟

الصبي : لا . لا . بل الريح . الريح [وهو يشير إلى الراية] .
إنه هو الذي عطسني .

دنوا : [ينظر إلى الراية] تغيّر الريح ! [يصلّب على نفسه]
جاءت كلمة الله ! [ينزل على ركبته ويمطى عصاه إلى جان] إليك
قيادة جيش الملك فقوديه ، وأنا جندي من جنودك .
الصبي : [ينظر أسفل النهر] تحركت السفان ، وهى تمخر
الماء مخراً .

دنوا : الآن إلى القلعة . لقد تحدّثتني أن أُنبع ، فأنا الآن
أتحدّثك أن تقودى ، فهل تجرئين ؟

جان : [تنفعل فتجرى دموعها غزاراً ، وترى بذراعيها جول
دنوا وتقبل خديّه] . دنوا ! يا أخى فى السلاح ، أعني على ما أنا فيه .
إن الدموع أعمت عيني ، فعلى السلم فضع قدمي ، وقلّ دونك
فاصعدى يا جان .

دنوا : [يخرج ويجرّهما معه] كفّكفي الدّمع وهيا إلى المدفع
رعيده وبرقه .

جان : [فى سورة من الشجاعة] آه !
دنوا : [يجرّهما معه] فى سبيل الله والقديس دُونِي Denis !
الصبي : [بصوت حاد رفيع] فى سبيل الفتاة ! فى سبيل الفتاة !
فى سبيل الله والفتاة ! [يختطف الترس والرمح ويقفز وراءهما ، وقد
جُنّ احتياجاً] .

المنظر الرابع

[خيمة في معسكر الإنجليز . وقسُ إنجليزى غليظ العنق شديده ، فى الخمسين من عمره ، قد جلس على مقعد إلى خوان ، وانهمك فى العمل انهما كما شديداً . وقبالتة فى الطرف الآخر من الخوان ، جلس رجل من الأشراف ذويرة ومهابة فى كرسى نغم ، وأخذ يقلب صحائف كتاب للأدعية مزوَّق . وهو فى عامه السادس والأربعين . وبينما كان الشريف فى تلهيه وتسليه ، كان القس يعانى من العمل ما يعانى ، على نفس غير راضية وغضب مكبوت . وكان على يسار الشريف كرسى من الجلد لا يشغله أحد . وكان على يمينه الخوان] .

الشريف : هذا والله الجمال ، جمال هذه الصنعة ، فليس فى الدنيا أجمل من كتاب جميل . أسطرُّ من سوادٍ فاحم ، قد اصطفّت فى أعمدة متباعدة عن سعة ، أحاطتها أطر مليحة ذات حسن ورّواء . ثم صورُ ملوّنة مزوّقة أدخلت فى السطور مُخالسة . هكذا تكون الكتب متمعة للبصر . إن الناس اليوم لا ينظرون إلى الكتب ليستمتعوا برؤاها ، وإنما هم يقرأونها ،

حتى كاد الكتاب يصير توصيةً بشروة لحمٍ أو نُخالَةٍ كالتي أنت قائمٌ في تبييجها .

القس : لا مندوحة لى يا مولاي إلا أن أقول إنك تنظر إلى حالتنا الحاضر ، وموقفنا الراهن ، يبرود قلب شديد — يبرود قاسٍ يا مولاي .

الشريف : [في كبرياء وقلة اكتراث] ماذا جرى ؟
القس : جرى يا مولاي أنا معشر الإنجليز قد هُزِمنا .
الشريف : وما ضرَّ هذا ؟ إن الهزيمة تقع أحياناً ، وأعيذك أن تجهل هذا . إن العدوَّ ينهزم وينتصر ، إلا في كتب التاريخ وفي أغاني الشعوب ، فهو دائماً مهزوم .

القس : ولكننا هُزِمنا مراراً وتكراراً . أولاً في أرلين .
الشريف : [يهزأ منه ويصغر مما يقول] أوه . أوه . أرلين !
القس : أعلم ما تتوى أن تقول يا مولاي . ستقول إن الذي وقع في أرلين كان سحراً وكهانة ، ولكننا لا نزال نُهزم . في جارجو Jargeau ، في مان Meung ، في پوجانسي Beaugency ، في كل هذه هُزِمنا كما هُزِمنا في أرلين . والآن ذُبُّنا تذييحاً في باتاي Patay ، والسير چون طلبُوت ^(١) Sir John Talbot أسروه

(١) أسرة طلبوت من أمراء الأسر الإنجليزية يمتد نسبها المعروف إلى الفتح انغرماندى .

أسراً يا مولاي [يرى بقلبه والدمع يكاد يفلبه] . إني أتألم لهذا الحال
يا مولاي وأتألم له كثيراً . إني لا أستطيع أن أرى رجالنا وأبناء
وطنا تهزمهم مُلَّةٌ من الأجانب صغيرة حقيرة .

الشريف : آه !؟ أأنت إذن ممن يقولون بالأوطان ؟
أأنت إنجليزى ؟

القس : لا يا مولاي ، بل أنا رجل كريم . ولكنى مثلك
مولاي ، وُلدت فى إنجلترا ، وهذا له خطره .

الشريف : أنت إذن مربوط بالأرض ؟

القس : إنه يَلْذَّكَ يا مولاي أن تهزأ بى ، وأنت رجل
عظيم ، وفى عظمتك تستطيع أن تفعل ما تشاء من غير ما تخرج
أو خشية . ولكنك يا مولاي تعلم كلَّ العلم أنى إذا ارتبطت
بالأرض فعلى غير المعنى السيئ والحال الحقيرة التى يرتبط عليها
العبد القنُّ بأرضه ، فيتنقل معها من يد سيد مالك إلى يد سيد مالك .
إن لى بالأرض هوى [يتزايد اضطرابه] لا يستحى منه قلبى [يقف
هائجاً نائراً] ، ووالله لو جرى الحال على هذا طويلاً لتهضمت فنزعت
عن جسمى هذه النَّفَّارة^(١) ورميت بها إلى الشيطان ، ثم عطفت

(١) رداء القس .

على السلاح أحمله بنفسى ، ولذهبت إلى تلك الساحرة اللعينة
أخفتها خفياً بيديّ هذين .

الشريف : [يضحك منه عن نفس طيبة] ستفعل هذا
يا عزيزى القس . ستفعل هذا إذا لم نستطع نحن أن نفعل خيراً
من هذا . ولكن أوان هذا لم يحن بعد . لم يحن تماماً .

[يعود القس فيجلس على مقعده ووجهه عابس كئيب] .

الشريف : [فى انبساط] ما كان لى أن أبالى كثيراً بالساحرة .
إنى حججت إلى الديار المقدسة ، فالقدرة الإلهية حفظاً لسمعتها
الطيبة لن تأذن بأن تهزمنى ساحرة قروية . ولكن ابن الحرام
سيد أRLين بندقه أعصى مكسراً ، وهو قد حجّ مثلى إلى الديار
المقدسة ، فنحن فى الشرف صنوان ، على الأقل فى هذا .

القس : كيف ؟ ! إنه فرنسى يا مولاي !

الشريف : فرنسى ! من أين جئت بهذا الاسم ؟ أبداً هؤلاء
البرجنديون والبريتونيون والبيكرديون والجسكونيون^(١)
يسمون أنفسهم فرنسيين ، بمثل ما بدأ رجالنا يسمون أنفسهم
إنجليز ؟ إنهم يتحدثون فعلاً عن فرنسا وعن انجلترا بأنها أوطانهم .
أوطانهم ملكا ، فانظر ما يدّعون . فإن شاع هذا القول وجرت

(١) لسة لمطامات تتكون منها الآن فرنسا .

في الناس هذه الدعوى ، وصارت بدعة العصر ، وأسلوبه المختار ،
فإذا يكون مصيرى ؟ وماذا يكون مصيرك ؟
القس : كيف يا مولاي ؟ كيف يضرّ هذا مصيرك
أو مصيرى ؟

الشريف : إن الرجال لن تخدم سيّدين معاً . والقوم
يتحدّثون عن خدمة الوطن ، فإن ملك هذا الحديث الفاسد
زمامهم ، فقل السلام على سلطة اللوردات الإقطاعيّين ، وقل
السلام على سلطة الكنيسة . فغنى هذا ضياعى وضياعك .
القس : أما عن الكنيسة فأملُ أن أكون خادماً مخلصاً
لها . وأما عن الإقطاع فلا يحجبني عن بارونية إستونجبر التي
أنشأها وليم الفاتح^(١) غير ست من أبناء الأعمام . ولكن أفي
هذا أو هذا ما يجعلني أقف مكتوف اليدين أرى رجالنا الإنجليز
يهزمهم هذا الفرنسي ابن الزانية ، وهذه الساحرة التي جاءت من
البلاد القذرة بلاد شميانيا .

الشريف : هونّا يا رجل هونا . إنا سنحرق الساحرة ،
وسنهمز ابن الزانية ، كلاً في أوانه . بل إني الآن لفي انتظار

(١) ملك إنجلترا المعروف ولد عام ١٠٢٧ ومات عام ١٠٦٨ م .

أسقف بوفيه Beauvais لِأدبّر معه حرقها ، فإن حزبها أخرجه من أبرشيته .

القس : قبل أن تحرقها يتحتم عليك يامولاي أولاً أن تأسرها .
الشريف : أو أن أشتريها . وسأجعل لها غنماً لا يُشترى به إلا الملوك .

القس : ثمنُ ملكٍ لهذه اللّخاء القذرة ؟

الشريف : لا بد من بَحْبِجَةٍ في الثمن ، فبعض رجال شارل سيبيعونها للبرجنديين ، وهؤلاء سيبيعونها لنا : وسيكون بين هؤلاء وهؤلاء على الأرجح سماسرة ينتظرون لأنفسهم جُملاً يسيراً .

القس : هذا غَبْنٌ فاحش . إنهم أولئك اليهود الأوغاد الذين يتدخلون كلما انتقل مال من يد إلى يد ، ولو كان لي الأمر لما أبقيت على أحد منهم في بلد من بلاد المسيح .

الشريف : ولمَ هذا ، واليهود يعطونك عن مالك بضاعة طيبة ؟ إنهم يُغلّون الثمن ، ولكنهم يعطونك السلعة التي تريد .
في اختباري أن الرجال الذين يريدون شيئاً لله هم دائماً مسيحيون .
[يدخل الحاجب] .

الحاجب : صاحب النیافة أسقف بوفیه ، المنسینور
کوشون Cauchon .

[یدخل کوشون ، وله من العمر نحو الستین . ویذهب الحاجب .
ویقف الإنجلیزیان احتراماً للأسقف] .

الشریف : [فی أدب جم قیاض] عزیزى الأسقف ، عیثک
إلینا تکرّم کثیر . اسمح لی أن أعرفک بنفسی . أنا رتشر دى
بوشان Richard de Beauchamp ، إرل وریک Warwick ،
عند أمرک .

کوشون : اسم اللورد شهیر ذائع ، ولی به علم وافر .
وَرِک : وهذا القس المحترم السید جون دى استوجبر
John de Stogumber .

القس : [فی ذلاقة لسان] جون بُویرَ إسبنسر نیقل دى
استوجبر ، عند أمرک یا مولای . بکالوریوس فی الفقه ، وحافظ
الختام الخاص لفخامة کَرْدِنال وِنشِستر Winchester .
ورک : [إلی کوشون] إنکم تدعونہ کَرْدِنال انجلیترا علی
ما أحسب . إنه عم ملکنا .

کوشون : یاسید جون دى استوجبر : إنی صدیق فخامة
الکَرْدِنال دائماً أبداً [یعد یده إلی القس فیقبل القس خاتمه] .

ورك : شرّفتي بالجلوس [يقدم كرسيه إلى كوشون بعد أن يضعه على رأس الخوان] .

[يتقبّل كوشون مجلس الشرف ، وينحنى شكراً في تجمّعة ووقار .
فيذهب ورك إلى الكرسي الجلد ، فيحمله في غير اكتراث إلى مكان جلوسه الأول ، ويجلس عليه . أما القس فيعود إلى مقعده] .

[ترك ورك مجلس الرأسة لكوشون ، وهو يقصد إلى احترامه متعمّداً ، ولكنه مع هذا يبدأ الحديث آخذاً بزمامه ، كأن هذا هو الشيء المفروض المنتظر الذي لا ريب فيه . ويظل على وده وتبسّطه . ولكن نعمة جديدة تظهر في صوته تدل على أن الحديث سيخرج عن المباشطة إلى شأن ذى بال] .

ورك : والآن يا مولاي الأسقف قد حضرت إلينا في ساعة من ساعاتنا التي يغيب فيها الحظّ عنا . إن شارل سيتوّج في رانس ، سنُتوّجه على الأقرب الأصح تلك الفتاة التي جاءت من لورين Lorraine . ولا أريد أن أكذبك ، أو أن أحيي فيك أملاً خائباً ، فاعلم أنا لا نستطيع منع هذا التتويج . وأحسب أن هذا التتويج سيُحدث حدّثاً كبيراً في مكانة شارل ؟

كوشون : بالطبع . إنها رميّة من رامية ذات براعة ودهاء .
القس : [يعود إلى ثورته] إننا لم نُهزَم بالحق والإنصاف أبداً .
إن الإنجليزى ، أنّى وأين كان ، لا يُهزَم بالحق والإنصاف أبداً .

[يرفع كوشون حاجبيه قليلا ، ولكنه يعود سريعا إلى امتلاك نفسه والتغلب على ملامح وجهه] .

ورك : إن صديقنا هذا يرى أن الفتاة ساحرة . فإن صحّ هذا ، كان واجب نفاذك على ما أحسب أن تُعلنها بالاتهام لدى محكمة التفتيش تمهيدا لإحراقها على هذه الخليفة .

كوشون : نعم ، إذا نحن قبضنا عليها في أبرشيّتي .

ورك : [وقد أحس بتوفيق كبير فيما جرى بينه وبين الأسقف] بالطبع . بالطبع . والآن أحسب أنه لا يوجد شك معقول في أنها ساحرة ؟

القس : لا شك أبداً . إنها ساحرة من قمة رأسها إلى أنحس قدمها .

ورك : [يعاتب القس في رفق على تدخّله] إننا نطلب رأى الأسقف ياسيد جون .

كوشون : إننا مضطرون أن نعتبر فوق آرائنا التي نبديها هنا ، آراء المحكمة — أو إن شئت فيولها وأهواءها — وهي محكمة فرنسية .

ورك : [مصحّحا] محكمة كاثوليكية يامولاي .

كوشون : إن المحاكم الكاثوليكية ، مهما تقدّس عملها :

وتبارك وحيا ، ككل المحاكم تتألف من رجال آدميين . فإذا
هم كانوا فرنسيين ، على نحو ما يدعوم لسان المصر الجديد ، فهم
لن يقتنموا أبداً بأن سحراً وقع بناء على حادثة فريدة واحدة ،
هى أن جيشاً إنجليزياً هزمه جيش فرنسى .

القس : كيف تقول ! ألا يقتنمون بعد أن هُزم الرجل
الأشهر السير جون طَلْبُوت John Talbot نفسه ، وبعد أن أُخِذَ
فعلاً أسيراً ، أسرته امرأة قحبة قدرة ، جاءت من مزابل لورين .
كوشون : إن السير جون طلبوت جندى كاسر عنيف
خفيف ، ونعلم عنه ذلك يا حضرة القس ، ولكنى لازلت أجهل
أنه قائد قدير . وإنه ليرى أنك أن تقول إن الفتاة قهرته ، ولكن
فيما من يميل إلى إعطاء دُنُوا Dunois بعضاً قليلاً من هذا الفضل .
القس : [بازدراء] ابن زانية أرلين ؟!

كوشون : دعنى أذكرك ...

ورك : [يتدخل] أعلمُ ما ستقول يا مولاي . ستقول إن
دُنُوا غلبنى فى مُنتَرَجِي Montargis .

كوشون : [ينحنى] إني آتخذ هذا دليلاً على أن دُنُوا قائد
قدير جدا .

ورك : مولاي مثال الفضل والكرم . أما من جانبنا فإني

أقر بأن تلبوت ليس إلا وحشا محاربا ، لا عقل له ولا حيلة ،
ولعله نال جزاءه بوقوعه أسيراً في باتاي Patay .

القس : [يأخذ في الاحتداد] مولاي ، إن هذه المرأة جُرِحت
في أرلين ، أصابها سهم إنجليزي في حلقها ، ورآها القوم تصرخ
كالطفل من ألمه . فهذا جرح كان لا شك مميتاً ، ومع هذا لم
تمت ، بل ظلت تحارب به طول يومها . وردّ رجالنا كل حملة حملتها
كما يفعل الإنجليز الصميمون ، ولكنها بعد كل ذلك سارت وحدها
إلى حائط قلعتنا ترفع علماً أبيض في يدها . عندئذ تخدّر رجالنا ،
وتجدوا في أمّاكنهم ، لا يستطيعون رمياً أو ضرباً . فحمل عليهم
الفرنسيون وطردوهم إلى الجسر ، فلما حاوره اشتعل ناراً ، وسقط
فرمى بهم في النهر ففرقوا فيه كتلا كتلا . فهل كان هذا عن
حذق في القيادة أتاه صاحبك ابن الفاعلة ، أم هذه النار من لهيب
جهنم ، جاء بها عمل السحر وأفانين الشياطين ؟

ورك : أرجوك أن تغفر للقس چون حدّته يا مولاي .
ومع هذا فهو قد عرض قضيتنا عرضاً موفقاً . إن دنوا قائد
كبير ، ولسنا ننكر ذلك ، ولكن قل لي بالله لماذا لم يستطع
شيئاً حتى جاءته هذه الساحرة .

كوشون : أنا لا أقول إن هذه الفتاة ليست بها قووى

خارقة . ولكنّ العلم الأبيض كان عليه اسم الربّ واسم أمه الطاهرة ، تقدّس اسمهما ، ولم يكن عليه اسم الشيطان . وأمير جيشك الذى غرق ، أظنكم تسمونه كلزده ...

ورك : جلسديل . السير وليم جلسديل Glasdale .

كوشون : جلسديل . أشكرك . فهذا لم يكن قدبسا ، وكثير من قومنا يظنون أنه غرق لسبب الفتاة ، ولكفره بالظمن فيها .

ورك : [يبدو كأن الشك بدأ يداخله] فما الذى نستنتجه من كل هذا يا مولاي . أنستنتج أن الفتاة حولتك إلى دينها ؟ كوشون : لو كانت فعلت هذا يا عزيزي اللورد ، لما أمّنتُ على نفسى أن أسلمها إليكم كما أسلمتها الآن .

ورك : [يستعيز فى لطف] لا ! لا ! وعفوا يا مولاي !

كوشون : إذا كان الشيطان قد تقمّص هذه الفتاة ، واتّخذها حقا أداة — وأظنّه قد فعل —

ورك : [يعود إليه اطمئنانه] آه ! أنصت إلى هذا يا قسّ جون . إنى يا مولاي الأسقف قد علمت فى قرارة نفسى أنك لن تمّخذلنا أبداً . لا تؤاخذنى فى المقاطعة ، وتفضل بالحديث . كوشون : إذا كان الشيطان قد اتّخذ هذه الفتاة أداة ، فإن

له والله نظرة أثقّب مما نحسب وأبعد مدّى مما نقدّر له .
ورك : وكيف كان ذلك بالله . أنصت إلى هذه يا قس جون .
كوشون : أترى لو أراد الشيطان أن يقضى باللعنة على فتاة
رفيعة ، أترأه يكلف نفسه في سبيل هذا الغرض الهين كسب
عشر وقائع وعناء حربها ؟ لا يا عزيزي اللورد . إنه غرض
هين يستطيعه أى عفريت صغير حقير ما قبلت الفتاة الضلال .
أما أمير الظلام شيخ الشياطين فلا يتنزّل في سبيل ذلك إلى كل
هذا العناء . إنه إن ضرب فإنما يضرب في قلب الكنيسة ، في
قلب الكتلكة ، في ولاية يشمل سلطانها الرّوحى العالم أجمع .
وهو إن لمن وأهلك فإنما يلعن ويهلك أنفُس البشر جميعاً . فهذه
خُطّته الجلّي وغرضه الأسمى ، والكنيسة تعرف ذلك منه ،
وتحذّره دائماً أبداً . وهذه الفتاة أراها أداة للشيطان في بلوغ
أرّبه ، فهي ذات وّخى ، ولكنه وّخى الشيطان .

القس : ألم أقل لك إنها ساحرة ؟

كوشون : [في غضب شديد] إنها ليست ساحرة ، إنها زنديقة
صالّة ، ذات بدعة ، خارجة .

القس : وما الفرق بين هذا وذاك ؟

كوشون : أنت أيها القس تسألني عن فرق ما بين هذا

وذلك ؟ يُدهشني معشرَ الإنجليز أن أرى فيكم هذا الغباء . إن كل هذا الذي تُسمونه سحراً تفسيره مستطاع قريب لا تمسّر فيه ولا التواء . إن معجزات هذه المرأة لا تجوز على حمار ، وهي نفسها لا تدعوها معجزات . وانتصاراتها إن دلت على شيء فهي تدل على أنها تحمل فوق عاتقها رأساً خيراً مما يحمله صاحبكم السبّاب جلّسديل ، وثوركم الكاسر المجنون طلبوت ، وهي إن دلت على شيء آخر فهي تدل على أن قوة الإيمان فوق قوة الغضب ، ولو كان الإيمان إيماناً مكذوباً .

القس [لا يكاد يصدق أذنيه] أتشبه يا مولاي السير چون طلبوت ، وارث إرلية اشروزي بري Shrewsbury ، بشورمجنون ؟ !
ورك : لا يليق بك يا سيد چون - وبينك وبين البارونية ستة يحجبونك عنها - أن تتدخل في هذا الشأن قبولاً أو رفضاً .
أما أنا فأزل ، وبما أن طلبوت لم يكن إلا « سير » Sir ، ففي وصي أن أقبل التشبيه الذي قد يسوءك [إلى الأسقف] : مولاي ، عفا الله عما قلناه في أمر السحر والساحرة ، فاعتبر أن شيئاً من هذا لم يكن ، ولكن يبقى أن هذه المرأة لا بد من حرقها .
كوشون : إني لا أستطيع حرقها ، إن الكنيسة لا تقتل

الأنفس التي حرّمها الله ، فواجبي الأول سعي في خلاص هذه الفتاة وتطهيرها .

ورك : لا شك أبدا في هذا ، ولكنكم قد تحرقون الناس أحيانا .

كوشون : لا ، إن الكنيسة إذا أعجزها زنديق كافر غنيد ، قطمته من شجرة الإيمان كما يُقطع الفصن إذا ذهب عنه الماء والخضرة ، وعندئذ تُسلمه إلى السلطة الزمنية ، وهذه تفعل به ما تشاء دون أن تحمل الكنيسة من تبعه ذلك شيئا .

ورك : هذا بالضبط ما أعني . وفي هذه الحالة سأكون أنا السلطة الزمنية ، فأسلم إلى يامولاي هذا الفصن الجاف الذي فقد الخضرة والماء ، وأنا أهمل له النار . تكفل أنت بنصيب الكنيسة ، وأنا أتكفل بنصيب السلطة الزمنية .

كوشون : [في غضب مكظوم] إني لن أتكفل بشيء . إنكم أيها اللوردات العظام تميلون دائما إلى اتخاذ الكنيسة أداة سياسية هيّئة في سبيل أغراضكم .

ورك : [في ابتسام واستعطف] لا تفعل هذا في إنجلترا ، فكن بذلك واثقا .

كوشون : في إنجلترا أكثر من كل مكان آخر .

لا يا سيدى اللورد . إن نفس هذه الفتاة الرقيقة تمّدل في الميزان
نفسك ونفس ملكك عند الله . وأول واجبي خلاصها . ولن
أذن لك أن تبسم لما أقول كأني إنما أقول خرقاً ، أو كأنما
كان مفهومنا أننا سآخون أمانة هذه الفتاة . إنى لست أسقفا
سياسياً فحسب ، وإن إيماني منى في الموضع الذى فيه شرفك
منك . فأنا لو لمحت خرقاً صغيراً ثقلت منه هذه الفتاة بنتُ الله ،
المعمّدة طفلةً باسم الله ، لما قعدتُ عن هدايتها إليه لتنفيذ منه ولو
زحفاً إلى النجاة .

القس : [ينهض فى احتياج] أنت خائن .

كوشون : [يقفز على قدميه] إنك يا قس تكذب . [يرتعد
غضباً] إنك إذا فعلت ما فعلت هذه المرأة ، فوضعت بلادك
فوق الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، فستذهب معها إلى النار .

القس : مولاي . إنى ، أنا قد جاوزت الحد [يجلس ويشير
إشارة المستسلم] .

ورك : [يكون قد توقع شراً فوقف] مولاي ، إنى أعتذر إليك
عن الكلمة التى قالها القس چون دى استوجبر . إن معناها فى
انجلترا غير معناها فى فرنسا ، فلفظة خائن فى لغتكم معناها
رجل خداع غدار لا يحفظ عهداً ولا يرمى ذمة ، أما فى بلدنا

فهي تمنى في كل بساطة رجلا لا يُخلص كل الإخلاص لمصالحنا
الإنجليزية .

كوشون : إني متأسف ، فقد كنت أجهل هذا [يهبط في
كرسيه في وقار] .

ورك : [يسود فيجلس مغتبطاً بانفراج الأزمة] وفيما يخصني أنا ،
أودّ أن أعتذر إن كنتُ استهنتُ بحرق هذه الفتاة المسكينة .
إن قلب الجنديّ متأيقسو ويتصلّد عندما يرى مناطق من الأرض
كاملة تُحرقُ المرّة بعد المرّة ، في برود قلب واطمئنان بال ، على
أنها جزء عادي من واجبات حرية وخطّ يومية دورية لا بد
من نفاذها . ولولا قسوة القلب هذه ، ولولا تصلّده ، لجنّ المرء
متاجنوناً ، أو على الأقل لجننتُ أنا . فهل لي أن أتجرأ فأفرض
أن مولاي أيضاً حاله كحالي ، وأنه من كثرة ما اضطرّ إلى
شهوده من حرق الزنادقة حيناً بعد حين ، أصبح مضطراً إلى
النظر إلى هذه الحوادث البشعة نظرة المرء إلى واجب ممتاد
هين مألوف .

كوشون : نعم إنه واجب أليم ، بل هو كما تصف بشيع ،
ولكنه لا يُقارَن بيشاعة الزندقة . والذي يَهْتَنِي من الفتاة ليس
جسمها ، فالجسم يتألم برّهات ، وهو مهما امتدّ به الأجل صائرٌ

إلى الموت على حال فيها ألم قد يزيد وقد ينقص ، ولكن الذى يَهْمُنِي روحُها ، فهى قد تتعذب إلى أبد الآبدين .

ورك : هذا حق لا مراء فيه ، فلنَدْعُ الله أن تنجو وتخلص روحها . ولكنى إخال أن العقدة التى تتطلب منا حلاً ممكناً مستطاماً عاجلاً هى كيف نفعل لنخلص روحها دون تخليص جسمها ، فلا بد يا مولاي من مواجهة الحقيقة المنذرة ، فالذين الذى ابتدعته هذه الفتاة لو انتشر لَصِغْتُمْ به وضِعْنَا .

القس : [يتكلم فينفلق صوته كأنما كان يبكي] أأُذِن لى فى الكلام يا مولاي ؟

ورك : الحق يا قسّ چون أنى أفضل أن لا تتكلم ، إلا إذا استطعت كظم غضبك .

القس : لا أريد أن أقول إلا هذه الكلمة ، وإن أنا أخطأت فصَحِّحُونى . إن هذه الفتاة يملؤها الغرور ، وهى تدعى الصلاح والتقوى ، وهى تُكثِرُ الصلوات وتُقرُّ بالخطيئات حتى لانهاية لصلواتها واعترافاتها ، فكيف تستطيعون اتهامها بالزندقة وهى تقوم بجميع فروضها ، كما تفعل ابنة صالحة من بنات الكنيسة . ؟

كوشون : [ياخذ فى الحدة] ابنة صالحة من بنات

الكنيسة ١ إن البابا في أكثر الساعات إيجاباً بنفسه لا يجرؤ على ادعاء ما تدعيه هذه المرأة . إنها تفعل كأنها هي الكنيسة ذاتها ، وتأتي برسالة الله إلى شارل . والكنيسة يجب أن تفسح لها الطريق . وهي ستوجه في كتدرائية رانس . هي هي التي تتوجه لا الكنيسة . وهي تبعث بالكتب إلى ملك الإنجليز بأن يصدع بأمر الله الذي أوحى إليها ، فيعود إلى جزيرته وإلا حاق به غضبُ الله . وهي التي ستحقق به غضبُ الله . ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب هكذا عادةٌ جرى عليها قديماً محمد عدو المسيح . واذكروا أنها في كل ما تقول لا تذكر الكنيسة بكلمة ، فقولها دائماً في نفسها وفي الله .

ورك : وماذا تنتظر غير هذا من شحاذة إذا هي امتطت جواداً ؟ إن رأسها دارت كأنما سُقِيَتْ خمرًا .

كوشون : إنه الشيطان دار برأسها ، ولسببٍ جَلَلٍ فعل هذا . إن الشيطان ييذر بذور الزندقة في كل مكان ، فنذ ثلاث عشرة سنة قام رجل اسمه هوس^(١) Hus في بوهيميا فأعدى الناس

(١) مصلح ديني ولد في بوهيميا حول عام ١٣٧٥ م ، وأحرق حياً من أجل تعاليمه في ٦ يولييه عام ١٤١٥ . كان عميداً لكلية الفلسفة في براغ ، ثم رئيساً للجامعة كلها . واشتد انتقاده للبابا فطرده من الكنيسة مرتين . وكان يرى الرجوع في الدين إلى الإنجيل وحده .

بها فأحرق من أجلها . وفي إنجلترا قام رجل قس مرسوم^(١) اسمه وكليف^(٢) Wcleef ، فنشر الوباء فيها ، فتركتموه يموت في فراشه حتف أنفه فكسبتم بذلك عارا . وهنا في فرنسا قوم من هؤلاء أعرفهم من سيام ، وأتيين جنسهم من لقيام . إنهم كالسرطان إذا هو لم يُقطع ، إذا هو لم يُقلع ، إذا هو لم يُدعق ويُحرق ، فإنه يتمدد ثم يتمدد حتى يملأ جسم المجتمع الإنساني كله بالخطيئة والفساد ، بالوبال والخراب . وبمثل هذا قام عربيّ جمال فطارد المسيح وكنيسة المسيح ، حتى طردهما جميعاً من أورشليم ، ثم مضى يضرب في الأرض فيبت الفزع والخراب فيها ، حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب^(٣) دونه وقامت رحمة الله ، وحيل بين فرنسا وبينه ، فنجت من لعنة الله . فإذا صنع هذا الجمال العربي في بداية أمره أكثر مما صنعت

(١) يقصد لا شك بهذا الاسم ويكلف Wycliffe ، ولأعسا أوردته على صورة خاطئة جرياً مع لسان المتحدث وهو فرنسي . أما الرجل فهو جون ويكلف ، ولد في إنجلترا عام ١٣٢٠ ومات عام ١٣٨٤ . وتعلم في أكسفورد ، واختير رئيساً لكلية بليول فيها ، ودرس اللاهوت وعلمه . ولما قامت الحصومة بين ادوارد الثالث ملك إنجلترا والبابا ، ناصر ملكه على البابا ، وكتب كتباً شديدة في البابا وانتقد الأساليب الدينية الجارية في ذلك العصر انتقاداً صرا ، وشاعت تعاليمه في أوروبا وقامت بنصيبها في أحداث الثورة الإصلاحية الدينية العامة ، وحاكه البابا صرتين غمته الملكية الانجليزية ومات حتف أنفه ، إلا أنه في عام ١٤٢٨ ، أي بعد وفاته بأربعة عشر عاماً ، حوكم ميتاً ، وحكم على تعاليمه بالفساد ، ثم نبش قبره وأحرقت رقاؤه .

(٢) هي جبال الپرينيه Pyrenees فهكذا كانت تسميها العرب .

هذه الفتاة ؟ جاء الوحى من جبريل ، وجاءها من القديسة كثرينة والقديسة مرغريت والبارك ميخائيل . وأذن فى الناس بأنه رسول الله ، وكتب الكتب إلى ملوك الأرض باسم الله . وكُتِبَها لا تفتأ تصدر للعلوك كل يوم ، وإليها يجب أن تتوجه نحن بالشفاعة الآن ، إلى المذراء جان ، لأن المذراء أم الله . إن بالكنيسة ذخيرة من علم وحكمة وخبرة تجمعت على السنين والقرون ، وبها مجالس من حكماء علماء بررة أتقياء ، فإذا يكون حال هذه الدنيا إذا التى بكل هذا التراث فى المزارب والمزاب ، كلما قام عامل أجير جاهل ، أو قامت فلاحه حلابة للبقر نفّخها الشيطان بالفرور الفادح فألهمها أنها يوحى إليها من السماء ؟ عندئذ تصبح الدنيا ممتركا تتناطح فيه الرؤوس الفاضية ، وتسيل فيه الدماء ساكبة ، فكل رجل وما تقدر عليه يده . ثم تصبح الدنيا خرابا يبابا . وتحل البربرية على المدنية . إننا والحمد لله الآن بخير ، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه ، وإلا الفتاة جان ومخدوعوها ؛ ولكن كيف يكون الحال إذا خالت كل فتاة أنها جان ، وخال كل رجل أنه محمد . إنها حال تُقرعنى فزعا لا فزع فوقه ؛ حال حاربت كل حياتى لاتقائها ، وسأحارب لاتقائها ما بقى من آياى . إنا نفزع لهذه المرأة كل خطاياها إلا هذه ، فهي

خطيئة في حق الروح القدس . إنها إذا لم تنصل من دعاها ،
وإذا هي لم تستغفر منها على الملأ وأنفها راغم ، وإذا هي لم تخرج
عن كل قيروط من روحها الى الكنيسة ، اذا هي لم تفعل كل هذا
فالى النار مأواها لو وقت يوماً في يدى .
ورك : [لا يتأثر بالنى قيل] أنت شديد التأثر من هذا الأمر
بطبيعة الحال .

كوشون : أأست كذلك ؟

ورك : أنا رجل حرب لا رجل دين . وقد حجبت إلى
بيت الله المقدس ، ورأيت بعضاً من أتباع محمد ، فلم أجدهم من
سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونها قبلاً ، بل وجدت لهم أدبا
لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا .

كوشون : [يستاء مما قيل] لقد لاحظتُ هذا من قبل : أن
رجالا يذهبون إلى الشرق لينصروا الكفار ، فلا يلبثون أن
ينقلبوا هم كفاراً . إن الجندى الصليبي يعود من الشرق وهو
نصف شرقى مسلم . دع أن الإنجليز جميعاً زنادقة من يوم يولدون .
القس : الإنجليز زنادقة ؟؟؟ [يستغيث بورك] مولاي ،
كيف نصبر على هذا ؟ إن مولاي الأسقف صانع عقله . كيف
يكون ما يعتقده الإنجليزى زنادقة . إنه تناقض فى اللفظ .

كوشون : إني أعفو عنك يا قس بناءً على جهالة فيك مُطَبِّقة .
إن جو بلادك الكثيف لا يُنشئُ الفقهاء .

ورك : إنك ما كنت لتقول هذا لو أنك شَهِدْتنا تتجادل
في الدين يا مولاي . وإنه ليمروني الأسف أن تظن بي إما الزندقة
وإما الغباء ، لا لسبب سوى أني طوّفتُ في البلدان فمرفتُ
فيما عرفتُ أن أتباع محمد يحترمون المسيح احتراماً ظاهراً
شديداً ، وأنهم في تساعهم أقرب أن يغفروا لبطرس القديس أنه
كان سماً كا ، من أن تغفروا أنت يا مولاي لمحمد أنه كان جَمَلاً .
أ كثيرٌ يا سيدي أن أطلب منك أن تأخذ على الأقل فيما نحن
فيه الآن بغير تعصب وضييق ذهن .

كوشون : إن الرجل إذا سَمِيَ غيَرتي الكنسيّة وحميَتي
المسيحية تعصباً فقد تحلّلتُ في أمره وظننتُ فيه الظنون .
ورك : إن هُما إلا رأيان في شيء واحد ، أحدهما شرقيّ ،
والآخر غربيّ .

كوشون : [يتهم في مرارة] شرقي وغربي ! ليس إلا !
ورك : يا مولاي الأسقف ، إني لا أناقض ما تقول . إن
الكنيسة لا شك ستبُعثك ، ولكن لا بد لك أن يتبعك الأشراف

أيضاً ، وفي رأيي أن في الإمكان اتهام الفتاة تهمةً هي أشد من
التهمة التي شرحتها هذا الشرح القوي . إنني أفصح لك بقول
صريح : إنني لا أخشى أن تنقلب هذه الفتاة محمداً ، أو أن تحل محل
الكنيسة بسبب زندقة كبرى . إنك تبالغ في خطرها . ولكن
قل لي هل وجدت فيما تبعث الفتاة به من الكتب إلى ملوك
أوروبا أنها تعرض عليهم صفقة سبق أن عرضتها وفرضتها على
شارل ، صفقة لو أنها تمت لهدت كيان المجتمع في كل بلد من
بلاد المسيح .

كوشون : لهدت كيان الكنيسة . وهذا ما أقوله لك .
ورك : [وقد بدأ ينفذ صبره] مولاي ، أتوسل إليك أن
تُخرج الكنيسة من رأسك وأن تنساها ساعة من الزمان ،
وأن تذكر أنه إلى جانب المؤسسات الروحية الدينية ، توجد
مؤسسات زمنية دنيوية . إنني أنا وأشرافي نمثل الارستقراطية
الإقطاعية بقدر ما تمثل أنت الكنيسة . نحن السلطة الزمنية .
أفلا ترى كيف أن الفتاة تضرب في الصميم منا ؟

كوشون : لا أدري كيف تضرب في الصميم منكم ،
إلا بمقدار ما تضرب في الصميم منا جميعاً بضربها الكنيسة .
ورك : إنها ترى أن يُعطى الملوك ملوكهم الله ، وأن يحكموا

من بعد ذلك في هذا الملك خلفاء الله .

كوشون [في غير اهتمام] : هذا في الفقه صحيح يا مولاي ،
ولكن الملوك لا تكاد تهتم لشيء أو تتورع عن أمر ما حكمت .
إنها فكرة نظرية بحتة ، أسلوب من أساليب الكلام .

ورك : لا ، لا ، أبدا . إنها حيلة مأكرة مؤداها خلع
الارستقراطية وإحلال الملوك محلها يحكمون مُطلقين كما يشاءون .
فبدل أن يكون الملكُ الشريفَ الأولَ بين أشراف ، يصبح
سيِّدَم ومالكَ أمرهم . فهذا لا تُقرّه نحن معاصر الأشراف ، ولن
ندعو رجلا سيِّدا فينا أبدا . إننا نقسم أراضينا ومراهبنا من
الملك ، ولكن بالاسم لا في الواقع . وذلك لأنه لا بد لكل حَيَّة
من حجر أوسط تستند إليه ، وتجتمع حَجَرَاتُهَا كُلُّهَا عليه ،
والملك الحجر الأوسط للمجتمع الإنساني . ولكننا نملك أراضينا
بأيدينا ، ونحميها بسيوفنا وسيوف مؤاجرينا . وتعاليم الفتاة
تقضى بأن يأخذ الملكُ أرضنا ، يأخذُ أرضنا نحن أصحابها ، فيهبها
لله ، والله يعود بعد ذلك فيهبها جميعاً للملك .

كوشون : وهل أنتم تخشون هذا ؟ إنكم أنتم تخلقون
الملوك : يورك York ، أولنكستر Lancaster في إنجلترا ، لنكستر
أوفلوا Valois بفرنسا ، كلها تحكم على هواكم .

ورك : نعم هذا حق ما تبِعَ الناسَ أشرفهم الإقطاعيين ،
وما ظل الناس لا يعرفون من ملكهم إلا تلك المظاهر التي
يُطَوّف بها بينهم حيناً بعد حين ، لا يسألهم حقاً أو خراجاً
إلا تلك الطرق السلطانية التي يمتلكها الناس أجمعين . أما إذا
اتجهت أفكار الناس إلى الملك ، واجتمعت قلوبهم عليه ، وأصبح
لُورداتهم في أعينهم للملك خُداماً ، استطاع الملك عندئذ أن
يكسرنا على ركبته واحداً واحداً ، فلا يكون منا إلا وُصفاء في
بلاطه ، نلبس الكُسى ونقف في الردهات مستجيبين لدعواته .
كوشون : لا أزال أقول إنه لا داعي للخشية يا مولاي ،
فن الناس من يولدون ملوكاً ، ومن الناس من يولدون ساسة ،
وقلّ أن يجتمع الملك والسائس في فرد واحد . فإين يجد الملك
ساسة ناصحين ، يخطّطون له وينفذون ، إلافكم ؟
ورك : [يتسم ابتسامة ليست كلها ودّاً] لعله واجدم في
الكنيسة يا مولاي .

[يتسم كوشون ابتسامة مُرّة كابتسامة صاحبه ، وهو يهز كتفيه
ولا يناقضه] .

ورك : اقصموا ظهور البارونات ، يَخْلُ الجوّ للكردنالات .
كوشون : [يمود للترضى فيخفض من صوته في المناقشة] مولاي ،

إِنَّا لَن نَقهر الفتاة إِذَا نحن تخاصمنا فيما بيننا ، وعملنا على مناوأة بعضنا بعضا . إِنى أعلم كل العلم أَنَّ الدنيا بها كَلْبٌ على السلطان ، وأعلم أَنه ما دام هذا فلا مندوحة عن نزاع بين الإمبراطور والبابا ، ونزاع بين الدوقات والساسة من الكردنالات ، ونزاع بين الملوك والبارونات . إِن الشيطان يفرِّق بيننا ، ثم هو يحكم من دوننا . إِنى أراك للكنيسة غيرَ صديق ؛ أنت إرل أوْلا وأخرا ، بمثل ما أَنَا كَنسِيْ أوْلا وأخرا . ولكن أفى هذا ما يمنع أَن ننسى ما يفرِّقنا ، وَأَن نجتمع كلانا على عدوٍّ واحد ، هو عدوُّ لنا وعدوُّ لكم . أرى الآن أَنه لم يكن فى نفسك أَنَّ الفتاة لم تذكر الكنيسة وذكرت نفسها والله ، بل كان فى نفسك وأمضها أَنَّ الفتاة لم تذكر الأشراف بل ذكرت نفسها والمَلِك .

ورك : نعم هذا ما كان بنفسى . ولكنَّ الفكرتين إِن اختلفتا فرعا ، فقد اتحدتا أصلا . وهذا أصل يضرب فى الأصول إلى حد بعيد يا مولاي . وهذا الأصل هو رفضُ روح الفرد واحتجاجُها أَن يتدخلَ بينها وبين الله شريف أو قس . ولو أَنى صُنْتُ له اسما لقلت الراضية أو البروتستانية .

كوشون : [يرشقه بنظره] إِنَّك تفهمها فهما مدهشا فى جودته يا مولاي . خُكْ رأس الإنجليزى ينكشف لك عن بروتستانى .

ورك : [يقول متصنعا غاية التأدب واللطافة] لا أغثك تخلو
كل الخلو من عطف على الفتاة فيما ابتدعته من زبدقة تمس السلطة
الزمنية ، فأنا أترك لك أن تجد لها اسما أكثر توفيقا يا مولاي .
كوشون : قد أسأت فهما يا مولاي . فما بي عطف على
ما ادعته الفتاة صلفا من دعاوى سياسية ؛ ولكنى قسّ عرف
في سبيل مهنته شيئا عن عقول العامة وكيف تعمل . وإنك
لواجد في هذه العقول فكرة أخرى غاية في الخطورة ، لا أدري
كيف أعبر لك عنها . فكرة تجد معناها في قولهم : فرنسا
للفرنسيين ، وانجلترا للإنجليز ، وإيطاليا للإيطاليين . إنها فكرة
توجد في الريف ، يتمسك بها الريفيون في تعصب وضيق ذهن
شديد يبلغ أحيانا حد الخصومة المرة بين القرية والقرية . من
أجل هذا يدهشني أن تستطيع هذه الفتاة القروية أن تسمو عن
مبدأ القرية : أن القرية للقرويين . فإنها حقا تستطيع أن تسمو ،
بل هي قد فعلت . فهي لما تهدد بطرد الإنجليز من أرض فرنسا
تقصد لا شك بذلك كل الأرض التي ينطقون فيها بلسانها .
فعندها أن جميع من يتكلمون اللغة الفرنسية يؤثفون ما يسميه
الإنجيل شعبا أو أمة واحدة . فلك أن تسمى هذا الجانب من
زندقتها قومية إن شئت ، فأنا لا أستطيع أن أجدل لك كلمة خيرا

منها . ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أنها فكرة يناقض جوهرها الكاثوليكية ، وينافض المسيحية ؛ فالكنيسة الكاثوليكية لا تعرف إلا أمة واحدة هي أمة المسيح ، وإلا دولة واحدة هي دولة المسيح . فإن أنت قسمتها أما وشعوبا فقد خلعت المسيح . وإن أنت خلعت المسيح ، فن ذاب حول بين السيوف والرقاب ؟ إذن لوقعت الحروب واختلطت ، وحق على الدنيا الفناء .

ورك : إذن هان الأمر بيننا ، فاحرق أنت البروتستانتين ، أحرق أنا القوميين . ولو أن القس چون قد لا يوافقنى على هذه الأخيرة ، فانجلترا للإنجليز تجد هوى في قلبه .

القس : بالطبع انجلترا للإنجليز ، إنها من البدهاة بكان . إنها قانون الطبيعة الأبسط . ولكن هذه المرأة تجحد انجلترا فتوحاتها الشرعية التى منحها الله إياها لما خصها الله به من القدرة على حكم شعوب دونها مدنية . وهى إنما تحكمهم بخيرهم . إني لا أفهم يا سيدى ما تعنيان بروتستانتى وقوى ، فعلمكم لا يدركه قس صغير مثلى . ولكنى أعلم حقيقة بسيطة واقعة يفهما كل الناس ، هى أن هذه الفتاة نائرة خارجة ، وكفى بذلك عندى علما . ففى قد نارت على الطبيعة فلبست ملابس الرجال ، وحاربت كما يحارب الرجال . وهى قد نارت على الكنيسة فاستلبت من البابا

سلطته الربانية استلابا . وهي قد نارت على الله لما هامت الشيطان
ومن اتبعه من أرواح خبيثة على هزيمة جيشنا . وهي قد اتخذت
من كل هذه الثورات سببا يؤدي بها إلى ثورتها الكبرى ضد
انجلترا . فهذا لا يمكن احتماله ، فأعدموها ، وحرقوها ، ولا تدعوها
تنال بالبواب سائر القطيع . إن من الحكمة قتل امرأة لخلاص الناس .
ورك : [ينهض] مولاي ، يظهر أننا قد اتفقنا .

كوشون : [ينهض أيضا ولكن في احتجاج] إني لن أورد
روحي موارد الهلاك . إني سأقضي بما يقضي به عدل الكنيسة ،
وسأفرغ جهدي لنجاة هذه المرأة .

ورك : إني أعطف على الفتاة المسكينة . إني أكرم
القسوة ، وسأصرف عنها سوء إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

القس : [وقد بقى على غضبه] إني لو استطعت لحرقتها
بيدي هاتين .

كوشون : [يباركه] جهالة قسيس ، أو حماقة قديس ،
فاغفرها له يارحمن .

المنظر الخامس

[ممشى فى كترائية رانس ، بجوار الحجرة التى يغير فيها رجال الكهنوت ثيابهم . وبالمشى عمود عليه صورة من آلام المسيح يصلى عندها المصلون . والأرغون يعزف حتى يخرج الناس جميعاً من ضمن الكنيسة بمد أن توج الملك . وتكون جان عاكفة على صلاتها أمام العمود وهى فى لباس فاخر جميل ، ولكنه لباس رجل لا أنثى . ثم يخرج دُنُوا من حجرة الثياب إلى المشى فى زى نفم جميل أيضاً . عندئذ يسكت الأرغون] .

دُنُوا : هيتا بنا يا جان ، فقد كفالك صلاة . إن البرد لاشك مصيبك إذا أنت لبنتِ طويلاً هنا بعد هذا البكاء الشديد . قضى الأمر كله الآن . فرغت الكنيسة من الناس ، وامتلات بهم الشوارع ، وهم يدعون الفتاة أن تظهر فيهم . لقد قلنا لهم إنك باقية هنا وحدك للصلاة ، ولكنهم يصرون على أن يروك مرة أخرى .

جان : لا . دعوا الملك يقطف ثمرَ هذا المجد كله .

دنوا : عفا الله عنه ، إنه مسكين ضعيف ، وظهوره يفسد
هذا المنظر الجميل . لا يا جان ، أنت توجّه ، فلا مندوحة لك
عن بلوغ الناية من ذلك .

جان : [تهز رأسها في تردد] .

دنوا : [يرفها من ركبتها] هيا بنا هيا . إن كل شيء ينتهي
في ساعتين . حدّثيني ، أليس هذا خيراً مما وقع على الجسر
في أرلين ؟

جان : أى عزيزى دنوا ، كم وددت لو عاد الجسر وعادت
ساعة الجسر مرة أخرى . فعلى هذا الجسر ذقنا الحياة .

دنوا : أى والله ، وعليه ذقنا الموت أيضاً — ذاقه بعضنا .
جان : إني أعجبُ لحلى يا چاك : أجبن كل الجبن وأمتلئ
بالذعر قبل الواقعة ، حتى إذا خمدت نارها ، وانقشع غبارها ،
وتولّت عن الدنيا غاظرها ، سئمت نفسى العيش وعفت الحياة .
دنوا : إنك تُقلّين الطعامَ والشراب ، فتعلّمي الإقلالَ
من الحرب أيضاً يا قديستى الصغيرة .

جان : عزيزى چاك ، أحسب أنك تحبني كما يحب الجندي
رفيقه .

دنوا : أنت في حاجة إلى محبتي يا مسكينة ، يا بنت الله ،
يا ساذجة . فليس لك في البلاط أحباب كثيرون .

جان : لا أدري لماذا تُبغضني بطانة الملك ، وكل هؤلاء
الفوارس الأشراف ، ورجال الكنيسة . ماذا صنعتُ لهم ؟ وماذا
سألتُ لنفسي منهم ؟ ما سألت إلا أن تُعفى قريتي من ضرائب
الحرب ، لأننا فقراء لا نُطيعها . لقد جثتهم بالنصر بعد الهزيمة ،
وأطلعتُ لهم نجم السعد بعد أفوله . وقومتُ أمورهم بعد أن
جاءوا من الأعمال بكل مُعوجّ سخيّف . وتوجتُ شارلُ فصار
مَلِكًا صِدْقًا . وأُعطيَ الرتبَ ، وفرّقَ الألقابَ ، فذهبت كلُّها
فيهم . فلماذا لا يحبونني ؟

دنوا : [يحاول أن يذهب بالقنوط عنها] يا بلهاء ! أتحسبين
أن رجالاً أغبياء بُلْداء يحبونك لأنك كشفت الغطاء عن
مناقصهم ؟ أيجب ضباطُ حربٍ شيوخُ خاؤون خطّائون ،
ضباطاً أحياناً موقّعين ، حلّوا من الجيش حيث كانوا يَحْدِلُون ؟
أيجب رجالُ سياسيون قدماء أمثالون ، رجالاً سياسيين مُخَدِّين ،
نافسوم في مقاعدهم الأولى في البرلمان فنفسوم ؟ والمطارنة ،
أتحسبينهم يقفون صامتين راضين مغتبطين إذا خادعهم خادع

عن مذاجمهم في كنائسهم ، ولو كانوا أطهاراً قديسين ؟ ولم
نذهب بعيداً ، فهذا أنا ، ما كان أحقنى بالثيرة منك لو كنت
مطاماً أمتالا .

جان : إنك يا چاك في هذه السلّة كلّها خيرٌ ما فيها . إنك
صديق الأوحـد من بين هؤلاء الأشراف جميعاً . إن أمك لا بد
قد جاءت من الريف . إنى إلى الريف سأعود بعد أخذ باريس .
دنوا : لست موقناً إيقانك بأنهم سيأذنون لك في أخذ
باريس .

جان : [مرتاعة] كيف تقول ؟

دنوا : لقد كنتُ أخذت باريس أنا نفسى من قبل ، لو
كان الكلّ في أخذها صادقين مخلصين . أكبر ظنى أن فئة
منهم تجد أحبّ إلى نفسها أن تأخذك باريس . فاحذرى ، ثم
احذرى .

جان : چاك ، إن الدنيا هذه خبيثةٌ خبيثاً لا أطيعه . فإذا
لم يهلكنى الإنجليزُ والبرجنديون ، أهلكنى الفرنسيون . إنى
لولا أصواتى التى أسمع لضمف قلبى وملاء القنوط . ومن أجل
هذا تسلّلتُ خفيةً إلى هنا بعد التويج أهرع بصلاتى إلى الله

وحدنى . أنصتْ إلى يا جاكُ أخبرك خبراً . إنى فى هذه الأجراس
أجراس الكنيسة أسمعُ أصواتى . إنى لم أسمعها اليوم لئنا دقت
الأجراس كلها معاً ، فإكان هذا إلا صخباً صاخباً . ولكنى أسمع
أصواتى فى المادة هنا فى هذه الزاوية إذا دقت الأجراس وجلجلتْ ،
وتنزلتْ أصداؤها على من السماء فلبجتْ وترينتْ . وقد أسمعها
فى الحقول تأتى من بعيد ، تحترق إلى هوائها المديد ، وهديرها
الصامت الشديد [تدق ساعة الكنيسة ربع الساعة] صه ! [يعتريها
ذهول] أسمع ؟ « عزيز ... زقى ... يا بنى ... ت الله » . بالضبط كما
دعوتنى . فإذا دقت نصف الساعة قالت الأصداء : « سيه ... رى ...
قُد ... ما » . فإذا جاءت ثلاثة الأرباع قالت : « أنا ...
فى ... عو ... نك » . ولكنها عند تمام الساعة عندما يدق
الجرس الأكبر تقول : « ف ... رنسا ... يُنجيه ... ها الله » .
وعندها تأتى القديسة مرغريت ، وأحياناً القديسة كثرينة
— حتى المبارك ميخائيل يأتى أحياناً — فيقولون لى أشياء
لا أستطيع أن أتنبأ بها . وعندها ، أى وعندها ...

دنوا : [يقاطمها بحنو ، ولكنه لا يشاركها شعورها] وعندها
يا جان يستمع الإنسان فى جلجلة الأجراس ما يخال . إنى أخاف
عليك كما سمعتك تتحدثين عن هذه الأصوات . ولقد كدت أظن

فيك مسًا من خَبَلٍ لولا أنى أراك تأتيني بعلل معقولة مقبولة
لكل ما تصنعين . ومع هذا أسمعك تقولين لغيرى إنك فى الذى
تصنعيه إنما تطيعين السيدة القديسة كثرينة .

جان : [تقول وهى غَضَبِي] إني أصطنع لك الملل اصطناعا ،
لأنك لا تؤمن بأصواتى . ولكن الأصوات تجيئنى أولاً ، والعلل
تجيء بعدها ، فصَدِّقْ ما بدا لك .

دنوا : أغضبت يا جان ؟

جان : نعم . [تنبسم] لا ، لن أغضب منك . لَوَدِدْتُ أنك
ضبيّ رضيع من صبية القرية .

دنوا : لماذا ؟

جان : إذن لاستطعت أن أحضنك وأناغيك ساعة .

دنوا : فأنتِ إذن لا يزال بك شيء من أنوثة المرأة .

جان : لا . لا شيء مطلقًا . فأنا جنديّة محاربة ليس إلا .
والجنود يحتضنون الأطفال كلما أمكنت فرصة .

دنوا : هذا حق [يضحك] .

[يخرج الملك شارل من حجرة الملابس بعد أن بدّل زيه ، ويكون
لاهير على يمينه وذو اللحية الزرقاء على يساره . عندئذ تتوارى جان فى
سرعة خلف العمود ، ويبقى دنوا فيقع بين شارل ولاهير] .

دنوا : هاقد أصبحت يا صاحب الجلالة بعد دهان الزيت ملكا متوجًا ، فكيف تجد حالك الآن ؟

شارل : ما أودّ أن يعود ما كان ، ولو صرتُ به إلى عرش الشمس والقمر . ألا ما أثقل هاتيك الكُسى والحُلل ! لقد وضعوا على رأسى ذلك التاج فكدت أنوء تحته . والزيت المقدس الشهير الذى تحدثوا عنه كل هذه الأحاديث ، كان زَنَجًا فاسدًا . أف . والمطران لا شك أنه مات الآن إعياء ، فحُلَّه لا شك وَزَنَتْ طَنَا . لقد تركته فى حجرة الملابس يتعثر فيها .

دنوا : [فى جناء] عليك يا صاحب الجلالة أن تكثر من لبس الدروع ، فعندها تَخِفَّ عليك الكُسى الثقيلة .

شارل : نعم . نعم . هات من تلك الفعمزات القديمة . ولكنى لن ألبس الدروع فالجرب ليست شيمتى . أين الفتاة ؟

چان : [تخرج من خلف العمود إلى ما بين شارل وذى اللحية الزرقاء ، ثم تركع على مولاى . قد نصبتك ملكا فاكتمل واجبى ، فأنا عائدة إلى حقل أبى .

شارل : [يندهش ، ولكن يحس كأن أزمة قد تقرّجت] آه ! أحقًا تذهبين ؟ إذن تحسنين صنعا .
[تهض چان وقد ملأها اليأس] .

شارل : [يتأدى غير عابىء] إن حياة الحقل حياة فيها الصحة والعافية .

جان : ولكن فيها السامة والوخامة أيضاً .

ذو اللحية الزرقاء : وتمودين إلى أبواب النساء ، غلاثلهن ومجاسدمن ، فتمثرين فيها بمد ترك طويل .

لاهير : وسيشوقك القتال ، وهو عادة قبيحةٌ ، ولكنه متعة كبرى ، وهو فى العادات أشدها تأصلاً فى النفس وأصعبها استئصالاً .

شارل : [ياخذہ القلق] ومع هذا فنحن لا نود أن نُبقيك معنا ، إذا أنتِ رغبت حقاً فى الذهاب إلى أريك .

جان : [فى ألم] أنا أعلم حق العلم أنه ليس فيكم من يأسف على ذهابي [تمطى ظهرها لشارل ، وتخطو أمامه ذاهبة إلى المكان الأرحب الأحن : إلى جيرة دنوا ولاهير] .

لاهير : أما أنا ، ففى غيبتك أستطيع السبّ إذا أردته . ولو أنى سأفتقدك وأشتاقت أحياناً .

جان : لاهير ، أنت برغم ما تقترفه من سبّ وخطيئة ستلقانى فى الجنة ، فأنا أحبك كحبى كلبي المعجوز حارس غنمى يتنو . إن يتنوى يقتل الذئب لو أراد . وأنت تظل تقتل الذئاب

الإنجليزية بإذن الله حتى يمودوا إلى بلدهم فيصبحوا كلابًا خيَّرين
من كلاب الله . أأنت فاعل ؟

لاهير : نعم ، إذا كنتِ معي .

چان : لن أكون معك . فلم يبق لي من العمر إلا عام
واحد ، بدأ باشتراكي في هذه الحرب .

الكل معاً : كيف تقولين ؟

چان : أقول ليس لي في الحياة غير عام . هكذا يحس قلبي .
دنوا : هذا لغو باطل .

چان : قل لي يا چاك ، أ تستطيع طردهم من أرضنا ؟

دنوا : [يقول في هدوء المتكبر المقتنع بالذی يقول] نعم .
سأستطيع طردهم . إنهم غلبونا لما عدَدنا الحربَ ملعبة ، وميْدانَ
الحرب سوقاً نكسب فيها الفِدى ، ولما اتخذنا الحرب هزلاً
واتخذوها جدّاً . ولكنني أفدتُ من درسي ، وتعلّمت من تجاربي .
وذَرعت القومَ وشَبَرْتُهم ، فعلمت أنهم شجرات لا تضرب
أصولها في الأرض بعيداً . لقد هزمتهم من قبل ، وإني لقمين
أن أهزمهم مرة أخرى .

چان : ولا تكن قاسياً عليهم يا چاك .

دعوا : إنهم لن يلينوا في اليد الناعمة . وهذا شرٌّ هُمُ بدأوه
والبادي أظلم .

جان : [بغثة] چاك . هيا بنا نأخذ باريس قبل أن أعود
إلى أبي .

شارل : [وقد دُعم] لا . لا . إننا إن فعلنا ، خسرنا
ما كسبنا . فدعوا القتال ، ففي مقدورنا الآن أن نحظى من دوق
برجندى بماهدة طيبة جدا .

جان : معاهدة ! [تضرب الأرض بقدمها] .

شارل : نعم . ولم لا ؟ وقد صرت الآن ملكا مرسوماً ؟
أفٍّ من هذا الزيت !

[يخرج المطران من حجرة الملابس إلى الجماعة ، فيقف بين شارل
وذى اللحية الزرقاء]

شارل : أيها المطران ، إن الفتاة تريد أن تبدأ القتال من
جديد .

المطران : وهل سكتنا عن القتال ؟ هل نحن الآن في
سلام ؟

شارل : لا . أظن لا . ولكن حَسْبُنَا ما فعلنا ، فعلينا الآن

بالمعاهدة ، والحظُّ معنا ، فهو حظُّ جميل جداً لا أحسبه يدوم طويلاً ، فقفوا القتال قبل أن يتبدّل .

جان : حظ ! إن الله حارب دوننا . أفنتسى هذا حظاً وتقف القتال ولا يزال الإنجليز على هذه الأرض المقدسة ، أرض فرنسا الغالية ؟

المطران : [في قوة وجفاء] يا فتاة . إن الملك توجه بخطابه إلى لا إليك . إنك تنسين مقدار نفسك فتتركين لها العنان فتجرحين . إنك تنسين فتجرحين كثيراً .

جان : [لا تحجل ، وترد في شيء من الحشونة] إذهب فتكلم أنت وقل إن الله لا يرى له أن يرفع يده عن المحرث .

المطران : إن لسانك ذلِّق باسم الله ترددينه في كل آن . فإن لم تكن بلساني مثل هذه الذلاقة ، فذلك لأنني إذا نطقت بمشيئة الله فإنما أنطق بها بلسان الكنيسة وما لها من سلطان ، وباسم منصبى وما له من قداسة . إنك كنت تحترمين سلطان الكنيسة وسلطان هذا المنصب لما جئنا أولاً . عندئذ لم تكوني تجرئين على الحديث بمثل ما تتحدثين . وعندها كنت تتحلين بفضيلة التواضع الجليل . ولكن لما كافأك الله عليها بالتوفيق دخل

العُجْبُ نَفْسَكَ وهو بئس الخطيئة . إنها المأساة الإغريقية القديمة تعود فتمثّل فينا . إنه الضرور ينحدر بصاحبه إلى عاقبته المحتومة . شارل : نعم . إنها تخال أنها تعلم خيراً مما يعلم الناس جميعاً . جان : [تضيق نفساً . ولكنها في سذاجتها لا تدرك أثر ما تقوله في الناس] ، ولكني أعلم خيراً مما يترأى لى أنكم تعلمون . إني لا أنطق عن عُجْب . إني لا أنطق إلا أن أقول حقاً . ذو اللحية الزرقاء وشارل : [يصيحان معاً] ها . ها . بالطبع ! بالطبع . !

المطران : وما أدراك أنه الحق ؟

جان : أنا دائماً أدرى . إن أصواتي ...

شارل : أصواتك ، أصواتك ، دائماً أبداً . لم لا تبحثنى هذه

الأصوات ، وأنا لا أنتِ الملك ؟

جان : إنها تبحثك أيضاً ، ولكنك لا تسمعها . إنك

لا تجلس أبداً في الحقول في الأمساء تتسمع لها . وإذا دقت

الأجراس تؤذن بالصلاة فأنت تُصلّب على نفسك وتكتفى .

أما لو أنك صليت من قلبك ، وأصغيت لجلجلة الأجراس بعد

سكونها ، لسمعتها كما أسمعها . [تُشير عنه بغلظة] ولكن ما حاجتك

إلى أصوات تقول لك ما يستطيع الحدّاد أن يقوله : لضرب

والحديدة حامية ؟ إلى أقول لك لا بد من هجمة على كُنيين
Compiègne تَخْلُصُ بها لنا كما خَلَصَتْ أُرلين . عندها تَفْتَحُ
باريسُ لنا أبوابها ، فإن هي لم تُفْتَحْ مَرَقْنَا مِرُوق السهام فيها .
ما غناء تاج من غير عاصمة ؟

لاهير : هذا رأيي . وسنمِرُق من أبوابها مِرُوق الرصاصه
الساخنة في رطل من زُبْدَة باردة . فإذا ترى يا ابن الفاعلة .
دنوا : لو كانت قنابلنا في سخونة رأسك ، وكان لدينا العدد
الوفير منها ، لم يبق موضع في الأرض إلا فتحناه . إن الشجاعة
والعنف خَصَمَتان جميلتان يَخْدَمَان الإنسان في الحرب ما مَلَكَهما ،
فإن هما تَمَلَكاه ضَيَعاه . ولقد ضَيَعَانَا وأوقمانا في يد الإنجليز كلما
رَكْنَا إليهما . إن عيننا الأكبر هو أَنَّا لا ندرك الهزيمة أبداً
إذا هُزِمْنَا .

جان : بل أنتم لا تدركون النصر أبداً إذا ما انتصرتم ،
وهذا عيبٌ شرٌّ وأفضح . لكأني والله بكم ، وقد تَحَلَّيْتُكم في
الحرب مرايا تؤكِّد لكم أن العدوَّ لم يَجْدَعْ بعدُ كلَّ أنوفكم .
إني لولا حملي إياكم على الهجوم لكنتم الآن لا تزالون محصورين
في أُرلين أنتم ومجالس حربيكم . احمِلُوا يا قومُ دائماً ، وهاجُوا
دائماً ، وصابِرُوا العدوَّ فهو لا شك نافذٌ صبرُهُ . إنكم لا تعرفون

كيف تبدأون الواقعة ، ولا تحسنون ضرب المدافع . وأنا أعرف هذا وهذا .

[تقول هذا وتجلس ، متربعة على بلاط الأرض ، عبوسة الوجه ممدودة الشفتين غصبي] .

دنوا : أعلم رأيك فينا ، يا جنرال جان .

جان : بل قل لهم ما رأيك في يا چاك .

دنوا : رأيي أن الله أعانك يا جان ، فلست بناسٍ كيف

تغيّرت الريح ، ولا كيف تغيرت بكِ قلوبنا ، وبحق إيماني لن أنكر أنا إنما انتصرنا تحت لوائك . ولكني أقولها لك قولة

جندی : إن الله ليس بالعبد المملوك لأي مخلوق ، رجلاً كان أو امرأة ، فتنتظر منه الخدمة في كل آن . إن الذي يصنعه

الله لك أن ينتشلك أحياناً من بين برائن الموت إن كنت أهلاً لذلك . فإذا هو أقالك من عثرتك ، ووقفك على قدميك ،

تركك لنفسك ، وعندها يجب عليك القتال بكل ما فيك من حول وكل ما فيك من دهاء . واذكري أن الله لا بد له أن يرعى

الأعداء كما يرعانا على السواء . وقد أقال الله عثرتنا ووقفنا على أرجلنا في أرلين . وقد جاءنا النصر فيها . والنصر إذا وقع لا تنقطع

أسبابه وشيكاً ، فبقوة النصر الأول كسبنا نصراً فنصراً في

ملاحم عدّة تناهت بتتويج الملك . فإذا نحن ركنّا بعد ذلك إلى المجد الذي كسبنا ، واتكلنا على الله أن يصنع لنا ما يجب أن نصنعه لأنفسنا ، فقد حقّت علينا الهزيمة جزاء وفاقاً .

جان : ولكن ...

دنوا : صه فإني لم أفرغ . فلا يظنّ أحدكم أن الذي كُسِب من نصر كُسِب من غير قيادة وإحسان إمرة . شارل أيها الملك ! إنك لم تُشِر في خطبة التتويج إلى نصيبي من هذه الحروب ، ولا أشكو من هذا ، فالناس تجرى وراء الفتاة وما أتت من معجزات ، لا وراء ابن الفاعلة وما حاثى لها في جمع الجيوش وإطعامهم . ولكني أعلم بالدقة كم صنع الله لنا على يد الفتاة ، وكم ترك لي لتحقيق على يديّ بفطنتي وحيلتي . إني أُنذركم أن ساعة الكرامات فاتت ، وشمس المعجزات أفلت ، وأن النصر لن يكون إلا لأكثر المتحاربين فطنة وأبرعهما حيلة ، لو كان الحظ في جانبه .

جان : آه . لو . لو . لو . ما أكثر لوّاتكم وما أقلّ غناها [تهض بنته في عنف] إني أقول لك يا ابن الفاعلة إنّه لا نفع لفنك في الحرب ، لأن فرسانك ورجالك لا يُثنون شيئاً في

الحرب الصادقة . فالحرب عندهم لُبّة كاللّنبس وسائر اللّعب .
 وهم يصنعون لها كاللّنبات قواعد وقوانين ، فهذا يجوز وهذا
 لا يجوز ، وهذا يَحِقّ ، وهذا يَبْطُل . وهم يُهَيِّلون الدروع على
 أنفسهم ، وعلى خيولهم المسكينة ، لِيَتَّقُوا بِهَا السَّهَامَ ، فَإِنْ هُمْ وَقَعُوا
 تَحْتَ ثِقَلِهَا عَنْ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ ، فَيُظَلُّونَ مَكَانَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ سَيِّدُهُمْ
 يَدْفَعُ الْفِدْيَةَ عَنْهُمْ لِلرَّجُلِ الَّذِي وَكَّرَهُمْ فَأَطَاعَهُمْ مِنْ فَوْقِ
 سُرُوحِهِمْ . أَلَا تَدْرِكُونَ أَنَّ وَقْتُ هَذَا مَضَى وَانْقَضَى ؟ مَا نَفْعُ
 الدروع لِقَاءِ الْبَارُودِ ؟ وَإِنْ كَانَتْ تَنْفَعُ ، فَهَلْ تَحْسِبُونَ أَنَّ رِجَالًا
 يِقَاتِلُونَ عَنْ فَرَنْسَا ، وَيُحَارِبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَكْفُونَ عَنِ الْقِتَالِ
 وَرَحَى الْحَرْبِ قَائِمَةٌ لَيْسَا وَمَا فِي الْفِدَاءِ . فَهَكَذَا يَصْنَعُ النِّصْفُ
 مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَمِنْ هَذَا يَرْتَرِقُونَ . لَا . لَا ، إِنْ الْوَاجِبُ أَنْ
 يُحَارَبُوا لِيَغْلِبُوا ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا الْمِيدَانَ دَخْلَهُ بَعْدَ أَنْ يُخْرِجُوا
 مِثْلِي عَنْ أَرْوَاحِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . إِنْ عَامَةَ النَّاسِ وَطَنَانَهُمْ يَفْقَهُونَ
 هَذَا . لِيَنْهَمُ فَقَرَاءُ لَا يَسْتَطِيعُونَ شِرَاءَ الدروع وَلَا يُطِيقُونَ دَفْعَ
 الْفِدَى ، وَلَكِنْهُمْ يَتَّبِعُونَنِي ، عَرَايَا أَوْ يَكَادُونَ ، فِي خَنْدَقِ الْمَاءِ ،
 فَوَالِي السَّلَامِ ، فَوَالِي الْخَائِطِ ، فَمِنْ فَوْقِهِ . عِنْدَهُمْ : حَيَاتِي أَوْ حَيَاتُكَ
 يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَنْصُرُ الْحَقَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . هُزَّ رَأْسُكَ مَا شِئْتَ
 يَا جَاك . وَأَنْتِ يَا ذَا اللَّحْيَةِ الزَّرْقَاءِ أَقْتُلْ لِحْيَتَكَ لِخِيَةِ الْجَدْيِ

ما حَلَّ لك ، وتتناول بأنفك عنى توقِّحاً ما بدالك ، ولكن
تذكروا جميعاً يوم أردتُ أن أحمل على الإنجليز فى أرلين ،
فرفضتُ فرسانكم وقوادكم أن يتبعونى ، فعندما غلقتُ الأبواب
دونى لتمنوني ، كان الذى اتبعنى أهل المدينة وطعام العامة ،
فهجموا على الحصون وكبسوا الأبواب فَوَلَّجوها ، فعلموكم كيف
يكون القتال .

ذو اللحية الزرقاء : [وقد أسئ] أما كفاك أن تكونى البابا:
يا جان ، فتريدن أن تكونى قيصر والإسكندر أيضاً .
المطران : إن المعجب بنفسه لا يأمن الزلل يا جان . وفى
المعجب التردى .

جان : لا تحتفل بالذى بى ، محبباً كان أو غير محبب ، ولكن
قل لى أحق ما أقول ؟ أم نطق بـ بسيط كمنطق الخلق ما أحكى ؟
لاهير : نعم إنه الحق . إن نصفنا يخشى أن يجذع أنفه الجميل ،
والنصف الآخر همه القذى ليفك الرهون وما عليه من ديون .
خلها تفعل ما تريد يا دثوا . إنها لا تعلم كل شئ ، ولكنها
فى هذا الأمر تعرف ما تأخذ منه وما تدع . إن القتال اليوم
غيره بالأمس ، وقد يكون أقل الناس به علماً أكثرهم
فيه إحساناً .

دنوا : أنا أعلم كل هذا ، ولست أقاتل على الأسلوب القديم .
لقد تعلمتُ من درسى فى أجنكور Agincourt وفى پواتيه
Poitiers وفى كريسى Crecy . فكل حركة آتيا أقدر لها عدد
الأنفس التى تضيع فيها ، فإن كان الثمن عدلاً لها دفعته فيها . أما
چان فلا تقدر لحركاتها أبداً ، وإنما تسير قدماً وتعتمد على الله
كأن الله شئ فى جيبها ، فهو لا يستطيع الخروج على أمرها .
وإلى الآن كان العدد العديد إلى جانبها فربحت القتال . ولكنى
أعرف چان ، وأتوقع أنها ستسير يوماً إلى القتال فى عشرة رجال
لتقوم بما يقوم به المائة ، وعندها ستعلم أن الله قد فارقه إلى حيث
توجد الفرق الكبيرة ، والأعداد الكثيرة ، وعندها تقع فى
الأسر ، يأسرها رجلٌ مُبَخَّطٌ محظوظ يتقاضى على فعلته ستة عشر
ألفاً من الجنيهات يدفعها إياه الإرل ورك Warick .

چان : [يداخلها العجب والسرور] ستة عشر ألفاً ! أعرضوا
كل هذه الآلاف لأسرى ؟ أفى الدنيا كل هذا المال ؟

دنوا : نعم ، فى إنجلترا . والآن حدثونى جميعاً : من منكم
يرفع عند ذاك إصبعاً لخلاص چان من الإنجليز إذا هم أسروها ؟
وقبل أن تجيبوا دعونى أجيكم نبأً عن الجيش . فى اليوم الذى
فيه يمسك بها ويشدها عن جواردها انجليزى أو برجندى ثم

لا يُصَقِّصُ صَمَقًا ، في اليوم الذي تُلْقَى فيه في غيابة الحبِّ فلا يبعث لها بطرس الرسول مَلَكًا يفتح لها أبوابه ويطير من أليجه وقضبانهِ بِمَسَّةٍ من يده ، في اليوم الذي يتبين فيه للعدو أنها كئيلي تمامًا تُغلب وتقهَر ، في هذا اليوم لن تساوى حياتها لدى الجيش حياة جندي واحد ، ولن أخطر لخلاصها بحياة هذا الجندي الواحد ، برغم ما بي من ضنٍّ بصحبته وإعزازِ زَمَالاتها في القتال .

جان : إني لا ألومك على ما تقول يا جاك ، فأنت إنما تقول الحق . نعم لن تمدل حياتي حياة جندي واحد إذا خذلني الله . ولكن عندها قد تراني بلادي جديرةً بالفداء بعد الذي صنعه الله لها على يدي .

شارل : اعلمي أنه لا مال عندي ، فهذا التويج الذي جَنَيْتِ به علىّ قد بذلتُ فيه آخر درهم أمكنتي اقتراضه .

جان : إن الكنيسة أغنى منك ، فعلى الكنيسة اعتمادى .
المطران : أيتها المرأة : إنهم عندها يسحبونك في الطرقات ثم يحرقونك حرق الساحرات .

جان : [تجري إليه] أى مولاي ، لا تقل هذا . إن هذا محال . أنا ساحرة ؟

المطران : إن بطرس كوشون قديرٌ في صناعته ، جديرٌ

بوظيفته . لقد قالت امرأة إنكِ أحسنت فيما أتيتِ ، وإنكِ
أطعتِ مشيئةَ الله في الذي فعلتِ ، فأحرقتها جامعةُ باريس بما قالت .
جان : [مرتبكة متحيرة] ولكن لمَ هذا ؟ وكيف يُعقل هذا ؟
إنَّ ما فعلتُ كان بمشيئةِ الله ، فكيف يحرقون امرأة تقول الحق ؟
المطران : إنهم أحرقوها .

جان : ولكنك تعلم أنها قالت حقا ، فأنت لن تدعهم يحرقوني .
المطران : كيف السبيل إلى منهم ؟

جان : تتكلمُ باسم الكنيسة ، فأنت عينُ جليل من أعيانها .
فإنَّ أنتِ حميتني وباركتني فلن ينالني في الدنيا أذى أينما ذهبت .
المطران : لا أبارك لكِ وأنتِ على عُجبك وعصيانك .

جان : أواه ! لماذا تظللِ تولني بهذا القول . أنا لستُ
مُعجبةً بنفسى ، ولست عاصية . أنا بنت فقيرة جاهلة ، لا أعرف
الألف من الباء ، فكيف أكون بنفسى مُعجبة . وكيف تقول
إنى عاصية ، وأنا دائما أطيع ما أسمع من أصواتي لأنها تجي من الله .
المطران : إن صوت الله في الأرض هو صوت الكنيسة ،
أما ما تسمعين من أصوات فهي أصداؤه لفكرك وعنادك .
جان : هذا غير صحيح .

المطران : [بحمر غضبا] تقولين لمطران كِتْدَرائية إنه يكذب

ثم تقولين بعد ذلك إنك غير مُعجبة ولا عاصية .

جان : أنا لم أقل أبداً إنك كذبت ، بل أنت الذى قلت ما يكاد يكون معناه أن أصواتى كَذَبَتْ . فتى كَذَبَتْ أصواتى ؟ وإن أنت لم تؤمن بها ، وحتى إن هى لم تكن إلا أصداء لفكرى البسيط ومنطقى الساذج ، فهل هى أخطأت يوماً ؟ ونصائحكم ، ومآثها من الأرض ، هل هى أصابت يوماً ؟

المطران : [فى غضب] مضیعة للوقت إنذارك وتحذيرك ! شارل : إنها تدور ، ثم تعود دائماً إلى الشيء الواحد : أنها دائماً مصيبة وغيرها نخطئ .

المطران : أنصتِ إلى هذا ، فهو آخر التذُّر . إنك إن حقَّ عليكِ الهلاك لا تتمسككِ بآراء نفسك دون آراء أوليائك الروحانيين ، فسوف تتبرأ منك الكنيسة ، وسوف تدعك لما يجره عليك كبرياؤك وادعاؤك من بلاء . وقد قال لك ابن الفاعلة إنك إن أُلحِيتَ فاستمسكتِ فى القتال بآراء يُملِها عليك الغرور دون آراء نصحاءك ورؤسائك فى الجيش ...

دنوا : [يتدخل] بل دعنى أعبر أنا عن مرادى بالدقة . إنك يا جان إن حاولتِ فكَّ الحصار عن حامية كمين Compiègne . . .
بعدد من الرجال دون العدد الأوفر الذى كان معك فى أرلين ...

المطران : إذن لتبرأ منك الجيش ولقعد عن خلاصك .
وقد قال لك جلالة الملك أن ليس لديه المال لفدائك .
شارل : ولا قرش واحد .

المطران : فأنت الآن وحدك ، فلا نصير ولا معين . أنت
في الدنيا في وحدةٍ مُوحشة ، أوحذك ارتكانك إلى غرورك ،
وإلى جهلك ، وإلى غطرستك وعنادك ، وأنت ستزت كل هذه
الخطايا باستار التقوى في الله فزدت بذلك بعداً عن تقوى الله .
إنك ستخرجين الآن من هذه الأبواب إلى ضوء الشمس ،
وعندها تتلقاك الجماهير الحاشدة بالهتافات الصارخة . وسيأتونك
بالمرضى منهم والأطفال لتشفهم ولتباركيهم . وسيقبل السذج
المساكين يديك ورجليك ، ويفعلون كل ما يطيقون ليزيدوا
رأسك اختلالاً ، ويملاؤوا نفسك ثقةً هي جائحةٌ بك لا محالة .
فتذكرى ، وأنت في وسط هذه الجماهير ، أنت وحيدةٌ
كوحدةك هنا . فهذا الجحيمُ الغمرُ من الناس لا يستطيع لك
الخلاص . نحن ، لا غيرنا ، نستطيع لك الخلاص . نحن لا غيرنا ،
نقدر أن نحول بينك وبين هذا الجذع الذي أقامه أحادوك
لامرأة باريس المسكينة ، وإليه شدوها ، ثم أحرقوها .

جان : [ترفع بصرها مشيرةً إلى السماء] إلى هنالك أصدقاء ، وإلى
هنالك أولياء نصحاء خيرٌ منكم يا هؤلاء .
المطران : عينا أتحدث إلى قلب مُغلق وأذن صمّاء . إنك
ترفضين حمايتنا ، وتعملين جاهدةً على كسب خصومتنا ، فمن
الآن فادفعى أنت بنفسك عن نفسك ، فإن أخفقتِ فعليك
رحمة الله .

دنوا : إن الحق ما قيل يا جان فاتبعيه .

جان : لو أتى اتبعت مثل هذا الحق بالأمس ، فإلى أى حال
كنتم تصيرون . إنكم لا عونَ فيكم ولا نصيحة . نعم أنا في هذه
الدنيا وحيدةٌ . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركتُ أبى لاسيف .
بلادى ، فطلب إلى إخوتي أن يُفارقوني في البحر إذا لم أطمعه
فأرعى غنمه ، بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما
ضرَّه أن تجرى دماها ، إذا عاشت خرافه ناعمةً في هتوك حماها .
وحسبتُ أنى أرى نُصرَاءَ خلاء لبلادى في بلاط مَلِكها ،
فلم أجد إلا ذئاباً يتنازعون على قِطْع من أشلاء وطنٍ ممزَّق .
وحسبت أن لله أحباباً في كل مكان ، لأن الله يحبُّ لكل إنسان .
واعتقدت في سذاجتى أنى سأجد فيكم قلاعاً رواسخ تدفع الأذى
عنى ، فإذا بى أجدكم تحلمونى خلع النعال البالية . ولكنى الآن

فقد تكشفت لي حقيقتكم فمرقها عيانا ، ورأيت الحق في أمركم
عُرِيَانَا ، ولن يكسب أحد من معرفة الحق خسرانا . وتهددوني
بوحدي ، وما بي والله ذعرٌ منها . إن فرنسا وحيدة . وإن ربِّي
لوحيد . فما وحدتي إلى جانب وحدة قومي ووحدة الله ربِّي . لقد
تعلمتُ الآن أن وحدة الله هي سرُّ قوّته . ألا ما كان حال الله
لو أنه أصنى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة
غيورة . قوة الله في وحدته ، وكذلك قوتي مستكون في وحدتي
بجوار الله ، فلن تخونني صداقته ، ولن تُعوزني محبته ، ولن تخذلني
نصيحته . وسأستمدّ مددًا من مدّده ، فأقتحم المهالك ، وأركب
الأخطار حتى أموت . والآن أخرجُ إلى الشعب ، إلى عامة
الناس ودعماهم ، فلعل الحب الذي أجده في عيونهم يفرّج عني
كربة البغضاء التي أجدها في عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً
لحرقى ، ولكني إن سرتُ إلى النار ، فإنما أسير عبّرها إلى الخلود
في قلوب الناس ، ففي هذه القلوب سأحيي أبد الآباد . والآن
تداركني بلطفك يا رحمن .

[تخرج عنهم ، فيمعنون النظر وراءها برهة في سكون كثيب ، ثم يأخذ
ذو اللحية الزرقاء في قتل لحيته] .

ذو اللحية الزرقاء : إن المرأة لا تطاق . أنا في الواقع

لا أبفضها ، ولكن ما الحيلة في هذا الطبع الغريب ؟
دعوا : أشهدُ الله لو أنها سقطت في اللّوار لقفزت وراءها
في كامل سلاحى أنقذها من الماء ، ولكنها إن فعلت في
كُمين قفلة المجانين ، فأخذها العدو ، فإني لتاركها للأقدار تفعل
بها ما تشاء .

لاهير : إذن فقيدوني إن أردتم أن تنمونى ، فإني أحسن أنى
تابعها ، ولو إلى جهنم ، كلما سمعتها تتحدث بهذه القوة وهذه
الحرارة .

المطران : إنها كذلك تعكّر على بصيرتى وتزعزع حكى .
إنها تنفجر انفجارات قوية تحمل الخطر في قوتها . إن الحفرة
فاغرة فاعا عند قدمها ، وستردى فيها ، ولن نستطيع منها .
ولسنا ندري الخير هذا أم لشر يكون ؟

شارل : لو أنها حبست لسانها أو قَبَعَت في يبتها !

[يخرجون وراءها مغمومين كئيبين]

المنظر السادس

[في مدينة رُوان Rouen ، في الثلاثين من مايو عام ١٩٣١ . ردهة كبرى من الحجر في القلعة ، وقد رُتبتُ لها حكمة في محكمة بنير مُحلفين ، فالمحكمة محكمة الأسقف يشترك فيها ديوان التحقيق Inquisition : لهذا وُضِع في المكان كرسيان وُزعا على منصة جنباً إلى جنب ، أحدهما للأسقف والآخر للمحقق مندوب الديوان ، وهما القاضيان في هذه المحكمة . ووُضع على جانبيهما طائفتان من الكراسي ، صُفّت على خطوط تشعّ من مركز القاضيين بحيث تصنع يمين الطائفتين مع يسراها زاوية منفرجة . فهذه الكراسي للقساوسة ودكاترة القانون واللاهوت والرهبان الدومينيكيين Dominican Monks ، وهؤلاء جميعاً خبراء ينصحون المحكمة كل في اختصاصه . وفي قلب الزاوية المنفرجة منضدة للكتاب ومقاعد لهم غير ذات ظهور . وكذلك كرسي غير ذي ظهر مصنوع من خشب خشن المظهر ثقيل ، فهذا للتهمة . وكل هذا في الطرف الداخلي من الردهة . أما الطرف الخارجي منها فينتح على حن القلعة بصف من حنّيات . والمحكمة محفولة من تلبات الجوّ مُحجّب وستائر] .

[والناظر إلى الردهة من أوسط طرفها الداخلي يجد كراسي القضاء والكتاب إلى يمينه ، وكرسي التهمة إلى يساره . ويجد إلى يمينه ويساره أبواباً معطوفة الأعلى] .

[هذا عن السكان . أما عن الزمان فالوقت صباحٌ ضاحٍ من
أصبح مايو] .
[يدخل ورك Warwick ، يتبعه وصيفه ، من الباب المعطوفِ أعلاه
بجوار منصة القضاء] .

الوصيف : [في قِعة] أظنك يا صاحب السعادة تدرك أنه
لا وجه لنا في البقاء هنا ، فهذه المحكمة محكمة إكليرية ، أما
نحن ففوة التنفيذ المدنية .

وَرِك : أنا مدرك ذلك ، فهل تفضل يا صاحب الوقاحة
فتبحث لى عن أسقف بوثيه ، وتُفهمه بالتلميح أنه إن شاء استطاع
أن يتحدث إلى هنا قبل أن تبدأ المحاكمة .

الوصيف : [وهو ذاهب] نعم يا مولاي اللورد .
وَرِك : وانظر ما أنت صانع ، فلا تناده بصاحب القداسة
ولا رب الثقي .

الوصيف : لا يا مولاي اللورد . ولكنى سأتلطف به وأرعاه ،
فرب الثقي والقداسة سيأكل كل ملء فيه من الفلفل الحراق عندما
تدخل الفتاة إلى المحكمة .

[يدخل كوشون من نفس الباب الذى دخل منه ورك ، ومعه
راهب دومينيكي ، وكاهن يحمل أوراق القضية] .

الوصيف : صاحب النيافة الأكبر مولاي أسقف بوفيه ،
واثنان آخران من أصحاب النيافة .

وَرَك : اخرج واخفر الباب فلن يدخل علينا أحد فيقطع
علينا ما نحن فيه .

الوصيف : نعم يا مولاي [يخرج خفيفاً مرحاً] .

كوشون : نَعِمْتَ صباحاً يا مولاي .

وَرَك : ونعمت صباحاً يا مولاي . هل سبق أنى حَطَّيْتُ
ببقاء إخوانك من قبل ؟ لا أظن ذلك .

كوشون : [يعرفه بالراهب ، وهو على يمينه] هذا يا مولاي
الأخ جون لامِتر John Lamâtre ، من الدومينيكيين ، وهو
ينوب عن المحقق الأعظم في أمور البدع وشرورها بفرنسا . وهذا
هو إرل وَرَك يا أخى جون .

ورك : نياقتكم على الرحب والسمة . فى انجلترا بلادنا
لا يوجد عندنا مع الأسف محقق كما يوجد لديكم ، وكثيراً ما نفتقده ،
لا سيما فى ملابسات كهذه .

[يبتسم المحقق فى بطء وهدوء وينحنى احتراماً . وهو رجل مسنّ ،
ولكن به بقية ظاهرة من السلطة والصلابة] .

كوشون : [يُعرف بالراهب وهو على يساره] وهذا السيد هو

الكاهن جون دستيفيه Canon John D'estivet ، عضوٌ بمجلس
أسقفية بايُو Bayeux ، وهو قائمٌ فينا بعمل المدعى .

ورك : المدعى ؟

كوشون : نعم . هو النائب على ما تسمونه في القانون المدني .

ورك : أى نعم . نائب . نائب . لى السرور الكثير بالتعرف
بك يا كاهن دستيفيه .

[دستيفيه ينحنى له . وهو رجل يتجه بسنّه إلى ذروة الكهولة ،
لطيف الأدب ، ولكن من تحت ديباجته الناعمة مكر الثعالب] .

ورك : هل لى أن أتساءل إلى أى حدّ بلغت الإجراءات ؟
إنه قد مضى الآن تسعة أشهر منذ أسّر البرجنديون الفتاة فى
كُمين ، ومضى أربعة أشهر كاملة منذ ابتعثها منهم بمبلغ جمّ
من المال ، لا لغرض سوى أن يقضى فيها المدلّ ما يقضى .
ومضى ما يقرب من ثلاثة أشهر من يوم أن أصلتها إليك ياسيدى
الأسقف إسلام امرأة متّهمة بالزندقة . فهل لى أن أعرض عليكم
فكرة لى خاطرة : إنكم تقضون زمناً طويلاً غير معقول فى
تلمس الحكم فى قضية يسيرة واضحة ؟ أمّا لهذه المحاكمة من آخر ؟
قاضى التحقيق : [مبتسماً] إنها لم تبدأ بعد أيها اللورد .

ورك : لم تبدأ بعد ! كيف ، وأتم تعملون فيها من أحد عشر أسبوعاً ؟

كوشون : لقد واصلنا العمل فيها أيها اللورد فمعدنا للتحقيق مع الفتاة خمس عشرة جلسة : ستاً منها علنية ، وتسعاً سرية .

قاضي التحقيق : [وهو مُصابِرٌ مبتسم دائماً] اعلم يا مولاي أني لم أحضر غير جلستين من هذه الجلسات . فهي جلسات كانت من إجراءات محكمة الأسقف لا ديوان التحقيق . وقد قضيتُ قريباً فقط بضرورة تدخلي فيها ، أي تدخل ديوان التحقيق فيها جنباً إلى جنب مع محكمة الأسقف . ذلك أني في بادئ الأمر لم أكن أحسب أن القضية قضية زندقة أبداً ، بل عدتها قضية سياسية ، واعتبرتُ الفتاة أسيرة حرب . ولكن بعد حضوري جلستين من جلسات التحقيق لم يعد بدُّ من اعترافي بأنها قضية من أخطر قضايا الزندقة التي عرفتُها في حياتي . والسبيل الآن ممهدة كل التمهيد ، وسنبداً بالمحاكمة هذا الصباح [يسير آخذاً ستمته نحو منصة القضاء] .

كوشون : نعم في هذه اللحظة إذا لم يكن لديك مانع أيها اللورد ..

ورك : [في لطف] هذه أخبار طيبة ياسيداي . ولكنني لن
أحاول أن أخفي عنكم أن قوس الصبر لدينا كادي ينقطع .

كوشون : لقد عرفتُ هذا عندما سمعتُ جنودكم يتهذدون
بالإغراق كلٍّ من يمطف على الفتاة من أهل بلادنا .

ورك : يا للخبر ! أيهذا القدر يتهذدونهم ! وعلى كل حال
فهم لا يضررون لك أنت إلا الودّ يامولاي .

كوشون : [في شدة] أرجو أن لا يضرروا لي ودًا ، فإني
عازم أن أقضى بالعدل في أمر هذه الفتاة . إن عدل الكنيسة
لا سخرية فيه يامولاي .

المحقق : [وهو يبعد] لا أذكر يامولاي أن تحقيقاً أعدل من
هذا وقع في حياتي . إن الفتاة في غناء عن محامين يدافعون عنها ،
فالذين يحاكمونها أخلص الناس صداقةً لها ، وهم جميعاً يرجون
أحرّ الرجاء أن تنجو بروحها من هلاك مقيم .

دستيقه : سيدى ، إني أنا المدعى ، فكان من واجباتي
الآلئية أن أقوم بمرض الدعوى ضد الفتاة ، ولكن صدقنى لقد
والله ودّدتُ أن ألقي بالتهمة جانباً وأهرع إلى جانب الفتاة أدفع
عنها وأحميها ، لولا علمي أن رجالاً أكثر منى علماً وأرفع درجات
في الثّقى والفصاحة والإغراء قد ذهبوا إليها يحاجّونها ، ويجادلونها ،

ويعصرونها بالخطر الذى هى مقبلة عليه ، وبالطريق السهلة التى تسلكها لاجتنابها [ينفجر بفتة فى فصاحة خطابية يستاء منها كوشون والمحقق أشد استياء ، وكأننا قد بقيا إلى عندئذ يُنصتان إلى ما يقول فى موافقة رضىة ورعاية أبوية] . لقد تجرأ قوم فقالوا إننا نُصدر فيما نعمل عن كراهة وبُغض . ولكن الله شهيد إنهم لكاذبون . فليسأئلو أنفسهم : أعذبناها ؟ كلا . وليسأئلو أنفسهم : هل انقطعنا أبداً عن أن تترجأها وتمطِّفها وتوسِّلَ إليها أن تأخذها الرحمة بنفسها فتعودَ إلى كَنَفِ الكنيسة عودة فتاة ضالَّة إلى كنف أم تحبها ؟ هل نحن ...

كوشون : [يقاطعه فى جفاء] تبصّر أيها الكاهن فى الذى تقول . إن ما تقول حق كله ، ولكنك إن أنت نجحت فأقنعت اللورد به ، فلستُ بضامن لك الحياة ، ولا لنفسى .

ورك : [يخالف كوشون فيما يخشى ، ولكنه أبعد ما يكون عن إنكاره] مهلا ، مهلا ، يامولاي . إنكم قساة جدا علينا نحن الإنجليز المساكين . ومع هذا فلا شك أننا لا نشارككم رغبتكم فى تخليص الفتاة ، وهى رغبة لا شك مصدرها الورع والتقوى . بل أزيد فأقول لك قولاً واضحاً قاطعاً إن موتها ضرورةٌ سياسية

آسَفُ لها ، ولكنى لا أجد مندوحة عنها . فإذا أَطَلَقَتِ الكنيسةُ سراحها ..

كوشون : [يخرج عن طوقه فيتهدّد في شراسة وزهو] إذا أَطَلَقَتِ الكنيسةُ سراحها ، فالويل كل الويل لمن يضع عليها إصبعاً ، ولو كان الإمبراطورُ نفسه ربّ هذا الإصبع . إن الكنيسةَ أيها اللورد لا تخضع للضرورات السياسية .

المحقق : [يتدخل بينهما في نومة] لا يَقلقُ بالكَ على النتيجة . أيها اللورد ، فإن لك في هذا الأمر حليفاً لا يُغلب ، يُصرّ على أن تحرّق الفتاة أشدّ من إصرارك .

ورك : هذا حليف نحن في شديد الحاجة إليه ، فن يكون ؟ المحقق : الفتاة نفسها ، فإنك إن لم تَسُدَّ فيها بقطنة ، فستفتحها ، وكلّ مرّة تفتحها تُثبت التهمة على نفسها عشرات المرات .

دستيفيه : هذا حق أيها اللورد . إن شرعى يستقيم على رأسى كلما سمعتُ فتاةً في هذا السن تنطق بكل هذا الكفر .

ورك : على كل حال قوموا لها بكل ما تستطيعون من معونة مادمتم توتقون أنها غير نافعة [يحدّد النظر في كوشون] إني ليعرفنى . الأسف إذا أنا اضطرّرت إلى العمل بغير رضا الكنيسة .

كوشون : [يخلط ، في تهكم ، بين إعجاب باللورد واحتقاره]
أفبعد هذا يقولون إن الإنجليز منافقون ؟ إنك أيها اللورد تعمل
لحزبك حتى بما فيه هلاك نفسك . فأنا أمام هذا الإخلاص
لا أمتلك إلا الإعجاب . ولو أنى أنا لا أستطيع أن أذهب بنفسى
إلى الحد الذى ذهبت إليه ، فإنى أخاف عليها اللعنة .

ورك : إننا إن خفنا شيئاً لم نستطع أن نحكم انجلترا يا مولاي .
والآن هل آذن لأهل بلدك أن يدخلوا إليك .

كوشون : نعم . تحسن صنعا أن تخرج لتستطيع المحكمة
أن تنقذ .

[يدور ورك على عقبه ويخرج عن طريق الصحن ، ويأخذ كوشون
مجلسه على أحد كرسيّ القضاء ، ويجلس دستيشه إلى منضدة الكتاب
يفحص ملخص الدعوى] .

كوشون : [يقول عفواً وهو يتطامن فى مجلسه] هؤلاء الأشراف
من الإنجليز أوغاد أى أوغاد .

المحقق : [وهو يأخذ مجلسه على كرسيّ القضاء الثانى ، إلى يسار
كوشون] إن السلطة الزمنية تجمل من الرجال أوغاداً . فهم غير
متدربين على واجباتهم ، وهم لم ينحدروا عن الحواريين فليس فيهم
تراثهم ، وأشرافنا لا يقلّون عن أشرافهم سوءاً .

[يسرع خبراء الأسقف بالدخول إلى الزدعة ، وعلى رأسهم القس دى استوجمبر De Stogumber ، والراهب دى كورسل ، وهو قسيس شاب فى الثلاثين من عمره . ويجلس الكتّاب إلى المنضدة ، ويتركون كرسيا خاليا فى قبالة دستيفيه D'Estivet . ويجلس بعض الخبراء ، ويظل بعضهم واقفين يتحدثون ينتظرون افتتاح الجلسة افتتاحا رسميا . ويظهر الغضب والعناد على القس دى استوجمبر ، فهو من أجل هذا لا يأخذ مجلسه . وكذلك الراهب لا يريد أن يجلس فيقف إلى يمينه] .

كوشون : صباح الخير ياسيد دى استوجمبر [يتخاطب المحقق]
هذا قسيس كردنال انجلترا .

القس : [يصحح ما قيل] كردنال ونشستر يامولاي . إن
لدى احتجاجاً أريد أن أتقدم به يامولاي .

كوشون : لقد تقدمت بالكثير من أمثاله .

القس : أنا فى احتجاجى لى زميل يامولاي . هذا السيد
دى كورسل يشركنى فى احتجاجى .

كوشون : على كل حال ماذا عندك ؟

القس : [معبساً] تكلم أنت ياسيد دى كورسل ، إذ يلوح
لى أن نيافته لا يطمئن إلى قولى [يجلس فى حلق إلى يمين كوشون] .

كورسل : مولاي ، لقد جهدنا جهداً كبيراً فاستخلصنا

أربعا وستين خطيئة يدور عليها اتهام الفتاة . والآن علمنا أنها خفّضت من دون استشارتنا .

المحقق : يا سيد كورسل ، أنا الذي خفّضتها . وإني لمعجب أشدّ الإعجاب بغيرتك التي أظهرتها في استخلاصك لهذه الخطايا الأربع والستين . ولكن في اتهام الزنادقة ، كما في أى أمر من أمور الحياة الأخرى ، يوجد حدّ للكفاية من كل شيء . وعدا هذا فعليك أن تذكر أن أعضاء المحكمة ليس لهم جميعا مثل ذكائك ودهائك وتبحرك ، وأن بعض ما تُظهر أنت من علم عظيم جدا قد يترأى لهم سخافة عظيمة جدا . فن أجل هذا رأيت أن أخفّض التّهم الأربع والستين إلى اثنتى عشرة .

كورسل : [يُصق] اثنتى عشرة !!!

المحقق : صدّقنى إن فى الاثنتى عشرة كفاية لما تريد .

القس : ولكن بعض التّهم الخطيرة قد اختُصرت حتى انعدمت أو كادت . مثال هذا أن الفتاة اعترفت فعلاً بأن القديستين المباركتين مرغريت وكترينة ، وكذلك الملك الأعظم ميكائيل ، كلّموها بالفرنسية . وهذا اعتراف له خطورته .

المحقق : لا شك أنك تحسب أن خطابهم إياها كان لا بد أن يكون باللاتينية ؟

كوشون : لا ، بل هو يرى أنه يجب أن يكون بالإنجليزية .
القس : بالطبع يا مولاي .

المحقق : ولكن بما أننا جميعاً على ما أظن متفقون على أن الأصوات التي تسمعها الفتاة ليست سوى أصوات لشياطين يُغرونها باللعنة ، فلن يكون من التأديب في حقك ، أو حق ملك الإنجليز ، أن نزع أن الإنجليزية لغة الشياطين . وعلى هذا فاصرف النظر عما قلت . وعلى كل حال فالسألة لم تُحذف كل الحذف من التَّهَمِ الاثنتي عشرة . والآن يا سادة اجلسوا جميعاً لنفتتح الأعمال .

[يجلس كل من لم يكن جلس] .

القس : على كل حال أنا أحتج وكفى .

كورسل : إنه لَيَصْغُب علينا أن يذهب جهداً هباءً . إن هذا مثل جديد لما لهذه الفتاة على المحكمة من مؤثرات شيطانية [يجلس على كرسيه ، وهو على يمين القس] .

كوشون : أتزعم أني واقع تحت مؤثرات شيطانية ؟

كورسل : أنا لا أزعم شيئاً يا مولاي ، ولكن يظهر لي أن مؤامرة دُبِّرَت لكتمان واقعة لا بد من إفشائها ، هي أن الفتاة سرقت حصان أسقف سنليس Senlis .

كوشون : [يجاهد في كظم غيظه] ليست هذه محكمة للشرطة .
وبعد ، أفى مثل هذه السخافات تُنفَق أوقاتنا ؟
كورسل : [ينهض وقد هزّه ماسمِع] مولاي ، أسمى حصان
الأسقف سخافة ؟

المحقق : [فى لطف] ياسيد كورسل ، إن الفتاة تزعم أنها
دفعت فى هذا الحصان ثمنًا طيبًا ، وأن هذا الثمن إذا لم يكن وصل
إلى الأسقف ، فالذنب ليس ذنبها . وبما أن هذا الزعم قد يكون
حقا فى هذه التهمة ، فقد يجوز جدا تبرئة الفتاة منها .

كورسل : هذا حق إذا كان الحصان حصانا عاديا كـبعض
الأحصنة . ولكن حصان الأسقف كيف يمكن تبرئتها فيه ؟
[يعود فيجلس ، وقد أذهله العَجَب وقتّ فيه اليأس] .

المحقق : أقول لك ، فى احترام شديد ، إننا إذا تشبَّنا بمحاكمة
الفتاة فى ذنوب توافه ، ثم اضطررنا إلى تبرئتها منها ، فتحنا لها
الباب إلى الإفلات من جريمة الزندقة الكبرى ، وهى على ما أرى
لا تزال تُقرّ باجترامها . فـإن أجل هذا أسألك ، إذا أخضرت الفتاة
أماننا ، أن لا تذكر شيئا عن أحصنة سرقتها ، أو رقصة حول
شجرة اللجنّ مع أطفال القرية رقصتها ، أو صلاحٍ على بئر
مسكونة صلّتها ، أو أن تذكر شيئا من تلك الأشياء العُشرات

التافهات التي بذلت فيها هذا المجهود الكبير في استنباطها قبل
حضورى . إن فرنسا كلها ليس فيها قرية لا تستطيع أن تُتهم
بناتها بمثل هذه التهم ، فكلهن يرقصن حول أشجار مسكونة ،
وكلهن يصلين عند آبار مسحورة ، ومنهن من لا تخرج من
سرة حصان البابا لو وجدت إليه سبيلا . فالزندقة الزندقة ياسادى .
هى التهمة التي نحاكم من أجلها . إن اكتشاف الزندقة والتطهير
منها عملٌ تخصصت له وتوقرت عليه ، وأنا بينكم أمثل ديوان
التحقيق ، فلست قاضيا عاديا . فتمسكوا بتهمة الزندقة يا سادة
وانصرفوا عما عداها .

كوشون : أود أن أذكر أننا بعثنا إلى قرية الفتاة نستخبر
عنها ، وأنا لم نجد شيئا خطيرا نكاد نأخذه عليها .

القس { [ينضاف { لم تجد شيئا خطيرا يا مولاي !
وكورسل { ويصرخان معا [فالشجرة المسحورة ليست ...

كوشون : [يخرج عن صبره] السكوت ، السكوت ! وإن
تكلمتما فواحدًا بعد واحد .

[يسقط كورسل فى كرسيه مرتاعا] .

القس : [يجلس وهو عابس غضبان] هذا ما قالت له لنا الفتاة يوم الجمعة الفائت .

كوشون : وَدِدْتُ يَا سِيدِي لو عملت ما بنصحتها . إنى عندما قلت أمراً خطيراً قصدت أمراً يبلغ حد الخطورة عند قوم راجح القول يقال الأحلام كالذين هم أهل للقيام بأمر مثل هذه المحاكمة التى نحن فيها . إنى أوافق زميلى المحقق على أن المحاكمة يجب أن تجرى على تهمة الزندقة وحدها .

لدفينو Ladvenu : [وهو شاب من الدومينيكيين مدّ التنسك فى قوامه فكان جيلاً . وكان جالساً بجانب كورسل إلى يمينه] . ولكن حدثونى ، أفى زندقة الفتاة ضرر كبير ؟ أليست زندقتها محض سذاجة منها ؟ إن القديسين قالوا قَدَر ما قالت جان .

المحقق : [تذهب رفته ويتكلم فى جدّ ظاهر] أخى مراتاف Martin ، لو أنك رأيت من الزندقة ما رأيته ، إذن لما استخففت بها ولو صدرت عن أصول هى أبعد ما تكون عن مظاهر السوء والريبة ، حتى ولو صدرت عن أصول حييبة من التقوى والصلاح . إن الزندقة تظهر أوّل ما تظهر فى أناس يتراوون فى كل مظهر من مظاهرم خيراً من جيرانهم : فى فتاة رقيقة ساحلة ، أو فى فتى أطاع الله فيما أوصاه ، نخرج للفقراء عن كل

ماله ، ولبس رداء الفقر ، وعاش عيشة الزهد ، وأذلَّ من نفسه ،
وسخا بما في يده . فهذه الفتاة أو الفتى قد يُحدَّثا بدعة ، إذا هي
لم تُدْمَغْ بلا رحمة في حينها هنّرت أركان الكنيسة هنّراً ،
وقوّضت قواعد الإمبراطورية تقويضاً . إن سجلات ديوان
التحقيق مليئةٌ بِقِصَص لا نجرؤ أن نحكيها للعالم ، لأنها فوق
تصديق كل رجل طيب وكل امرأة طاهرة . ومع هذا
فهذه القصص تبدأ أول ما تبدأ كلها يقوم بلهاء ، فيهم طيبةٌ
وعليهم قداسة . لقد شاهدتُ هذا يقع المرة بعد المرة . أنصتوا
لما أقول واذكروه . إن المرأة التي لا ترضى عن لباس المرأة
فتلبس لباس الرجل مثل الرجل الذي يخلع رداء الفرو ليلبس
كما كان يلبس حنا المعدادان . كلاهما يجرّان وراءهما حتماً — كما يجرّ
النهارُ الليل — جماعات من ناثرين وناثرات يرفضون أن يلبسوا
لباساً أصلاً . إن الفتيات إذا هنّ أُبين الزواج ورفضن أخذ
المهود المعروفة ، والفتيان إذا هم رفضوا الزواج وعمدوا إلى
شهواتهم فرفضوها فصيّروها إلهامات ربّانية ، فقد بدأوا عهداً
يتبعه لامحالة — كما يتبع الصيفُ الربيع — عهدٌ تتمدد فيه الأزواج
والزوجات ، يتلوه عهدٌ تُستحلُّ فيه مضاجعة المحارم . إن الزندقة
تترأى في أولها بريئة ، أو فوق ذلك محمودة ، ولكنها تجرّ في

أعقابها أهوالاً فظيمة من خبائث تعجها الطبيعة . فلو أنكم رأيتم الزندقة كما رأيتموها تفعل في الناس أفاعيلها لقام أرحمكم قلباً يُنحى باللائمة على الكنيسة أنها تأخذ الزنادقة بمثل هذه الرحمة التي تأخذهم بها . إن ديوان التحقيق قضى قرنين يناهض صنوفاً من هذا الجنون الشيطاني . وقد تبين له أن هذا الجنون يبدو دائماً قوم جهلاء مغرورون ، يمارضون بأرائهم آراء الكنيسة ، وينتحلون لأنفسهم تفسير مشيئة الله . على أني أحذركم أن تقعوا في الخطأ الذي يقع فيه الناس كثيراً ، فتحسبوا أن هؤلاء البلهاء كذابون منافقون . فهم يعتقدون صدقاً وإخلاصاً أن وحي شياطينهم وحي من الله . لذلك أسألكم أن تحذروا أن يغلب عليكم ما أودعه الله في قلوبكم من رحمة . نحن جميعاً قومٌ رُحماء ، أو هكذا أرجو أن نكون ، وإلا فكيف تأتينا لكم أن تخصصوا حياتكم لخدمة عيسى الحنون ؟ أيها السادة ، بعد هنية تقع عيونكم على بُنية صغيرة تقيّة عفيفة . نعم هي كذلك ، فالأشياء التي يتحدث بها أصدقاؤنا الإنجليز لا يدعّمها دليل ، بينما الأدلة كثيرة على أن غلوها الذي غلت فيه كان غلواً في الدين والمكرّمات لا في الدنيا والديتات . وهي ليست من الفتيات التي تدل خشونة تقاطيعهن على جهود قلوبهن . وليست من اللاتي تقضي عليهن

الصفافة الظاهرة في وجوههم والِقحة البادية في سلوكهم ،
قبل عما كتمهن . والمُجَب الذي بثَّ الشيطان فيها فانسأت به إلى
الموقف الخطير الذي هي فيه لم يترك أثراً على عيَّاتها . وقد
تستغربون إذا قلت لكم إنه لم يترك أثراً حتى على طباعها ، فيما
سوى الأمور الخاصة التي تُعجَب بنفسها فيها . لذلك ستجدون
فيها مُحبِّباً شيطانياً ، وتواضعاً طبيعياً ، قد جلسا من نفسها مجلساً
سويّاً . فإلى هذا فتنهوا ، ومنه فاحذروا . ومعاذ الله أن أدعوكم
إلى تقسية قلوبكم ، فإن عقابها — إن نحن قضينا عليها — عقابٌ
غاية في القسوة يُفقدنا الأمل في رحمة الله إن نحن قضينا به وفي
قلوبنا ذرّة من ضغن عليها . إنكم تكرهون القسوة ، وإن كان
منكم رجل لا يكرهها فأنا أمره بأن ينجو بنفسه ويفرّ من لعنة
الله بترك هذه المحكمة المقدسة تواً . ولكن إن أنتم كرهتم القسوة
فاعلموا أن أقسى القساوات أعقاباً تسامح في زندقة . واذكروا
كذلك أن أقسى المحاكم على متَّهم محكمة النوغاء من الناس إذا
تجمهروا حول من يظنّونه زنديقاً . أما الزنديق في محكمة
التحقيق ففي مأمن من سخط العامة ، وهو ضامن محاكمة عادلة ،
وإذا قضى باتهامه فهو لا يموت إذا هو تاب وأناب من بعد ذلك .
كم من زنديق نجا بحياته لأن ديوان التحقيق انتشله من أيدي

العامة . وكم من زنديق نجا بحياته لأن الناس أسلوه طواعيةً إلى ديوان التحقيق لينظر في أمره . وقبل إنشاء الديوان ، وحتى في هذه الأيام في المناطق البعيدة عن الديوان ، يشتبه المشتبهون في الرجل فيتهمونه بالزندقة ، وقد يكون اتهاماً ظالماً جاهلاً ، فيُرجَم المسكين بالحجر ، أو يُقَطَّع إِرْبًا ، أو يُقْتَل غَرَقًا ، أو يَحْرَق في داره هو وأولاده حرقاً ، دون محاكمة ، ودون اعتراف يُطَهِّر نفسه ، ثم هو لا يدفن بعد ذلك إلا كما تُدْفَن الكلاب ، وكل هذه أفعال لها من الله كراهةٌ شديدة ، وللإنسان منها قسوة متناهية . أيها السادة ، إلى رحيمٍ بطبي ، رحيمٍ بمنصبي . والعمل الذي يفرضه على منصبي قد يظهر قاسياً عند من لا يدرك أن القساوة الكبرى هي في الواقع في رفض هذا العمل . إلى أفضل الحرق لنفسى على القيام بهذا العمل ، لولا أنى مقتنع بأن العدل يَن فيهِ ، والضرورة مُلِحَّةٌ به ، وأن الرحمة متغلطةٌ في جوهره . فاصدُّروا في هذه القضية إذا ما صدرتم عن مثل هذا الاقتناع . واعلموا أن الغضب بئس الناصحُ فاطرحوه ، وأن الشفقة قد تذهب بكم مذهباً شراً مما يذهب بكم الغضب ، فاطرحوا الشفقة . ولكن لا تطرحوا الرحمة . وغاية الأمر أن تذكروا

أن العدالة لها المكان الأول . والآن أعند أحدكم يا سادتي قولٌ
قبل أن نستفتح المحاكمة ؟

كوشون : لقد نطقتَ بالذى كان فى نفسى ، وعبرت عنه
أحسن من تعبيرى . ولا أعلم أن رجلاً برأسه عقل يستطيع أن
يجادل فى أية كلمة سقطت من فىك . ولكن عندى كلمة أريد
أن أضيفها إلى كلماتك . إن صنوف الزندقة التى ذكرتموها فيها
أخشيذان وقلة تهذب ، وهى مُفْطَعةٌ مُرَوَّعةٌ ، ولكن إِفْطَاعَها
وإِراعتها كإِفْطَاعِ الوباء الأسود وإِراعاته : تشور حيناً ثم تتمد
وتموت ، لأن العقلاء الأصائل لن يُغريهم شئٌ بمضاجعة المحارم ،
ولن يُحبِّبَ شئٌ إليهم تمَدُّدَ الأزواج والزوجات وما شابهها من
سائر الموبقات . ولكن هناك صنفٌ آخر من صنوف الزندقة
يواجه المرء حيثما توجه فى أوروبا . هى بدعة جديدة تنتشر بين
رجالٍ عقولهم ليست بالضعيفة ولا بالمريضة . بل على النقيض
من ذلك ، هى بدعة يزيد العقل استمساكاً بها كلما زاد راحة
وقوة . وهى ليست من البدع التى يُضعفها فى رأى الناس تطرُّفُ
أصحابها فى الخيالات وغلوهم فى الخزعبلات ، فهى خُلُوٌ من هذا
وذاك . وهى ليست من البدع التى يفسدها فى رأى الناس
ما تتضمنه من شهوات اللحم المروفة . ولكنها مع هذا ،

كغيرها من البدع ، تأذن للفرد الخطأ^١ الفانى أن يناهض برأيه
الخاص رأى الكنيسة ، وهو رأى وليد الحكمة ونتاج التجربة
الطويلة . إن كيان الكنيسة الكاثوليكية كيانٌ ضخم ثابت
ركيز ، فهو لن يتزعزع بسبب رجال عُرِي مجانين ، ولا بسبب
خطايا خطايا مؤاب وعَمُون^(١) . ولكنه كيان قد يُوتَى من
داخله ، ويخان من جوفه ، ويُتَقَضَّ ويُقَوَّض حتى يكون خرابا
يَبَا بثل هذه البدعة الكبرى التى يسميها انقائد الإنجليزى
بروتستنتية Protestantism .

الخبراء : [يهامسون] بروتستنتية ! ما هذا ؟ ماذا يعنى
الأسقف بهذه ؟ أهى بدعة جديدة ؟ إنه ذكر القائد الإنجليزى .
أَسَمِعْتُ قَطَّ بالبروتستنتية ؟ ... وهلم جرا .

كوشون : [يستمر فى حديثه] وعلى ذكر القائد الإنجليزى ،
أرجو أن أعرف ماذا أعدَّ الأزل وَرَكَ للدفاع عن السلطة الزمنية
إذا ظهر أن الفتاة شديدة المراس صليبة الرأس ، ثم تحرك الشعب
إلى الرحمة بها .

القس : لا تخش شيئا من هذه الناحية يا مولاي . فالأزل النبيل
له على أبواب المدينة ثمانمائة رجل فى السلاح . فقتاكم لن تُقْلَت
(١) ما ولدالوط . انظر نهاية الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين بالتوراة .

من بين أصابعنا الإنجليزية ولو ناصرها أهل المدينة أجمعين .
كوشون : [وقد تضايق فغضب] ألا يحمل بك ، وقد قلت
ما قلت ، أن تدعو الله أن يمينها على توبتها والتكفير عن خطيئتها .
القس : يُخَيَّلُ إِلَى أَنَّى إِذَا دَعَوْتُ جَمْعُ بَيْنِ النَقِيزِينَ .
ولكن برغم هذا فأنا أوافق سيادتكم على ماتقولون .
كوشون : [يهز كتفيه يأساً منه واحتقاراً له] افْتُتِحَتِ الْجُلُوسَةُ .
المحقق : أَحْضَرُوا الْمَتَهَمَةَ .

لدقينو : [ينادى] الْمَتَهَمَةُ . أَحْضَرُوهَا .

[تدخل جان من الباب المقبوض خلف مقعد المتهمه ، في حراسة
جند من الإنجليز ، وفي رجلها القيد ، ويدخل معها الجلاد وأعوانه ، ثم
هم يسوقونها إلى مقعدها ويحلون القيد عنها ثم يقفون وراءها . وهي في
رداء أسود كأردية الوصفاء والحجاب . وقد ظهرت عليها آثار التعب من
طول حبسها ومن جهود التحقيقات التي سبقت هذه المحاكمة ، ولكنها
لا تزال تحتفظ بحيويتها . وتلقى الحكمة بنفس لم تُكسر وعزّة لم تُدَلَّ ،
ولا يظهر عليها أى ارتجاف من هذا الجمع الحاشد في روعته وهيبته وعبوسه
فَتَضَيِّعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ عُنْصُرًا جَوْهَرِيًّا كَانَ لَا يَدُّ مِنْهُ لِيَبْلُغَ بِهِ حَدُّ
الْمَهَابَةِ وَالْإِخَافَةِ] .

المحقق : [في حُتُو] اجلسي يا جان [تجلس على مقعدها] لولئك
اليوم متغير يا جان ، فهل أنت مريضة ؟

جان : أشكرك شكرا جيلًا . عندي من الصحة الكفاية ،
ولكن الأسقف بعث لى شَبوطًا فأكلت منه فأحدث لى سوء .
كوشون : أنا آسف ، لقد أمرتهم أن يرسلوه صابحًا .
جان : لقد أردتَ الاحسان لىّ ، وأعلم هذا ، ولكن هذا
السك لا يوافقنى ، وقد ظن الانجليز أنك أردت سئى .

كوشون } ماذا !
والقس } [معًا] لا ، يا مولاي .

جان : [تستمر فى حديثها] إن الانجليز مصممون على أن
أحرق كما تُحرق الساحرات ، لذلك بعثوا لىّ طيبيهم ليُصِحِّنى .
ولكنه أمر أن لا يُدَمِّنى ، لأن القوم السفهاء يحسبون أن السحر
يخرج من الساحرة عند إدمائها . لهذا اكتفى بسبِّ فسمانى أسماء
قذرة . لماذا تتركونى فى أيدي الانجليز ؟ إن الواجب أن أكون
فى يد الكنيسة . ولماذا تربطونى إلى ساق من خشب ؟ أخشية
أن أطير ؟

دستيقه : [فى غير رقة] أيتها المرأة ، ليس لك أن تسألى
المحكمة ، ولكن نحن الذين نلقى عليك السؤال .
كُورسل : عندما حلَّوْا عنك القيد ، أَلَمْ تحاولى الهربَ
بالنطّ من برج يبلغ ارتفاعه ستين قدما ؟ فإذا كنت لا تستطيعين

أن تطيري ، فكيف تفسرين أنك لا تزالين على قيد الحياة بعد هذه النطة ؟

جان : تفسير هذا أن البرج لم يكن بهذا العلو الذي هو عليه الآن . إنكم منذ أخذتم تسألوني عن البرج ، أخذ البرج يرتفع يوما بعد يوم .

دستيقه : لماذا نططت من البرج ؟

جان : كيف جاءك أني نططت ؟

دستيقه : وجدناك ملقاة في الخندق حول القلعة ، فلماذا

هربت من البرج ؟

جان : لماذا يهرب السجين من سجنه إذا وجد مهرباً ؟

دستيقه : إذن أنت حاولت الهرب ؟

جان : بالطبع نعم ، ولم تكن هذه أول محاولة من نوعها .

إنك إذا تركت باب القفص مفتوحاً طار العصفور .

دستيقه : [ينهض] إن هذا اعتراف بالزندقة ، وإلى هذا

ألفت نظر المحكمة .

جان : زندقة ! يسمى هذا زندقة ! أنا زنديقة لأني حاولت

الهرب من السجن ؟

دستيقه : بدون شك . إذا كنت في يد الكنيسة فحاولت

عمداً أن تُفلى منها، فأنتِ إذن تهريين من الكنيسة، وهذه زندقة.
جان : هذه سخافة بالغة لا أظن مغفلاً تبلغ به الغباوة إلى
حدّ تصديقها .

دستيقه : أسممتَ يا مولاي كيف تسبئي هذه المرأة وأنا
أؤدى واجبي [يجلس غاضباً] .

كوشون : قد سبق أن حذّرتكِ يا جان من هذه الإجابات
الوقعة فهي لا تأتيك بخير أبداً .

جان : وماذا أصنع وأنتم لا تكلمونني بالمعقول . إنكم إذا
عَقَلْتُمْ عَقَلْتُمْ .

المحقق : [يتدخل] أرى هنا خطأ في الإجراء . إنك يا سيدي
المدعى نسيت أن الإجراءات لم تُفْتَحَ رسمياً . إن الأسئلة لا تُلقى
عليها إلا بعد أن تحلف على الإنجيل أنها ستقول الحق كله .

جان : إنك تقول هذا لى كل مرة ، وقد قلت لك المرة
بعد المرة إنى سأخبرك بكل ما يتصل بهذه المحاكمة ، ولكنى
لن أقول لك الحق كله ، إن الله لا يأذن فى الحق كله أن يقال .
وحتى إذا أنا قلته فلن تفهمه . والمثل القديم يقول : إن من قال
فوق ما يجب أن يقال فصيره إلى المشانق . إنى سئمتُ هذه

الناقشة . لقد كررناها تسع مرّات قبل هذه . إني حلّفتُ بمقدار ما أريد أن أحلف ، ولن أحلف فوق ذلك أبداً .
كورسل : مولاي ، لا بد من تعذيبها .

المحقق : أسمعُ يا جان ؟ هذا جواب كل عناد ، ففكّرِي قبل أن تتكلمي . أأريتموها آلات التعذيب ؟
الجلّاد : إنها حاضرة يا مولاي وقد رأيتها .

جان : لو مرّ قتموني عضواً عضواً حتى تخرج هذه الروح من هذا الجسد ، ما نطق لسانِي بشيء فوق ما نطق . ماذا عندي فوق هذا مما تفهمونه ؟ على أيّ شيء لا أحتمل الألم . فإذا أنتم عذّبتُموني ، قلت لكم ما تشاءون حتى يذهب الألم فأعود إلى إنكاره ، فإذا أنتم صانعون ؟
لديني : هذا كلام معقول . يجب أن نسلّك معها سبيل الرحمة .

كورسل : ولكن التقليد جرى بالتعذيب .
المحقق : ولكن التعذيب لا يكون خبطَ عشواء . إن التّهمة إذا اعترفت عن رضا صار التعذيب حراماً .
كورسل : ولكن في هذا خروجٌ عن المعتاد وتنكّبٌ عن المعروف . إنها تأتي حلفَ اليمين .

لدثينو : أتريد تمذيب الفتاة لغير غرض سوى أن تستمتع
بمذاها .

كورسل : ولكنه ليس استمتاعاً ، وإنما هو القانون . إنه
العادة . إننا دائماً نأتيه .

المحقق : هذا ياسيدى غير صحيح ، إلا أن يكون الرجال
المحققون يجهلون موقفهم من القانون .
كورسل : ولكن المرأة زديقة . إننا دائماً نعذب .

كوشون : [يقطع فى القول] لن يكون اليوم تمذيبٌ إذا لم
تكن ثمة ضرورة ، فليكن هذا فصل الخطاب . لن أسمع
بإجراء يقال من بعده إننا استندنا فى المحاكمة على اعترافات تُرعت
قسراً . إننا بعثنا لهذه المرأة أحسن وعظا ، وخير دكاترتنا ،
يرجونها وينصحونها ويحضونها على تخليص روحها وجثمانها من
النار ، فهل بعد هذا نبعث الآن لها الجلاد ليدفع بها فى النار .

كورسل : إنك يا مولاي لاشك رحيم ، ولكن فى الخروج
عن المؤلف تبعة كبرى .

جان : أنت مغفلٌ نادر الوجود ياسيدى . « أصنع اليوم
ما صنعتُه بالأمس » . هذه قاعدتك الغالية ؟

كورسل : أيتها الفاجرة الماهرة ، كيف تجربين
فتمسينى مغفلاً ؟

المحقق : صبرا يا سيدى صبرا ، فلن يطول بك الزمن حتى
يثار لك منها شر ثأرة .

كورسل : [متمماً] مغفل حقاً ! [يجلس فى سخط شديد] .
المحقق : وإلى أن يَحِينُ حِينُ هذا ، علينا جميعاً ألا نزعج
كثيراً لما تقوه به هذه الفتاة . إنها ابنة راع يعرى الغنم ، ولسانها
به جانب خشن تعوزه الملاسة .

جان : لا . أنا لستُ ابنةَ راع ، ولو أنى ساعدت فى رعى
الأغنام ككل فتاة غيرى . إنى أعرف من أمور المنزل ما تعرفه
سيدته ، فأغزل وأنسج ، وابارى فيها أية امرأة فى رُوَان Rouen .
المحقق : ليس هذا أوان الغرور يا جان . إنك فى خطر كبير .

جان : أعلم هذا . وهل أنسى كيف جُوزيتُ على غرورى ؟
ألم يستهونى الغرور إلى أن لَبِستُ رداً المذهبَ فى الميدان
والحربُ قائمة ، ففعلَ الخرقاء ، فعرفتى جندىَ برجنديّ ، فشدّنى
من ورائى عن حصانى ، ولولا هذا ما كنت اليوم بينكم ؟

القس : إذا كنت تَحَذِّقِينَ أشغال النساء ، فلماذا لا تقبعين

فى بيتك وتقومين بها ؟

جان : توجد نساء كثيرات تقوم بهذه الأشغال ، ولكن لا يوجد من يقوم بعملى .

كوشون : أتركونا من هذه الأمور فإنها توافى لا نكسب منها إلا ضياع الوقت . جان : سأسألك سؤالاً خطيراً جداً فتأمل قبل أن تجيبه فعليه تتوقف حياتك ونجاتك . هل تقبلين فى كل ما صنعت ، خيراً كان أو شراً ، حكم كنيسة الله فى أرضه ؟ وعلى الأخص فيما فعلت من أفعال ، وقلت من أقوال ، يتهمك بها المدعى فى هذه المحاكمة ؟ هل تُسلمين أمرك فيها للكنيسة تفسرها بما أوحى الله ؟

جان : أنا بنت من بنات الكنيسة ، أمانة مؤمنة ، وسأطيع الكنيسة ...

كوشون : [يميل إليها بصدرة فى تلف ورجاء] تطمينيها حقاً ؟ جان : ما دامت لا تأمرنى بالمحال .

[يعود كوشون فيرتقى فى كرسيه ، وهو يتنهد يائساً متحسراً . أما المحقق فيضغط شفة على شفة ويُعبّس . وأما لدفينو فيهرز رأسه راثياً لجان] .

دستيقه : إنها تنسب الخطيئة والسخف إلى الكنيسة بقولها إن الكنيسة تأمر بالمحال .

جان : إذا أنتم أمرتوني أن أعلن أن الذي قتلته وفعلته ،
وأن الذي رأيته من رؤى ، وتجلى لى من أمور ، لم يكن مأثامه
من الله ، فأنتم إنما تسوموني المحال ، ولا والله ما قبلتُ هذا بشيء
فى الدنيا أبدا . إن الذى فعلته باذن الله لا رجعة لى فيه ، والذى
أمرنى الله أو يأمرنى به سأفعله برغم كل حى . فهذا الذى أعنيه
بالمستحيل . فإذا أمرتنى الكنيسة أمرا - مهما كان - ينتقض
به أمر الله فلن أطيع للكنيسة أمرا فيه عصيان الله .

الخبراء : [وهم غاضبون مستاءون أشد استياء] أوه ! الكنيسة
تنقض أمر الله . هذه زندقة مكشوفة . هذا كفر لا كفر
بعده وهلم جرا .

دستيقه : [يرى بأوراق الاتهام من يده] مولاي : أتريد شيئا
بعد هذا ؟

كوشون : أيتها المرأة ، إن الذى قتلته الساعة يكفى لحرق
عشرة من الزنادقة . ألا تأبهين للنذر ؟ ألا تفقهين ؟

الحق : إذا قالت لك الكنيسة إن تلك الرؤى التى جاءتك ،
وما تجلى لك من أمور ، إنما جاء به الشيطان ليضلّك به عن سبيل
الله ، أفلا تؤمنين بقضاء الكنيسة وبأنها أعقل منك وأحكم ؟
جان : أنا أؤمن بأن الله أعقل منى وأحكم ، وأمر الله هو

المطاع . إن كل الأشياء التي عددتموها علىّ ذنوباً جاءتني من عند الله . وقد فعلتُ ما فعلتُ بأمر الله ، فلا أستطيع أن أقول غير هذا ، فإذا قال رجل من رجال الكنيسة خلاف هذا فلن آبه له ، وإنما آبه لله وحده ، ولأمره وحده أطيع .

لديقنو : [يجادلها في توسل كثير] إنك يا بُنيّتي لا تفقهين ما تقولين . أتطلبين الموت ؟ أنصتي إليّ . أتقرّين بالخضوع لكنيسة الله في أرضه ؟

جان : نعم ، ومتى أنكرتُ هذا ؟

لديقنو : هذا حسن ، ومعنى هذا أنك تخضعين لمولانا البابا ، ولكردنالاته ، ومطارنته ، وأساقفته الذين يمثلهم هنا اليوم مولانا الأسقف ، أليس كذلك ؟
جان : أنا أخضع لله أولاً .

دستيقه : إذن فالأصوات التي تسمعين تأمرُك بالأتخضعي للكنيسة ؟

جان : أصواتي لا تأمرني بمصيان الكنيسة ، ولكن طاعة الله تكون أولاً .

كوشون : وأنتِ الحَكَم في ذلك لا الكنيسة ؟

جان : ومن يقضى لنفسى غيرُ نفسى ؟

الخبراء : [وقد استثنوا ما قيل استثناءا عظيما ، فلم يجدوا كلمة تؤدي ما وجدوا من شناعة] أوه !

كوشون : لقد أهلك نفسك بلسانك . لقد جاهدنا في خلاصك من التهلكة حتى أشرفنا بأنفسنا على التهلكة . وقد فتحنا لك الباب مرة بعد مرة ، وأنت تُفلقينه في وجهنا ووجه الله في كل مرة . فهل تدعين بعد الذي تقولين أن الذي أنت فيه من لطف الله ؟

جان : إذا لم يكن ما أنا فيه من لطف الله ، فاني أسأل الله لطفه . وإن كان ما أنا فيه من لطف الله ، فاني أسأل الله أن يحفظه عليّ .

لدينو : هذا يا مولاي جواب جميل .

كورسيل : هل كنت في لطف من الله عند ما سرقت حصان الأسقف ؟

كوشون : [ينهض غاضبا] لعنة الله على حصان الأسقف وعليك . إنا هنا ننظر في قضية زندقة ، ثم لا نلبث أن نصل إلى جوهرها حتى يصدنا عنه مغفلون لا يفقهون من الدنيا شيئا سوى الخيل والحير [يرتجف غضبا وينصب نفسه على الجلوس] .

المحقق : سادتي ، سادتي : إنكم بالحاكم في هذه التهم التافهة

خير أعوان للفتاة على الفرار ، ولهذا لم يدهشني أن ضاق نيافة
الأسقف بكم . ماذا يرى المدعى ؟ أيتشبت بهذه التهم الفارغة ؟
دستيقه : واجبي يحتم على أن أنشبت بكل شيء ، ولكن
المرأة كفرت كفرا يعود عليها بالطرد من الكنيسة ، فإذا
تغنى مع هذه الكبيرة صفائر الذنوب ؟ أنا أشرك مولاي في ضيقه
بهذه الصفائر ، ولكني بكل احترام أوجه النظر إلى جريمتين
فظيحتين خطيرتين ، لم تنكرهما الفتاة . أولاهما أنها تخاطب
الأرواح الشريرة ، فهي على اتصال بعالم خيث . وثانيتهما أنها
تلبس ملابس الرجال ، وهذا أمر شنيع فيه خروج على الطبيعة ،
وإهدار للمفة . ورجوناها ، وعاتبناها ، وتوسلنا إليها أن تخلع
هذه الملابس ، فرفضت حتى خلعت لتأخذ القربان المقدس .

جان : هل القديسة المباركة كثرينة روح شريرة ؟ وهل
القديسة مرغريت روح شريرة ؟ وهل ميكائيل الملك الأعظم
روح شريرة ؟

كورسل : وما أدراك أن الخيال الذي يبدو لك ميكائيل ؟
أليس يبدو لك طاريا ؟

جان : ولماذا يبدو لي طاريا ؟ أم تحسب أن الله فقير لا يقدر
على كسوته ؟

[عند هذه لا يتالك الخبراء أن يضحكوا لاسيما والضحك واقع ثقله
على كورسيل]

لدقينو : أحسنت جوابا يا جان .

المحقق : هذا في الواقع جواب عليب . ولكن ليس في
الأرواح الشريرة روح واحدة تبلغ البلاهة منها أن تتراءى لفتاة
صغيرة في صورة فاضحة تبعتها على النفور منها ، وهي إنما تريد
أن تُوَقَّع في نفسها أنها رسول المَلَّى الأعلى . اسمي يا جان . إن
الكنيسة تقول إن هذه الأطياف إن هي إلا شياطين تستدرجك
إلى مواطن اللعنة ، فهل تقبلين ما تقوله الكنيسة ؟

جان : أنا أقبل رسالة الله ، ولا أدري كيف يرفضها رجل
يخلص الإيمان للكنيسة ؟

كوشون : أيتها التَّعَسَّة ، إنى أسألك مرة أخرى : أتدريين
ما تقولين ؟

المحقق : عِراكُك يا مولاي مع الشيطان لتخليص روحها
عراك فاشل ، ومجهودك في ذلك مجهود ضائع ، فهي لن تنجو
أبداً . [إلى الفتاة] أما عن مسألة اللباس ، فأنا أسألك آخر مرة
أن تخلى هذا الزي الزرى ، وأن تلبسى كما يلبس النساء .
جان : لن أفعل .

دستيفيه : [ينقض كالطير الجارح] خطيئة النصيان هذه

يا مولاي !

جان : [تتأزم] ولكن أصواتي تقول لى البسى كما

يلبس الجنود .

لدفينو : جان ، جان : ألا يُثبت لك هذا أن هذه أصوات
أرواح شريرة ؟ أنستطيعين أن تذكرى لنا سبباً واحداً يحمل
ملكاً من ملائكة الله على إساءة مثل هذه النصيحة الفاضحة ؟

جان : بالطبع أستطيع . إنها نصيحةٌ منطقةٌ بسيطٌ واضح
ما كنتُ أحسب أنه يتعمى على أحد . فأنا جنديّةٌ عشت بين
الجنود . وأنا الآن سجينّةٌ يحرّسنى جنود . فاذا أنا لبستُ لبسَ
النساء ، نظروا إلى نظرة الرجال إلى النساء ، فالى أىّ حال كنتُ
أصير عندها ؟ أمّا إذا لبستُ ملابس الجنديّ ، نظروا إلى نظرة
الجنديّ إلى الجنديّ ، فأعيش بينهم كما كنتُ أعيش فى بيتى بين
إخوتى . فهذا هو السبب الذى من أجله نصحتُ لى القديسة
كترينة أن لا ألبس ما تلبسُ المرأة حتى يحيثنى أمرها .

كورسل : ومتى يحيثك أمرها ؟

جان : يحيثنى عندما تنتشلونى من أيدي الإنجليز و جنودهم .
لقد قلت لكم أسلمونى إلى الكنيسة ولا تتركونى ليل نهار بين

أربعة من جنود الإِربل وَرِكَ . أَيْنَ هؤلاء تريدونى على الظهور
فى غلائل النساء ؟

لدقينو : عِلِمَ الله أَن الذى تقوله خطأ فاضح ، ولكنى أرى
فيه ذرّة من فطنة أهل الدنيا قد يجوز مثلها على مثل هذه الفتاة
القرّوية الساذجة .

جان : لو كنا فى قرأنا سُدْجاً مثلكم فى محاكمكم وقصوركم
لما وجدتم القمع الذى تصنعون منه خبز يومكم .
كوشون : أخى مرتان ، هذا جزاؤك منها على محاولتك
دَفْعَ السوء عنها .

لدقينو : يا جان ، إني أحاول أن أدفع عنك السوء . ومولاي
الأسقف يحاول أن يدفع عنك السوء . والمحقق يعطيك من
عدالته نفسَ القسط الذى يعطيه لابنته . ولكنك عمية ، أعماك
صلفٌ زائد ، وكبرياءٌ تترفع بك عن معونة الناس .

جان : لماذا تقول هذا ؟ أنا لم أقل ما يسىء . أنا لا أفهم
ما تقول .

المحقق : إن القديس أنثنسيوس ، باركه الله ، قرّر فى تعاليمه
أن اللمنة تحق على من لا يفهمون . فلن يكنى المرء أن يكون
ساذجاً . ولن يكفيه أن يكون ما يسميه السُدْج طيباً . إن سذاجة

البصيرة المتعة والقلب المظلم كسذاجة البهيم ، سواء سواء .
 جان : خذوها عني : إن في سذاجة البهيم لحكمة كبرى ،
 وإن في حكمة العلماء أحياناً لسخافة كبرى .

لدقينو : نعلمُ هذا ، ولسنا يا جان من الحمافة بحيث تظنُّين
 فدعى هذه الإجابات البذيئة ودافى الشيطانَ فانه يفرِّك بها .
 أتدرين هذا الرجلَ الواقفَ وراءك [يشير إلى الجلاد]

جان : [تدور لترى الرجل] أهذا جلادكم ؟ ولكنَّ الأسقفَ
 قال إنى لن أعذب .

لدقينو : لن تمذِّبين لأنك اعترفت بكل ما يكفى للحكم
 عليك بالإعدام . وهذا الرجل لا يعذبُ فحسب ، بل هو يُميت .
 أيها الجلاد ، أجبْ أسئلتى وأسمع الفتاة . أأنت على استعداد
 لإحراق زنديق فى هذا النهار ؟

الجلاد : نعم ، سيدى .

لدقينو : أجهزتَ الجذعَ الذى يُربط به زنديق قبل الحريق ؟
 الجلاد : نعم سيدى ، نصبه الإنجليز فى السوق ، ونصبوه
 عالياً حتى لا أستطيع أن أقرب من الفتاة فأجمل موتها سريعاً
 سهلاً . إنها ستموت موة شنيعة .

جان : [وقد دخلها الفزع] ولكنكم لن تحرقوني الآن ؟

المحقق : لقد أدركتِ المال أخيراً .

لدفينو : إن على الباب ثمانمائة جندي انجليزى يترقبون
اللفظة تخرج من فضاتك بالحكم بطردك من الكنيسة لينقضوا
عليك فيأخذوك إلى السوق للحريق . فهذا مآلك ليس بينك
وبينه إلا دقائق .

جان : [تنظر حولها في حيرة اليأس تطلب النجدة] ربّاه .

لدفينو : لا تيأسى يا جان ، فالكنيسة رحيمة ، وسبيل النجاة
لا تزال مفتوحة ، فادخليها .

جان : [وقد دخلها الأمل بعد اليأس] نعم . إن أصواتى وعدتني
بأن لن أحرّق . والقديسة كترينة أمرتني بأن أتشجع وأن
لا أخاف .

كوشون . أيها المرأة ، هل إلى هذا الحد بلغ بك الجنون ؟
ألا تُدركين بعد كل هذا أن أصواتك قد خدعتك ؟

جان : لا ، لا . هذا مستحيل .

كوشون : مستحيل ! إن هذه الأصوات ستؤدي بك إلى
الطرد من الكنيسة ، ثم إلى هذا الجذع الذى ينتظرك هناك
لتُحرّق عليه .

لدفينو : [يمجاهد في تعزيز الحجة التى بدأها الأسقف] هل وفّت

لك هذه الأصوات بوعده واحد منذ أسروك في كمين؟ إن الشيطان قد خانك. إن الكنيسة تفتح لك صدرها لترتمي فيه. جان: [وقد يئست] نعم، هذا حق. إن أصواتي خدعتني، والشياطين هزنت بي، وقد انهار إيماني. لقد غامرت كثيراً، وخاطرت ما خاطرت، إلا هذه النار، فلن يمشي برجليه طوعاً إليها إلا غبولٌ معتوه. إن الله الذي منحني العقل لا يقبل أن أمشي بهذا العقل راضيةً إلى مثل هذه الموتة. لدقينو: الحمد لله الذي شاء لك النجاة في آخر ساعة.

[ثم هو يذهب مسرعاً إلى مقعد خالٍ بجوار الكتاب، وينزع صحيفة من الورق ثم يأخذ في الكتابة عليها في رغبة شديدة].

كوشون: الحمد لله.

جان: وماذا على أن أفعل الآن؟

كوشون: تمضين إتهاداً بإنكار البدعة التي جئت بها.

جان: أمضي؟ معنى هذا أن أكتب وأنا أُميَّةٌ لا أعرف الكتابة.

كوشون: إنك أمضيت كتباً عدةً فيما مضى.

جان: نعم. ولكن يدا كانت تمسك يدي فتهدىها بالقلم

الذى فيها . على أنى أضع علامتى^(١) على ما تريدون .
القس : [وقد كان يصغى فيزداد خوفاً وسخطاً على الناحية التى .
خال أن الحديث سيؤدى إليها] مولاي ، أمعنى هذا أنك تأذن لهذه
المرأة أن تُفِلّت من أيدينا ؟
المحقق : إن القانون يجب أن يجرى مجراه ، وأنت أيها
القس تعرف القانون .

القس : [ينهض وقد ازرق وجهه من الغضب] أنا أعرف أن
الفرنسىّ خوّان . [يلفظ القوم ، فيملو بصوته على لفظهم] أنا أعرف
ما يقول مولاي كردينال ونشستر عند ما يسمع بهذا . أنا أعرف
ما يصنع أرل ورك عند ما يعلم أنكم تخونونه . إن على الباب
ثمانمائة رجل ينتظرون حتى تُحرق هذه الساحرة اللعينة وأنوفكم
راغمة .

الخبراء : [فى هذه الأثناء] ما هذا ؟ ماذا قال ؟ يتهمنا بالخيانة !
هذا لا يحتمل . الفرنسىّ لا يؤتمن ! أسمعت هذا ؟ هذا رجل
لا يطاق . من هو ؟ أهذا مثل القساوسة الإنجليز ؟ إنه مجنون .
أو سكران . . . وهلمّ جرا .

(١) كان من لا يعرف الكتابة يصنع على الورقة علامة كائنة ما كانت تنوب
عن اسمه ويطلب أن تكون رسم الصليب .

المحقق : [ينهض] السكوت ، السكوت ، ياسادة ! أرجوكم
أن تسكتوا . وأنت أيها القس ، تذكر منصبك الكنسى لحظة
واحدة . تذكر ما أنت وأين أنت . إنى أمرك بالجلوس .

القس : [يطوى ذراعاً على ذراع ، فى عناد شديد ، ووجهه يختليج
اختلاجاً] أنا لا أجلس .

كوشون : سيدى المحقق ، إن هذا الرجل دعانى لوجهى
خائناً قبل الآن .

القس : نعم أنت خائن . وأتم جميعاً خونة . ماذا صنعتم
غير الركوع بين يدي هذه الساحرة اللعينة تسألونها التكفير
عما جنت .

المحقق : [يهبط إلى مقعده فى اثتاد] إذا أنت لم تجلس ، فلا
يبقى إلّا أن تقف . وهذا كل ما عندى .

القس : لن أقف [يضغط على « لن » ، ثم يرى بنفسه فى مقعده] .
لدينىو : [ينهض ويده ورقة] مولاي : هذه صورة التوبة
التي تُمضيها الفتاة .

كوشون : اقرأها لها .

جان : لا تتكلف هذا العناء ، فأنا أمضيها .

المحقق : أيتها المرأة ، يجب أن تعرفى ماذا توقعين . اقرأها

لها يا أخى مرتان . وأنتم فاستمعوا له جميعاً .

لذيقنو : [اقرأ فى هدوء] أنا صاحبة التوقيع جان ، المعروفة على الأشهر بالفتاة ، أقرّ بأنى مذنبه شقية ، وأنى أذنبتُ أسوأ الذنب فى الأمور الآتية : فقد ادّعت بالكذب أن وحيًا يجيئني من الله والملائكة والقديسين ، ورفضت فى تمرّدٍ وعناد نُذَرَ الكنيسة بأن هذا الوحي من الشياطين يُضِلّون به عباد الله . وقد كفرت أشنع الكفر بارتدائي ملابس لا ترضاها الكنيسة ، غالفتُ بذلك الكتاب المقدس وقوانين الكنيسة . وكذلك قصصت شعري كما يقصّه الرجال ، وحملت السيف لسفك الدم البشريّ ، وأغريت الرجال بذبح الرجال ، واستعنتُ بالعفاريت فى خداع الناس ، ونسبت كل هذا فى كفر بالغ وعناد شديد إلى الله جل جلاله . وإني بهذا أعترف بالخطايا الآتية : بالفتنة ، وبالوثنية ، وبالمصائب ، وبالمُجَب ، وبالزندقه . وإني أتبرأ الآن من هذه الخطايا جميعها ، وأُقلع عنها وأطرحها أطراحاً . وإني أشكر الدكّاترة والقساوسة فى خضوع أن هدّوني إلى الحق وأدخلوني مرة أخرى فى رحمة الله . ولن أعود إلى أخطائي السابقة . وسأظل فى كنف الكنيسة المقدسة طيعةً لأئينا الأقدس بابا روما وإني أحلف على كل هذا بالله العليّ العظيم والإنجيل الكريم .

وإشهاداً على هذه التوبة أضع اسمي عليها .

المحقق : أفهمته كله يا جان ؟

جان : [في غير اكتراث] واضح جدا يا مولاي .

المحقق : وهل هو حق ؟

جان : قد يكون حقا . لو كان باطلا لما جهّزتم لي النار في

السوق .

لدفينو : [يأخذ قلمه وكتابه ، ويتجه مسرعا نحوها خشية أن يصدر

منها ما يفسد الأمور مرة أخرى] تعالى يا بنيّتي . وخذي القلم ودعيني

أمسك بيدك لتهتدي [تأخذ القلم ويبدأ بالكتابة مرتكزين على

الكتاب] جيم . ألف . نون . والآن ضعي علامتك بنفسك .

جان : [تضع علامتها ثم تعطيه القلم ، وهي في ضيق من ثورة روحها

على عقلها وجسدها] هاك !

لدفينو : [يضع القلم على المنضدة ، ثم يسلم التوبة إلى كوشون في

كثير من الاحترام] الحمد لله أيها الإخوان فقد عادت الشاة إلى

حظيرتها بعد الضلال . والزاعى قد فرح لها ، وهي الخاطئة ،

أكثر مما يفرح لتسعة وتسعين من الصالحين^(١) [يعود إلى مقعده] .

المحقق : [يأخذ الورقة من كوشون] بهذه التوبة نعلن أنك

(١) يشير إلى ملءء بالإنجيل .

سلمت من الخطر الذي كان يهدّدك ، فلن تُطرَدِي من الكنيسة
[يرمي بالورقة إلى المنضدة] .

جان : أشكرك .

المحقق : ولكن بما أنك أذنبت في حق الله والكنيسة
المقدسة إذ نابا كبيرا ، وأدّعتِ الدعاوى ، وتفطرت وتكبرت
تكبراً شديداً فاضحاً ، وبما أننا نرجو لك التكفير عن سيئاتك إذا
أنت تأملتِها فريدةً وحيدة ، وبما أننا نرجو لك في هذه الوحدة
بعداً عن الغواية والرجوع إلى تلك الخطايا ، لهذا نحكم عليك ،
لخير روحك ، ورجاء توبة نرجوها لك تحو عنك أدران الذنوب
وتردّك في النهاية إلى الله طاهرةً مطهّرةً ، نحكم عليك بأن
تأكل خبز الندامة ، وتشرب ماء الكرب ، في سجن دائم إلى
آخر يوم لك على هذه الأرض .

جان : [تنهض في دعر وغضب شديد] سجن دائم ! إذن

لا تُطلقون سراحى ؟

لدقينو : [وقد أخذ العَجَب بعض الشيء] نطلق سراحك بأنيّة

بعد الذي أُتيبت من خباثت ؟ أتَحْلِمِينَ ؟

جان : إذن فردّ إلى الورقة وما كتبتُ عليها [تسرع إلى

المنضدة وتنزع الورقة من عليها وتمزّقها شرّ تمزيق] أشعلوا النار . حياة

السجون لحياة الفئران في الحبور ، خيرٌ منهما النار فدونكم
فأوقدوها . ما كذبتُ أصواتي أبداً .

لدينيرو : چان ! چان !

چان : ما كذبتُ أصواتي . لقد أخبرتني أنكم مغفلون ،
[تحدث هذه الكلمة استياءً كبيراً] ونصحتني أن لا أستمع إلى كلمات
منكم خالبة ، وأن لا أرتكن إلى صدقة منكم كاذبة . وعدتوني
الحياة ثم ها أتم تكذبون [تُسَمِع من القوم نائرة غضب] . كل
حياة عندكم حياة ما نبض القلب فيها . كل حياة عندكم حياة
إلا حياة الحجر . إني لا أخشى الخبز والماء . إني أعيش على الخبز ،
فتى سألتكم غيره ؟ وليس في شرب الماء عذاب ما دام الماء نقياً .
ليس في أكل الخبز عذاب ، ولا في شرب الماء كرب ، ولكن
الكرب والعذاب أن تُنلقوا دُونِي الأبواب فلا أرى نور السماء
ولا بهجة الأرض في حقولها وأزهارها ، وأن تُقيدوني بالسلاسل
فلا أستطيع أن أركب في الرجال للقتال أو أن أتسلق الجبال ،
وأن تحملوني على أخذ أنفاسي من هواء فاسد في جوٍ رطب
مظلم ، وأن تضربوا حجاباً بيني وبين كل شيء من شأنه أن يأخذ
بيدي إلى كنف الله ، ويعود بي إلى محبة الله ، وقد كادت تذهب
بها من قلبي هذه الخائبُ التي تأتون والحافات التي تصطنعون .

إن ما تعرضون علىَّ شرٌّ من تَنُورِ الإنجيل الذى أُنمى سبع مرَّات . إني أستطيع أن أستغنى عن جواد حربى ، وأستطيع أن أروح وأغدو أجرٌ ذيلَ النساء ، وأستطيع أن أدعَ الأعلام والأبواق والجند والفرسان تمرَّ بى وتحلفنى وراءها كما تحلف سائر النساء . نعم أستطيع كل هذا إذا أبقيت لى الريح أسمع حفيفه فى الشجر ، والقنبرة أسمع تغريدها فى نور الشمس ، والشاة الصغيرة أسمع نغائها وهى تجرى فى الغابة فى صفو هوائها وموفور ضيائها ، والأجراس أجراس الكنيسة تُرسل إلى النِّعم على الريح بأصوات قدِّساتى . بدون هذه الأشياء لا أستطيع العيش ، فإذا أنتم رأيتم أن تحرمنى منها — إذا أنتم رأيتم أن تحرموا منها أى إنسان ، فهذا رأى يحمل فى طيَّانه الدليل على أن مأثمه من الشيطان ، ويحمل الدليل كذلك على أن رأى مأثمه من الله .

الخبراء : [فى اختلاط وجلبة] هذا كفر ! هذا كفر ! إن الشيطان قد ركبها . تقول إن رأينا من عند الشيطان ، وإن رأينا من عند الله ؟ هذا فظيع . إن الشيطان قد حلَّ فىنا ... وهلمَّ جرَّاً .

دستيقه : [يلو بصوته على الجلبة] إنها قد ارتدَّت إلى زندقتها .

إنها عنيدة لا يمكن إصلاحها . إنها غير جذيرة بما بذلنا لها من
رحمة . إني أطلب الحكم بقطعها من الكنيسة .

القس : [إلى الجلاد] إلى نارك فأشعلها . إلى النار بها .

[يخرج الجلاد وأعوانه إلى الصحن مسرعين] .

لدفنوا : أيتها الخبيثة . إذا كان الوحي الذي يأتيك من الله ،

أفأكان في وسعه أن يُنجيك مما أنت فيه ؟

جان : إن طرائق الله في تصريف الأمور غير طرائقكم .

إن الله قد شاء أن أرتعى في أحضانه ولكن عبر النار . ذلك لأنني

ابنته ووليتة ، وأنكم لا تستأهلون أن يعيش فيكم مثلي . فهذه
آخر كلماتي إليكم .

[يقبض عليها الجنود] .

كوشون : [ينهض] لا تقبضوا عليها بعد ، فنحن لم نفرغ .

[يكف الجنود منتظرين ، ويسود سكوت كسكوت الموت . ثم يتجه

كوشون نحو المحقق يرمقه بعين سائلة ، فيهرّ المحقق رأسه إيجاباً . فيقوم
الاثنان معاً في عبوسة واتّساد ، فيرتلون الجمل الآتية ترتيلاً ، كلٌّ في

دوره] .

كوشون : نحكمُ عليك بأنك مرتدة زنديقة .

المحقق : وبأنك من الكنيسة مطرودة .

كوشون : ومن جسمها مقطوعة .

المحقق : وبجُذَام الزندقة موبوءة .
كوشون : آله من آلات الشيطان .
المحقق : وفرعٌ خبيثٌ وَجَبَ اجتثاثه من شجرة الإيمان .
كوشون : فنحن نطردك ونقطعك ، وترتك للسلطة
الزمنية تفعل فيك ما تشاء .
المحقق : ونُنذِرُ السلطة المذكورة أن تقصِدَ في حكمها عليك
فيما يختص بالموت وتقطع الأعضاء [يجلس] .
كوشون : وناذِرُ لأخيّنَا مرتان أن يتقدم لك بمراسم التوبة
إذا بدت منك أية بادية للتوبة .
القس : إلى النار بالساحرة [يندفع إليها ، ويساعد الجند على
دفعها وإخراجها] .
[يخرج الجند بجان عن طريق الصحن ، فينهض الخبراء ويخرجون
وراءهم في غير نظام ، إلّا لدثينو ، فيرى مكانه وقد أخفى وجهه في كفيه] .
كوشون : [كان قد مّ بالجلوس ، ولكنه لا يكاد يرى ما فعل
القس حتى يعود إلى النهوض] لا ، لا . هذا خُرْقٌ في الإجراء .
يجب أن يحضر نوابُ السلطة الزمنية ليتسلّموها هنا متّاً .
المحقق : [يقف كذلك] إن هذا القس رجل جهول لا شفاء
لجهله .

كوشون : أخانا مرتان ، اذهب وارقب ما يصنعون . يجب عليهم ألا يخرجوا على القانون .

لدفينو : إن واجبي أن أكون إلى جانبها الآن ، فارقب أنت ما يصنعون ، واستخدم أنت سلطتك في حماية القانون [يسرع في الخروج] .

كوشون : إن هؤلاء الإنجليز لا يطاقون . إنهم سيقذفون بها في النار دون إهمال . انظر !

[يشير إلى الصحن ، وقد ظهرت فيه النار واشتد ضياؤها واضطرب فاحمر منه وَضَحُ النهار . ولم يكن بقي في قاعة المحكمة غير الأسقف والمحقق] .

كوشون : [وقدم بالتهوض] لا بد أن نقف هذا . المحقق : [في هدوء] نعم . ولكن إياك والمجلة الزائدة يا مولاي .

كوشون : [يتأمل في نهوضه] ولكن ليس في الوقت سعة . المحقق : يجب أن نعمل في حدود النظام التام . وإذا اختار الإنجليز سبيلا معوجا فليس من واجبنا تقويمهم . وغلطة في الإجراء الآن قد تكون نافعة لنا في المستقبل . فن يدرى ؟ وعلى كل حال فن صالح الفتاة أن ينتهي أمرها سريعا .

كوشون : [يسترخي في جلسته] هذا حق . أظن أنه لا بد لنا من الصبر حتى ينتهي هذا الأمر .

المحقق : ستعود هذا يا عزيزي الأسقف . إن المرء ربيب العادة . إنى قد اعتدت النار . إنها لا تلبث أن تفتحي . ولكن الأمر الفظيع في كل هذا رؤية فتاة صغيرة و مخلوقة بريئة تتحطم عظامها بين قوتين هائلتين ، قوة الكنيسة وقوة القانون .

كوشون : أُنسميها بريئة !

المحقق : نعم في غاية البراءة . ماذا تفهم هي من الكنيسة ، وماذا تفهم من القانون ؟ إنها لم تفهم كلمة من كلماتنا . إن الجاهل هو الذي يحيق به العذاب . هيّا بنا وإلا فاتنا الختام .

كوشون : [يذهب معه] أنا لا آسف إن فاتنا ختامها ، فأنا لم أعود مثلك هذه الخواتيم .

[وبيناهم يخرجون ، يدخل ورك فيلقاهم] .

ورك : أوه ! أنا متأسف على دخولي ، فقد ظننت أن الأمر

انتهى [يتصنع الخروج] .

كوشون : لا تخرج يا مولاي ، فقد انتهى كل شيء .

المحقق : إن إعدامها ليس في يدنا يا مولاي ، ولكن من

المرغوب فيه أن نشهد الخاتمة . فمن إذناك ... [ينحنى ثم يخرج عن طريق الصحن] .

كوشون : يوجد شك فى أن مواطنك اتبعوا القانون يا مولاي .

ورك : قيل لى إن هناك شكاً فى أن سلطتك تجرى على هذه المدينة يا مولاي . إنها ليست فى أبرشيتك . وعلى كل حال فإذا أنت تحملت التبعة فى هذه ، تحملت أنا التبعة فيما بقى .

كوشون : إننا جميعاً سنسأل عن هذا أمام الله . فصباح الخير يا مولاي .

ورك : مولاي ، صباح الخير .

[يتراشقان بنظرات مكشوفة العداء . ثم يخرج كوشون فيتبع المحقق . أما ورك فيبقى ، ثم ينظر حوله فلا يجد أحداً ، فينادى فى طلب أحد] .

ورك : هالو ! هل من رجل هنا ! [سكوت] هالو ! هل من رجل ؟ [سكوت] هالو ! بريان Brian ! يا ولد يا خبيث ، أين أنت ؟ [سكوت] أيها الخفراء ! [سكوت] ذهب الكل ليشهدوا بالحريق ، حتى هذا الولد الصغير .

[يقطع السكوت صرخ رجل يبكى ويُعول إغوال المهاويس] .

ورك : ما هذا الذى أسمع ... ؟

[يدخل القس من الصحن مترنماً كالخَبُول ، ودُمعه يجري على وجهه
مدراراً . وهو الذى كان يصرخ هذا الصريح المؤلم الذى سمعه ورك . يدخل
ويمشى فى غير اتران إلى كرسى المتَّهمة فيرتدى عليه وهو يعول إعوالا يفتت
الأكبَاد] .

ورك . [يذهب إليه ويربّت على كتفه] ما هذا ياسيد چون ؟
ما الذى جرى ؟

القس : [يقول لورك وهو يمسك بيديه متوسّلاً] مولاي !
مولاي ! بحق المسيح صلّ على روحي المذنبِ الشقيّة .
ورك : [يهدّئ من روعه] نعم ، نعم . بالطبع سأفعل .
ولكن مهلاً ، رويداً ...

القس : [يبكي بكاء شديداً مرّاً] هل أنا رجل فاسق يا مولاي ؟
ورك : لا ، لا ، أبداً .

القس : إني ما قصدت شراً . إني لم أكن أدرك هذا المنظر
كيف يكون .

ورك : [يتصلّب بدلين] آه ! أنت رأيته ؟

القس : إني لم أدرك ما كنت أصنع . إني جهول متهور أخرق .
ستقع على لعنة الله من أجل ما صنّعت .

ورك : لا ، لا . إن الحادث بالطبع حادث مؤلم ، ولكنه لم يكن من فعلك .

القس : [وهو يتفجع] أنا الذى جعلتهم يفعلونه . لو أنى عرفت من قبل ما أعرفه الآن لا تنزعها انتزاعاً من أيديهم . إنك لا تعرف ما أعرف . إنك لم ترَ ما رأيت . إن الكلام مع الجهل يسير . إن المرء يخدّر عقله بالكلام حتى لا يبقى منه إلا ما يبقى للعجائين . إن المرء يصبّ اللعنة على رأسه ، لأنه يلتذّ صبّ الزيت على جهنم المتأججة من نار غضبه . حتى إذا تكشّف له الأمر فى صميمه — حتى إذا تكشّف له ما صنعت يداه فييحاً ذمياً فأعمى بصره ، وأخذ بخنّاقه فخبس أنفاسه ، وأمسك بقلبه فقبّضه وضيقه حتى كاد يمزقه — عندئذ — عندئذ ... [يسقط على ركبتيه] . يا إلهى أبعد هذا المنظر عن عيني . يا إلهى أطفئ هذه النار بين جوانحي . لقد صرخت إليك وألسنة النار تندلع إليها . رباه ، رباه ، رباه . إنها الآن فى كنفك ، أما أنا ففى الجحيم إلى أبد الآبدين .

ورك : [يرفضه فى غير اثناء حتى يقف على رجله] قم ، قم ، يا رجل . تصبّر ، تصبّر ، وإلاّ تحدّثت المدينة كلها بهذا [يرمى به فى غير لطف كثير على كرسي إلى جانب المنضدة] إذا لم يكن لك من أعصابك

ما يحتمل هذه المناظر فلم لا تغيب عنها كما أغيب ؟
القس : [وهو مشئت الفكر فاقد الإرادة مخذول] إنها طلبت
صليبا ، فربط لها جندى عودين وأعطاهما إياها . شكراً لله أنه
كان انجليزيا . لقد كان في وسمى أن أصنع ما صنع ، ولكنى لم
أفعل . إنى نذلّ جبان . أنا كلب مكلوب . أنا مغفل . ولكنه
كان مثلى انجليزيا .

ورك : يا لَمَغْفَل . إنهم يحرقونه لو استطاع القُسُّ
إمساكه .

القس : [يصيبه التشنج فيرتج] بعض الناس ضحكوا منها .
هؤلاء كانوا يضحكون من المسيح لو أنهم حضروه . إنهم كانوا
فرنسيين يا مولاي . أنا أعلم أنهم فرنسيون .
ورك : صه ! بعض الناس قادم ، قماشك .

[يدخل لدثينو من مدخل الصحن ، فيمر على يمين ورك ، وهو
يحمل صليب أسقف كان قد أخذه من كنيسة . يدخل وهو هادئ
النفس ، ولكن وجهه عابس] .

ورك : أخبرتُ أن الأمر انتهى يا أخانا مرتان .
لدثينو : [يلغز في القول] لاندري يا مولاي ، فلعلها البداية .
ورك : ماذا تعنى بالضبط ؟

لدفينو : إني أخذتُ لها هذا الصليب من الكنيسة لتظل
تراه للنهاية . إنه لم يكن لديها صليب غيرُ عودين وضعتهما على
صدرها تحت رداثها . فلما استمرت النار وزحفتُ حولنا ، رأيتُ
أنى لو بقيتُ أهل الصليب أمام عينها لامتدتْ إلى النار فأحرقتنى .
عندئذ أنذرتنى وسألتنى أن أنزل وأنجو بنفسى . مولاي : إن
فتاة تستطيع وهى فى مثل هذه المحنة أن تصرف من بالها إلى خير
غيرها فتاة لا يمكن أن يكون الشيطان قد أوحى إليها . وعندها
اضطرتُّ أن أنزع نفسى والصليب من موقف الخطر الذى
كنت فيه . فلما اختفى الصليب عن نظرها ، أشاحت بوجهها
إلى السماء . ولستُ أظن أن السماء عندئذ كانت فارغة . إني موقن
أن الله تجلّى لها ، فلما رأت وجهه مؤاسياً حناناً ، هتفت باسمه ،
ثم ماتت . فهذه ليست النهاية لها ، بل البداية .

ورك : أنا أخشى أن يكون لما حدث أثر فى الناس .

لدفينو : لقد كان له أثر فعلا يا مولاي — فى بعضهم . لقد
سمعت ضحكا ، ساخنى إذا قلت إني أرجو وأعتقد أنه ضحكٌ
من الإنجليز .

القس : [ينهض كالجنون] لا . لم يكن من الإنجليز . لم يكن
هنالك إلا رجل إنجليزى واحد عَرَّ قومه ، رجلٌ فاسق ، كلبٌ

مسعور ، هو أنا دى استوجبر [يخرج هائما على وجهه وهو يصرخ]
فليعذبوه . فليحرقوه . سأذهب فأصلى على رمادها . أنا يهودا ،
ليس بيننا خيار . سأشقى نفسى .

ورك : أسرع ، أسرع إليه ، يا أخانا مرتان . إليه ، إليه
قبل أن يحدث سوءاً بنفسه .

[يخرج لدفينو مسرعا ويحمله ورك فى خروجه . ثم يدخل الجلاد
من الباب الذى يقع خلف منصة القضاء ، فإذا عاد ورك لى الجلاد
وجها لوجه] .

ورك : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلْ ؟

الجلاد : [فى وقار] أنا لا ينادىنى أحد برجل يا مولاي . أنا
أستاذ الجلادين فى مدينة رُوان ، والجلادة صناعةٌ صعبةٌ تحتاج
إلى حذق كثير . إني أتيت لأخبر مولاي أن أوامره قد انفذت .

ورك : أسأل عفوك ومعدرتك يا أستاذ الجلادين . لقد
صانع عليك ما كنتَ تبغى للناس من بقايا القتيلة ، ولكنى
سأعوضك عن هذا . أنت وعدتني أنك لن تُبقي على شيء منها ،
فلا عظمة ولا ظفر ولا شعرة .

الجلاد : إن قلبها أبى أن يحترق يا مولاي ، ولكن كل

ما تخلفَ منها فهو في هذه الساعة في قاع النهر . لقد سمِعتَ
يا مولاي آخرَ ما يُسمَعُ عنها .
ورك : [في ابتسامة مرّة ، وهو يذكر ما قال لدفينو] آخرَ
ما يُسمَعُ عنها ؟ ليت شعري أهذا آخره !

المنظر الختامى

[ليلةٌ عصبية من ليالى يونيه عام ١٤٥٦ ، شديدة الريح مضطربة ، جاءت بعد أيام شديدة الحرّ من أيام الصيف ، فكثرت من أجل ذلك برقعها ودوّى رعدُها . أما المكان فحجرة نوم فى قصر ملكيّ بها سرير رقد عليه شارل السابع ملك فرنسا ، وهو المعروف قديماً بالذوّفين . أما الآن فلقبوه شارل الفاتح . وهو فى عامه الحادى والخمسين . وفى أوسط الحجرة نافذة شكل أعلاها كسَنّ الرمح . وقد وضع السرير على مِنصّة ترتفع عن الأرض درجتين ، وذلك فى جانب من جوانب الحجرة لكي لا يحجب النافذة . وأظلت السرير مظلةٌ نُقِشت عليها شارة الملك . ولولا هذه المِظلة ، ولولا وسادات من الريش هائلة ، لما فرّق الإنسان بين هذا السرير وبين أريكة عريضة فُرِشت عليها ملاءاتٌ وعُلّقت ستائر . من أجل هذا كان النائم مكشوفاً كله للناظر إليه من ناحية رجله] .

[ولم يكن شارل نائماً ، بل كان راقدًا يقرأ فى فراشه ، أو على الأصح كان يطالع صُوراً فى كتاب لفوكيه^(١) ، وقد ثنى ركبتيه ليتخذ منها للكتاب مسنداً . وكان إلى يساره ، إلى جانب السرير ، منضدةٌ عليها صورة للعذراء مريم تضيئها شموع مصبوعة . وعلى الحوائط عُلت ستائر

(١) هو جان فوكيه Jean Fouquet رسام فرنسى شهير من الذين أسسوا الفن الفرنسى ولد فى عام ١٤١٥ ومات فى عام ١٤٨٠ . وصور لشارل السابع صورة مطقة اليوم فى متحف اللوفر بباريس فهو من معاصريه .

منقوشة فسترتها من السقف إلى الأرض ، وكانت تضطرب في هب الريح . وكانت هذه الستائر المصوّرة أبين ألوانها الأصفر والأحمر ، فكلما انفرجت مع الريح تراءت للنّاظر أوّل وهلة كأنها ألسنة اللهب .

[وكان باب الحجرة على شمال شارل وأمامه ، قريبا من أبعد ركن منه . وكان في الفراش ، في مُتناول يده ، جرسٌ جميل الصنع مزوّق كالذى يستخدمه الخفراء للانذار إذا أوجسوا خيفة] .

[ويقلب شارل صحيفة من الكتاب . وتدقّ ساعة بعيدة دقا يُسمَع خفيفا يؤذن بانتصاف الساعة . فعندها يطبق شارل الكتاب ، فيُسمَع صوت إطباقه ، ثم يرمى به جانبا . ثم يمد يده إلى الجرس فيهبه هزّا عنيفا فيحدث صوتا يُسمّى الآذان . عندئذ يدخل لدفينو على الملك ، فيمشى إليه مشية انتأد فيها الصلابة والغرابة ، وقد تقدم به السن خمسة وعشرين عاما فوق ما عهدناه ، وهو لا يزال يحمل الصليب الذى كان حمّله في رُؤُوف عند ما حُرقت جان . ولم يكن شارل ينتظره ، فهو لذلك يفزع منه ويرمى بنفسه خارجَ سريره إلى الجانب البعيد عن الباب] .

شارل : من أنت ؟ أين وصيف الحجرة ؟ ماذا تريد ؟
لدفينو : [وهو جادٌ متوقّر] إني آتيك بأخبار عظيمة سارّة ، فافرح أيها الملك ، فاللّوثة التى فى دمك قد طُهِرت ، والوصمة التى بتاجك قد غُسِلت ، والعدل الذى تأخّر طويلا ، قد فاز أخيرا .

شارل : من أنت ؟ وما الذى تقوله ؟

لدفينو : أنا الأخ مرتان .

شارل : ومن يكون الأخ مرتان ، ولا مؤاخذه ؟

لدفينو : أنا الذى حملتُ هذا الصليب لما أحرقت الفتاة .

وقد مضى الآن على إحراقها خمسة وعشرون عاماً : نحو من عشرة آلاف يوم . وفى كل يوم من هذه الأيام دعوت الله أن يبرئ فتاته على الأرض كما برأها فى السماء .

شارل : [وقد عاد إليه اطمئنانه فجلس على ذيل السرير] أى نعم

أذكر الآن . لقد سمعتُ باسمك . إن بك مسأ من الفتاة

لا يفارقك . أحضرت التحقيق ؟

لدفينو : وشهدتُ فيه ؟

شارل : هل انتهى ؟

لدفينو : نعم قد انتهى .

شارل : بخير ؟

لدفينو : إن لله طرائق غريبة .

شارل : وكيف هذا ؟

لدفينو : فى المحاكمة القديمة قضى القضاء بالزندقة على قديسة ،

فأُرسِلت بسبب هذا إلى النار لتلقى جزاء الزندقات الساحرات .

ففى تلك المحاكمة جرى الحق على السنة القائلين ، واجريت
الإجراءات فى حدود القانون ، وبُذِلَ للفتاة فوق المألوف من
رحمة الراحين ، فلم يقع فيها من أخطاء إلا ذلك الختام الأسود
من حُكم كاذبٍ ونارٍ تأكل ولا ترحم . أما فى هذه المحاكمة
الحاضرة التى خلقتها الآن ورأى فقد وقعت فيها الأيمان الحائنة ،
والدعاوى الكاذبة ، ووقع فيها الفساد مزوّقا ، ووقع فيها تجريح
لموتى قاموا فى إخلاص بما تراهى لهم أنه الواجب الذى لا مَرِيةَ
فيه . ووقع فيها غير ذلك يامولاي خروج عن موضوع القضية
سوّل إليه الجبن ، ووقعت شهادات بأقاصيص لا تجوز على أبله .
ولكن أتدرى ماذا خرج من هذا التلوّث للقضاء ؟ ومن هذا
التشنيع على الكنيسة ؟ ومن هذا المعتك الذى غلب فيه الكذبُ
والغباء ؟ خرج منه الحق أبْلَجَ واضحا كأنه قة الجبل والشمسُ
من فوقه . خرج منه ثوب البراءة ، وقد غُسل ما عليه من سُخام
الحطب . خياة القديسة مُجِّدت . والقلب الصادق الذى عاش
رغم النار قد قُدّس . والأكذوبة الكبرى قُطِعَ لسان من
افتراها إلى الأبد . والغلطة المظلمة قد صُحِّحت أخيراً على مشهد
من الناس أجمعين .

شارل : يا صديق ، ما دام أن الناس لن تقول الآن إن التى

تَوَجَّهْتُ سَاحِرَةً زَنَدِيقَةً ، فَلَسْتُ أَبَالِي كَيْفَ حَلَلْتُمْ الْمَقْدَةَ .
وچَان مَا كَانَتْ لَتَبَالِي مَا دَامَ الْخَتَامُ طَيِّبًا . إِنَّمَا لَمْ تَكُنْ مِنْ هَذَا
الصَّنْفِ الْمَتَزَمِّتِ . إِنِّي أَعْرِفُهَا جَيِّدًا . وَالْآنَ هَلْ تَمَرَّدُ اعْتِبَارَهَا
إِلَيْهَا ؟ إِنِّي أَوْضَحْتُ لَهُمْ أَنِّي لَنْ أَقْبَلَ هَوَادَةَ فِي هَذَا .

لَدَقِينُو : نَعَمْ ، فَقَدْ أَعْلَنُوا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ أَنَّ قَضَاتِهَا
الْأَقْدَمِينَ كَانُوا مُفْسِدِينَ غَشَّاشِينَ نَصَّابِينَ حَقُودِينَ . أَرْبَعَةَ
أَكَاذِيبَ يَا مَوْلَايَ .

شَارْلُ : لَا تَحْفَلْ بِهَذِهِ الْأَكَاذِيبِ فَقَضَاتِهَا قَدْ مَاتُوا .
لَدَقِينُو : لَقَدْ أَلْنِي الْحُكْمَ الْقَدِيمَ الْإِنَاءَ تَامًا ، وَاعْتَبِرْ كَأَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ فَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا أَثَرَ .

شَارْلُ : هَذَا جَمِيلٌ . إِذَنْ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْآنَ أَحَدٌ أَنْ يَتَحَدَّى
صِحَّةَ تَتْوِيحِي ؟

لَدَقِينُو : تَتْوِيحُكَ الْآنَ كَتَتْوِيحُ الْمَلِكِ دَاوُودَ وَشَرْلَمَانَ .
كُلُّهَا فِي الْقُدْسِيَّةِ سِوَاهُ .

شَارْلُ : هَذَا غَايَةُ الْأَمَلِ . تَصَوَّرْ خَطَرَ هَذَا عِنْدِي .
لَدَقِينُو : إِنِّي أَتَصَوَّرُ خَطَرَهُ عِنْدَهَا .

شَارْلُ : إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ عَرَفَ كَيْفَ
كَانَتْ تَقْوُومُ الْأَشْيَاءِ . إِنَّمَا مَخْلُوقَةٌ اخْتَلَفَتْ عَنْ كُلِّ النَّاسِ . وَهِيَ

لا بد كافلةً أمورَ نفسها بنفسها أينما حلتْ ، فأنا لا أستطيع أن أرهاها ، وأنت لا تستطيع أن ترعاها ، ومهما ظننتَ بها ، فأنتَ في نظرها دائماً دونها قدرأ . أنصتَ إلى ما أقوله فيها واحفظه عني : إنك لو استطعتَ بعثها من جديد فأنا ضامن لك أن هؤلاء الناس يحرقونها في ستة أشهر أو دونها برغم ما هم فيه اليوم من حبها وتقديسها ، وأنك ستقوم بحمل الصليب عند حرقها كما فعلتَ في المرة الأولى ، فاقطع ما بينك وبينها ، ودعها وشأنها [يصب على نفسه] مستريحةً في قبرها ، ودعنا من الخوض فيها ، فحسبك شؤوك وحسبي شؤوني .

لدينو : أعوذ بالله من قطعة تمنعني حظي منها ، أو تمنعها حظها مني . [ثم هو يدور فيتجه إلى الباب ليخرج في خطى واسعة ، كما دخل أولاً ، وهو يقول] مِنَ الْآنَ لَنْ تَطَأَ قَدِي أَرْضَ الْقُصُورِ وَلَنْ يَجْرِيَ لِسَانِي بِالْحَدِيثِ إِلَى الْمُلُوكِ .

شارل : [يتبعه إلى ناحية الباب وهو يصيح خلفه] أرجو لك الخير الكثير من ذلك يا ولي الله ! [يعود إلى وسط الحجرة ، ثم يقف يحدث نفسه] إن هذا رجل عجيب . كيف يا تُرى دخل هنا ؟ أين رجالى [يذهب جازعاً إلى السرير فيهر الجرس . وعندما تهب في الحجرة من الباب المفتوح هبةٌ من الريح تضرب لها الحوائط اضطراباً ،

وتنطقُ الشموعُ فينادى في الظلام [هالو ! أحداً يَدْخُلُ فيُغلقُ النوافذ
فالريح تطير بالأشياء . [يلع البرق قضى النافذة ، فتظهر فيها صفحة
من شبح إنسان] من هذا ؟ من هنا ؟ المعونة ، النجدة ! قاتل !
قاتل ! [يقصف الرعد ، فيقذف بنفسه في السرير ويتستر فيه بالحائف] .
صوت جان : مهلا يا شارلُ مهلا . ما هذا الصراخ . إنه لن
يسمعاك أحد . أنت نائم [تترامى جان إلى جوار السرير في غير وضوح
كبير في ضوء أخضر باهت] .

شارل : [يطلُّ من تحت اللحاف] جان ! أنتِ روحها يا جان ؟
جان : ولا هذه يا فتى . كيف تكون روحٌ لفتاة مسكينة
محروقة ؟ إنما أنا حلمٌ أنت حالمه [يزيد الضوء ، ويمتدل شارل ويجلس ،
فيظهر الاثنان ظهراً بيّناً] أنت أكبر مما كنت يا فتى .
شارل : نعم قد زادت سنى . ولكن حدثيني ، أحقا أنا نائم ؟
جان : غلبك النوم وأنت تقرأ في كتابك السخيف .
شارل : هذا عجيب .
جان : أعجب منه أنى ميتة .
شارل : أحقا أنت ميتة ؟
جان : ميتةٌ كأنتم ما مات إنسان . لقد خرجتُ عن
جسدى .

شارل : عجيب جداً والله . هل آلمك كثيرا ؟

جان : ما الذى آلمنى كثيرا ؟

شارل : الحرق .

جان : آه ! الحرق ! إنى نسيت فما أكاد أذكر . أظن أنه آلمنى أولاً ، ولكن بعدها اختلطت الدنيا فلم أسترجع صوابى إلا بعد أن خَلَصْتُ من جسدى . ولكنى أوصيك ألا تلعب بالنار فلنا منك أنها لا تؤلم . كيف حالك من بعدها ؟

شارل : حال لا بأس به . أتعلمين أنى قُذْتُ جيشى بنفسى وكسبت وقائع ؟ ونزلت فى الخندق ، فى الماء والدماء ، إلى خصرى ؟ وصعدت السلم على جذران القلاع والسماء تمطر حجرا وقطرانا ساخنا من فوق ؟ فعلتُ ما كنت تصنعين يا جان . جان : حقا ! إذن فقد خلقتُ منك رجلا بعد يأس طال يا عزيزى شارل .

شارل : أنا أسمى الآن شارل الفاتح . لقد وجب أن أشجع لأنك كنت شجاعة . كذلك أجنس Agnes حبثنى بعض الشجاعة .

جان : أجنس ؟ مَنْ أجنس ؟

شارل : أجنس سُو ريل Agnes Sorel . إنها المرأة التى

أحييتها . أنا أحلمُ بها كثيراً — أنا لم أحلم بك قبل الآن أبدا .
جان : هل ماتت مثلى ؟

شارل : نعم . ولكنها لم تكن مثلك . إنها كانت جميلة جدا .
جان : [تضحك ملء فيها] ها ، ها ! أنا لم يكن بي جمال .
أنا كنت دائما جلفة جافية ، جنديّة في جنود ، حتى كدت أكون
رجلا ، وباليثني . فعندها ما كنت أحدثُ لكم جيما كل هذه
المتاعب . ولكن همّي كان في السماء ، ومجدُ الله ملء نفسي .
فرجلا كنتُ أو امرأة ، لم يكن بدّ من إزعاجكم ما ظلت
أنوفكم في الوحل مغروزة . وعلى كل حال قلّ لي ماذا جرى بعد
أن ضاقت بكم الحيلُ معشرَ الحكماء فلم تجدوا منها خلاصا إلا أن
تصنعوا مني كومةً من رَماد .

شارل : إن أمك وإخوتك طلبوا إلى المحاكم أن يعيدوا
النظر في قضيتك . فقضت المحاكم بأن قضاتك الأقدمين كانوا
مفسدين غشّاشين نصّابين حقودين .

جان : إنهم ما كانوا كذلك . إنهم كانوا جماعة من جهّال
مساكين لم يقلّوا إخلاصا عن نظائرهم ممن قضوا بحرق مخلوقات
هى خيرٌ منهم .

شارل : إن الحكم الذى أصدره عليك قد ألقى الإناء ومُسح

مسحا ، فهو ممدوم كأن لم يكن ، فلا قيمة له ولا أثر .
جان : أنا أُحْرِقْتُ على كل حال . أَيْسْتطيعون إلغاء ما كان
من حرقى ؟

شارل : إنهم لو استطاعوا إلغاءه لترددوا فيه . إنهم قرروا أن
يقام صليب جميل حيث قام جِذْع الحريق ، وذلك للرحمة والذكرى .
جان : إن الصليب لا يبرِّز الرحمة والذكرى ، بل الرحمة
والذكرى هما اللتان تبرِّران الصليب . [تدور مشيخة عنه ، وقد غفلت
عنه] إني سأعيش في الناس فوق ما يمشى هذا الصليب .
وسيدكرني الناس إذا أُمِحتْ رُؤُوفُ فِلم يذكروا أين قامت .
شارل : ها أنتِ تروحين وغرور يومك كغرور أمسك ،
لم ينقص أبدا . كان بك أولى وأجل أن تشكري لى صنيعى أن
حَقَّقْتُ لك المدالةَ أخيراً .

كوشون : [يظهر عند النافذة ، بينهما] كذبت !

شارل : أشكرك .

جان : من هذا ؟ لكأني به بطرس كُوشُون ! كيف حالك
يا بطرس ؟ وأى القِسَم أعطاك الزمان بعد أن أحرقتنى ؟
كوشون : قِسمةُ السوء . إني أشكو عدل الإنسان . إنه
ليس من عدل الرحمن .

جان : ألا تزال تحمل بالعدل يا بطرس ؟ ألم تر ما جرّه العدل
على ؟ ولكن قل لى ماذا جرى لك ؟ أحمى أنت أم ميت ؟
كوشون : ميتٌ مهتوك العرض مَهِين . لقد تَبِعُونى وراء
الموت ، فنبشوا قبرى ، واستخرجوا جسدى ورمّوا به فى
المجارى التى تحمل أقدار الناس .
جان : جسدك الميت لم يُحسّ المَولَ ولا المجارى كما أحسّ
النارَ جسدى الحى .

كوشون : ولكنها قَعْلَةٌ تؤلم العدالة ، وتفسد الإيمان ،
وتزعزع أركان الكنيسة . إن هذه الأرض الجامدة لَتَمِيدُ
كالبحر الخوّان تحت أرجل الرجال ، أجسادهم وأرواحهم على
السواء ، إذا ما قُتِلَ الأبرياء باسم القانون ، ثم بُرِّتْ ساحتهم بتجريح
قوم بيض القلوب أظهار .

جان : على كل حال ، أرجو يا بطرس أن يَصْلَحَ الناس على
ذكرى . وهم ما كانوا لِيَذْكُرُونى لولا أنكم أحرقتُمونى .

كوشون : سَيَفْسُدُ الناس على ذكرى ، فهم سيرون فى
الشرّ ينتصر على الخير ، والكذب على الصدق ، والقسوة على
الرحمة ، وجَهَنَّمُ على الجَنَّةِ . فهم إذا ذكروك انتعشت قلوبهم ،
وهى تنخور إذا ذكرونى . ومع هذا فالله يعلم أنى كنت عَذْلاً فيما

قضيت ، رحيا فيما أتيت ، مخلصاً في قرارة قلبي الذي ارتأيت ،
وما كان في ملوكي أن أصنع غير ما صنعت .

شارل : [يخرج من ألحفته في غير نظام ، ويجلس على جانب السرير
جلسته على سرير الملك] نعم ، نعم . إن أكبر الفساد يأتي منكم أنتم
معشر الرجال الأخيار . انظر إلى . أنا لست شارل الخبير ، ولست
شارل الحكيم ، حتى ولا شارل الكاسر . بل إن عبّاد جان قد
يسمونني شارل الجبان لأنني لم أنتشلها من النار . ولكني مع كل
هذا لم أفسد في الأرض كما أفسدتم . أنتم أيها الناس تضعون
رؤوسكم في السماء ثم تنظرون ، فتحسبون الدنيا قد انقلبت رأساً
على عقب ، فتتفقون العمر لتعدلوها ، فإذا بكم تقلبوها . أما أنا
فأخذُ الأشياء كما وجدتُها . فرؤوس الأشياء ما أجده في أعاليها ،
وأرجلها ما أجده في أدانيها . وأحاول دائماً أن لا أرتفع ببصري
كثيراً عن هذه الأرض . إني أسألكم برغم ما تأخذونه عليّ ،
هل وجدتم أن ملكاً من ملوك فرنسا فعل خيراً مما فعلت ،
أو أحسن فيما قدّره الله عليه فوق ما أحسنت ؟

جان : آنت ملك فرنسا الآن حقا يا عزيزي شارل ؟
أذهب الإنجليز عنكم ؟

دنوا : [يدخل بين الستائر على يسار جان ، فتشتعل الشموع من

ذات نفسها فتضى درعه وعباءته فيُشيعان البهجة في المكان [لقد
أنفذتُ وعدى . قد ذهب الإنجليز .

جان : حمدًا لله ! ففرنسا الجميلة اليوم بُقعةٌ من بقاع الجنة .
حدثني عن الحرب يا چاك . هل أنت الذى قُذت الرجال ؟ هل
بقيتَ تقود جنود الله إلى يوم موتك ؟

دنوا : أنا لم أمت بعد . إن جسمى نائمٌ مرتاح في فراشى في
شَتودان Chateaudun . إن روحك استدعتُ رُوحى هنا .

جان : قل لى هل حاربتم على طريقي يا چاك ، لا على
الطريقة المتينة التى كان حمها المزايدة في الفداء ؟ هل حاربتم على
طريقة الفتاة : تخاطرتم بالأنفس في سبيل الموت بقلوب مليئة
بالشجاعة فارغة من الأحقاد ، لا يهتمها بعد الله غير فرنسا حرةً
والفرنسيين أحراراً ؟ أكانت طريقي يا چاك ؟

دنوا : كانت آيةً طريقة خلناها تؤدي إلى النصر . ولكن
الطريقة التى نجحت دائماً كانت طريقتك ، فأعلمي أنك أحسنت
الإحسان كله يا جان . إنى كتبت عنك كتاباً جليلاً أرسلته إلى
الحكمة عندما جددوا عما كتبتك ليردوا الأمور إلى نصابها . لعل
أخطأت لما تركت القسسى يحرقونك ، ولكنى كنت مشغولاً
عنك بالحرب ، ورأيت أن هذا من شغل الكنيسة لا شغلى . ولم

أجد نفعا في أن تُحرق نحن الاثنين . أم ماذا ترين ؟
 كوشون : نعم ، نعم ، ألقى باللائمة على القساوسة . إنى أقولها
 قولة مَنْ أصبح لا يطلب المديح ، ولا يخشى أن يُذمَّ بالقبيح :
 إن خلاص الدنيا لا يتحقق على أيدي الجند ولا أيدي القساوسة ،
 ولكن على يد الله وقدسيه الأطهار . إن كنيسة الله في أرضه
 قد أرسلت هذه المرأة إلى النار ، ولكن النار شتت ، حتى وهذه
 المرأة تحترق فيها ، فكانت وهاجة كالسراج ، واندلعت ألسنتها
 يضاء تعلن نصر الكنيسة في السماء .

[تدق الساعة ثلاثة الأرباع ، فيُسمع صوتُ خشن ذَكَرٌ يغنى بملء
 فيه أغنية مرتجلة] :



طَم . طَم . بَرَبَرَطَم . لَحْمٌ سَمْنٌ سَلَقَمَ طَمُ
 قَدِيسٌ مَعُوجُ الْقَمِّ أَزَعْرُ هَوَزُ بَعْرُورَمُ
 شُرْمُ بُورَمُ ، بَرَبَرَطَمُ

[يدخل من بين الستائر جندي انجليزى غليظ الظهر عريده ،

فيمشى بين جان ودنوا]

دنوا : أى شعرور خيبت علمك هذا الشجر الخسيس ؟

الجندي : ليس في الأمر شاعر ، بل نحن الذين ألقناه ونحن
نسير في الصفوف . ولسنا من الأعيان ولا من الشعراء ، بل هي
الموسيقى تتدفق بالطبيعة من قلوب الشعب :

طَمْ ، طَمْ ، بَرَبَزْ طَمْ لَحْمٌ سَمْنٌ سَلَقَمْ طَمْ
قَدِيسٌ معوج الفم أَزْعَرُ هَوَّزٌ بَعْرُورَمْ

فهذا كلام فارغ لا معنى له ، ولكنه يقوينا على السير .
سيداتي وسادتي ، أنا طَوْعُ أمركم . من منكم طلب قديسا ؟
جان : هل أنت قديس ؟

الجندي : نعم سيدتي ، قديس جاء توّا من جهنم .
دنوا : قديس من جهنم !

الجندي : نعم ، أيها الضابط النبيل . أنا في يوم إجازة من
إجازاتي . إن لي يومَ إجازةٍ كلِّ عام . هذا جزائي الوحيد عن فَعَلَةٍ
الخير الوحيدة التي فعلتها في حياتي .

كوشون : أيها الشقي ، أفى كلِّ سِنِي حياتك لم تفعل
إلا حسنة واحدة ؟

الجندي : أنا لم أفكر فيها ولم أقصد إلى عملها ، فهي إنما
جاءتني بالطبيعة ، ولكنهم حسبوها لي .

شارل : وما هي ؟

الجندي : فعلةٌ كأُسخف ما تكونِ الفعلات ، كنتُ ...

چان : [تقطع عليه الحديث ، وتخطو إلى السرير وتجلس إلى جنب شارل] إنه ربط عودين معا وأعطاهما لفتاة كانت على وشك أن تحرق .

الجندي : هذا صحيح ، فمن أين جاءك الخبر ؟

چان : لا بُدَّ لي من أن أتعرفها إذا رأيته ؟

الجندي : لا يستطيع مثل أن يعرف كل الفتيات . إن الفتيات كثيرات ، وكلهن ينتظرن من الرجل أن يذكرهن كأنما الدنيا بها فتاة واحدة . ولكن هذه الفتاة التي أحدثكم عنها لا بد أن كانت من صنف ممتاز ، لأنني من أجلها أستمع يوم إجازة كل عام . أنا الآن طليق إلى الساعة الثانية عشرة تماما ، وفي هذه الفترة أنا قديس ، فأنا في خدمتكم وطوع أمركم ياسادتي النبلاء وياسيداتني الجميلات .

شارل : وبعد الساعة الثانية عشرة ؟

الجندي : بعد الساعة الثانية عشرة أعود إلى المكان الأوَّل

بأمثالي .

جان : [تهض] تمود إليه ! أنت ! أنت الذى أعطيت
الفتاة الصليب ؟

الجندى : [يمتذر عن فعلته كأنها عمل لا يليق بالجنود] ، وماذا
كنت أصنع . إنها هى التى طلبته . وكانوا على وشك إحراقها .
وكان حقها فى الصليب كحق أيهم . وكان لديهم عشرات من
الصلبان . وكانت البليّة بليتها لا بليتهم . فأى ضرر فى هذا ؟
جان : أيها الرجل ، أنا لا أؤمك . ولكنى لا أطيق أن
أتصور أنك ستذهب إلى هذا العذاب .

الجندى : [فى ابتهاج] إنه ليس بالعذاب الكبير يا سيدتى .
تفسير هذا أنى تعودتُ عذاباً أكبر .

جان : عذاب أكبر ! أكبر من جهنم ؟

جندى : خمس عشرة سنة قضيتها فى حروب فرنسا ، ثم
جاءت جهنم بمدّها فكانت نعمة بالنسبة إليها .

[ترفع جان يديها توسلاً إلى الله ، وتذهب إلى صورة العذراء تطلب
فى كنفها الوفاة من يأس الإنسانية] .

الجندى : [يستمر] إن جهنم لسبب ما وافقتى . ويوم إجازتى
كان علىّ ثقيلًا فى البدء كأنه يوم أحدٍ كثيرٍ المطر . ولكنى

اعتدته الآن . إنهم يقولون لى إنى أستطيع طلب إجازات غيره بمجرد إحساسى بالحاجة إليها .

شارل : كيف يجد المرء جهنم ؟

الجندى : لن تجد فيها كثيراً مما تكره يا سيدى . جوها مفرح . كأنك سكران دائماً دون أن تدفع للخمر ثمننا . وصُحبة من أرقى طبقة : أباطرة ، وبابوات ، وملوك من كل صنف . وهم ينتهروننى لأننى أعطيت الصليب لتلك الفتاة اللعناء . ولكنى لا أعبأ بما يقولون . وأنهى لهم فأقول : إن هذه الفتاة اللعناء لها حق فى الصليب فوق حقكم ، فلو لم يكن لها هذا الحق لكانت هنا فى جهنم مكانكم . وهذا يقطع ألسنتهم ، فلا يستطيعون إلا تحريق أضراسهم ، على طريقة أهل جهنم ، فأضحك منهم ، وأنصرف عنهم وأنا أغنى أغنى القديمة : طَمْ ، طَمْ ، بَرَبْرَ طَمْ —

هالوا ! من ذا يقرع الباب ؟

[ينصتون ، فيُسمع صوتُ قرع خفيف متصل] .

شارل : أَدْخُلْ .

[يفتح الباب ويدخل قسيس عجوز أشيب ، وقد تقوس ظهره ، وارتمت على فمه ابتسامة فيها البلاهة ممزوجة بحب الخير . يدخل ويعدو إلى جان] .

الزائر الجديد : عفواً سادتي وسيداتي . لا أود أن أقطع
عليكم ما أنتم فيه . أنا قسيس إنجليزى مجوز مسكين لا يُخشى منه
ضرر . كنت فى سابق أيامى قسيساً للكرد نال : لمولاي كرد نال
ونشستر . أنا چون دى استوجبر ، فى خدمة أسيادى . [ينظر
فيهم متسائلاً] هل قلم شيئاً ؟ أنا متأسف لأنى أصمُ بعض الشيء .
كذلك فى شيء — كيف أقول — نعم ، قد لا يكون لعقلي دائماً
كل صوابه . ولكن هذا لا ضرر منه ، فالقرية صغيرة وسكانها
قليلون ، وأنا فى الكفاية . نعم فى الكفاية . إنهم فيها يحبوننى ،
وأنا بينهم أستطيع أن آتى ببعض الخير . ذلك أنى متصل بأهل
الجاه وهم يقبلون رجائى .

جان : مسكين يا چون . ماذا أدى بك إلى هذا الحال ؟
دى استوجبر : إنى أسأل أهل قريتى أن يكونوا على غاية
الحذر . أقول لهم : « إنكم إذا استطعتم أن تروا ما تفكرون
فيه ، لفكرتم فيه على خلاف ما تفكرون . إنكم لو رأيتموه
لهزكم هزة عنيفة . أى نعم ، هزة عنيفة جداً . فيقولون جميعاً :
« نعم يا أبانا ، إنا نعلم أنك رجل رحيم ، وأنتك لن تؤذى ذبابة » .
فهذا قول جميل يُريحنى كثيراً . أنا بطبعى لست رجلاً قاسياً .
الجندى : ومن قال إنك قاسى ؟

دى استوجبر : آه إني فملت فَمَلَّة قاسية مرَّة ، لأننى لم
أكن أعرف كيف تكون القسوة . لأننى لم أكن رأيته قط .
فترى من ذلك أنه لا بد لك من رؤيتها ، فإذا رأيته فقد نجوت
واهتديت .

كوشون : ألم يكن لك فى آلام المسيح عبرة كافية ؟
دى استوجبر : لا . لا . لا أبداً . إني رأيت آلام المسيح
فى الصور ، ورأيتها فى الكتب ، وتأثرتُ بها تأثراً كبيراً على
ما حسبت . ولكن لم يكن لشيء من هذا فائدة . فلم يَهْدِنِ
المسيح وما لاقاه من ألم ، ولكن هدتنى فتاة رأيته بعينى تُحرق
فتموت . منظر فظيع . أواه . فظيعٌ جداً . فهذا الذى هدانى .
وبعد صرت رجلاً غير الذى كنتُه قَبْلاً ، ولو أن صوابى يغيب
عنى أحياناً .

كوشون : أ معنى هذا أنه لا بد من مسيح يُعَذَّب ويُقَتَّل
فى كل جيل لِيَهْدِيَ مَنْ لا خيال لهم ؟
جان : إذا كنت باحتراقى قد نَجَّيت من كانوا يقعون تحت
عذاب هذا الرجل إذا هو لم يرنى أُحترق ، فوالله ما كان
حرقى عبثاً .

دى استوجبر : لا . لا . لست إياها . أنا نظرى ضعيف

فلا أستطيع أن أتميز ملاحك . ولكنك لست إياها . لا . لا .
إنها أحرقت حتى لم يبق إلا رمادها . إنها ماتت . ذهبت .
ذهبت .

الجلّاد : [يدخل من وراء ستارة السرير عن يمين شارل ، فيكون
السرير بينهما] إنها أكثر منك حياة أيها الرجل . إن قلبها أبى
أن يحترق ، وأبى أن يتقل في الماء فيغرق . إنى كنت أستاذاً في
صناعتي — كنتُ خيراً من جلّاد بارس ، وخيراً من جلّاد
تولوز ، ولكنى لم أستطع قتل الفتاة . إنها قائمة حية في كل مكان .
الإرل ورك : [يدخل خطف البرق من وراء ستائر السرير من
الناحية الأخرى ، فيقف إلى يسار جان] سيدتى ، تقبلى تهنئتي على ردِّ
اعتبارك . أحسُّ أن علىَّ لك اعتذاراً .
جان : ما عليك من شيء .

ورك : [فى لطف وانسراح] إن إحراقك كان إحراقاً سياسياً .
أوكد لك أنه لم يكن بينى وبينك كراهة شخصية .
جان : إن قلبي لا يحمل منك حفيظة يامولاي .
ورك : جميل منك أن تلقينى بهذا الكرم ، فهو دليل على
حسن النشأة وطيب الارومة . ولكنى لا بدّ لى من الإلحاح فى
اعتذار طويل . فالحق أن هذه الضرورات السياسية تنقلب أحياناً

فتكون أخطاء سياسية ، وهذه الضرورة بالذات كانت من أسوأ الأخطاء . فروحك يا سيدتى غلبتنا على أنفسنا برغم ما حملناه إليك من الخطب . والتاريخ سيدكرنى من أجلك ، لصلة أخشى أن لا تكون من أسعد الصلات .

جان : نم ، لم تكن بالضبط من أسعد الصلات أيها الرجل المهدار .

ورك : ومع هذا ، فهم إذا نصّبوك قديسة فسيرجع فضل هذا إلى ، كما رجع إليك الفضل فى تاج هذا الملك المبخوت .

جان : [تشيح عنه بوجهها] ليس لرجل فضل على ، والفضل كله لروح الله التى ملأتنى . ولكن كيف أكون أنا قديسة ! وماذا تقول القديسة كترينة والقديسة مرجريت إذا رأنا فتاة فلاحه تبحى فتأخذ مجلسا إلى جوارها .

[يظهر فجأة أمامهم فى الركن الذى على يمينهم رجل عليه سيا الاكليروس ، فى سترة سوداء وسروال أسود ، وعلى رأسه قبعة طويلة على أسلوب القبعات فى عام ١٩٢٠ . وعندهما يحدّقون فيه النظر ، ثم يعلهم الضحك فيقهقهون] .

الرجل : لم هذا الضحك يا سادة ؟

ورك : أهنتك على ابتكارك زيا بلغ الناية فى الإضحاك .

الرجل : أنا لا أفهم . إنكم جميعا فى ملابس من صنع أهوائكم
لبستموها للتشكر والتلّفى . أما أنا فى زىّ محشم .

دنوا : كل لباس من صنع الهوى ، وللتلّفى ، إلّا جلودنا .
الرجل : لا تؤاخذونى . أنا هنا فى صدّ واجب جدّى ،
فلا أستطيع أن أدخل فى مناقشات مستهترّة . [يُخرج ورقة ، ثم
يستقيم فى وقته استقامة جافة يقتضيا واجبه] إني أرسلتُ لأعلن فى
الملأ أن جان درك ، المشتهرة فيما مضى بالفتاة ، بناء على تحقيق
أمر به أسقف أرلين

جان : [تقاطعه] آه ! إنهم لا يزالون يدكرونى فى أرلين .
الرجل : [يؤكد الكلمات إظهاراً لغضبه من اللقطة] — أمر به
أسقف أرلين للنظر فى دعواها القداسة
جان : أنا لم أدع شيئا أبدا .

الرجل : [بمثل توكيده القائل] — قد بحثت الكنيسة دعوى
جان درك المذكورة بحثا دقيقا بالطريقة الممهودة . فبما أن
الكنيسة قد منحتها على التالى رتبة المحترمة ، ثم رتبة المباركة ،
فقد رأت أن تعلن فى الناس أنه كان لجان المذكورة صفاتٌ
للبطولة وتجلياتٌ للوحي اختصتها بها العناية الربانية ، ورأت أن
تدعو جان المحترمة المباركة المذكورة إلى الدخول فى شعب الدولة

المسيحية في السموات العلى باعتبار أنها القديسة جان . . .

جان : [في ذهل] القديسة جان !

الرجل : وبما أن اليوم الثلاثين من مايو هو يوم وفاة المذكورة بنت الله ، الطاهرة المطهرة ، فقد تقرر أن تُعقد لذكراها صلاة خاصة في كل كنيسة كاثوليكية في الثلاثين من مايو من كل عام إلى آخر الزمان . وقد أصبح من الجائز الذى يُقره القانون أن توهب المبادئ باسمها ، وأن تخصص لها ، وأن توضع صورتها على مذابح هذه الكنائس . وقد أصبح من الجائز الذى يقره القانون ويدعو إليه الدين أن يركع لها المؤمنون ، ويصلُّون بدعواتهم وصلواتهم عن طريقها إلى رب العرش في السموات العلى . . .

جان : لا ، لا إن القديسة هي التى تركع [تسقط على ركبتيها وهي لا تزال في ذهل] .

الرجل : [يُشهر الورقة وهو يتنحى جانب الجلاد] تحرّر في الكنيسة البازيليكية بالفاتيكان في اليوم السادس عشر من الشهر مايو من عام ١٩٢٠ .

دنوا : [يرفع جان] نصف ساعة كفّت لحرقك ، ولكن

لظهور الحقيقة فيك احتاج الناس إلى أربعة قرون يا قديسي
العزيزة .

دي استوجبر : سیدی ، أنا كنت مرة قسيس كردنال
ونشستر . وكانوا يلقبونه دائماً ويلخون في تلقيبه بكردنال انجلترا
فأنا وسیدی الكردنال نرتاح جميعاً إذا ارتفع للفتاة تمثال جميل
في كتدرائية ونشستر . فهل تظن أنهم يقيمون لها تمثالا هناك .
الرجل : لا أستطيع أن أقول ، فالكتدرائية التي تذكرت
مؤقتاً في أيدي الزنادقة الانجليكانيين .

[تظهر من النافذة صورة كالطيف للتمثال الموجود بكتدرائية
ونشستر] .

دي استوجبر : انظروا ! انظروا ! هذه ونشستر .
جان : أهذا تمثالي ؟ إنني كنت أصلب من هذا على رجلي .
[يخفي الطيف]

الرجل : قد سألت رجال السلطة الزمنية بفرنسا أن أذكر
أن تعدّد التماثيل للفتاة يكاد يسدّ حركة المرور . فأنا أذكر هذا
مجاملة لهم ، ولكن لن يفوتني أن أقول بالأصالة عن الكنيسة
إن حصان الفتاة لن يقف في سبيل الحركة ويشلّها أكثر من
غيره من الأحصنة .

جان : أنا معتبلة بأنهم لم ينسوا حصاني .

[يظهر طيف لتمثال كتدرائية رانس] .

جان : أهذا الشيء القليل المضحك أنا ؟

شارل : هذه كتدرائية رانس حيث توجّيتي . فهذا لا بد

عثالك .

جان : من كسر سيفي ؟ إن سيفي لم يكسر أبداً . إنه سيف

فرنسا .

دنوا : لا تحزني ، فالسيوف يمكن إصلاحها . إن روحك لم

تُكسر أبداً ، وأنت روح فرنسا .

[يختفي الطيف . وعندئذ يظهر المطران والمحقق على يمين كوشون .

وشماله] .

جان : إن سيفي لم تفرغ بعد فتوحاته ، وهو الذي لم يرتفع

لضربة أبداً . إن الناس أتلقوا جسدي ، ولكن رأيت الله بروحي .

كوشون : [يركع لها] إن الفتيات في الحقول يحمّدونك ،

لأنك رفعت أبصارهن فعرفن أن ليس بينهن وبين الله حجاب .

دنوا : [يركع لها] إن الجنّد يحمّدونك وهم يحتضرون ، لأنك

عنوان مجدهم يوم الدين .

المطران : [يركع لها] إن أمراء الكنيسة يحمّدونك ، لأنك

غسلت الملة من أحوال أصابها بها جثهم لدنيام .
ورك : [يركع لها] إن النصحاء المكرة الخبثاء يحمّدونك
لأنك قطعت العقد التي زمّوا بها أرواحهم .
دى استوجبر : [يركع لها] إن الرجال الشيوخ الحمقى
يحمّدونك وهم على فراش موتهم ، لأن سيئاتهم فيك انقلبت
حسنات .
الحقق : [يركع لها] إن القضاة في عمّاية القانون وأمره
يحمّدونك لأنك أطلقت رأى الفرد من قيده وروح الإنسان
من عقّالها .
الجندي : [يركع لها] إن الأئمة خارج جهنم يحمّدونك ،
لأنك أريتهم أنّ نار السعير التي لا تخمد أبداً نار مقدّسة .
الجلاد : [يركع لها] إن الجلادين والممذّبين يحمّدونك لأنك
أثبتت أنّهم أبرياء مما قتلت أيديهم من النفوس .
شارل : [يركع لها] إن المتواضعين غير الأدعياء يحمّدونك ،
لأنك حملت عنهم في شهامة أعباء ناموا بحملها .
جان : الويل للناس إذ يحمّدني الناس جميعاً . فتّقوا أذنانكم
واذكروا أنّي قديسة ، وأن القديسات تقدّر أن تأتى بالمعجزات .

والآن حدثوني بالذي ترون : هل أنهض من بين الأموات وأعود
فيكم إلى الحياة ؟

[ينهض الجميع مذعورين ، وعندئذ يهبط على المكان ظلام فاجئ
تتجى معه الحيطان فلا يرى إلا السرير والرجال] .

جان : ماذا جرى ! هل لا بد من حرق مرة أخرى ؟ أليس
لى عند أحدكم كنف رحيب ؟

كوشون : الموت خير للزناقة . إن عيون أهل الدنيا
لا تميز بين الزنيقة والتقديسة ، فارحمهم [يخرج من حيث أتى] .
دنوا : اعذرنا يا جان فنحن لا نزال غير أهل لك . أنا عائد
إلى فراشي [يخرج هو أيضاً] .

ورك : إنا نأسف على أخطائنا الصغيرة . ولكن الضرورات
السياسية لا بد منها ولو أخطأت أحياناً . لهذا تفضلني فأذني لى ..
[يخرج بخفة وقد تبين الحكمة فى الخروج] .

المطران : إن رجوعك لى يجعل منى رجلاً كالذى ظننتنى
إياه . وكل ما أقوله أنى إذا لم أجسر على مباركتك ، فإنى مع هذا
أرجو أن ينالنى حظ من بركتك . وإلى أن يحين أو ان هذا فإنى ...
يخرج .

المحقق : إنى فى الأموات ، وقد شهدت بأنك ساذجة بريئة

ولكنى مع كل هذا لا أرى كيف يمكن الاستغناء عن ديوان التحقيق والأحوال هي ما هي . لهذا ... [يخرج] .

دى استوجبر : أرجو أن لا تعودى . يجب أن لا تعودى فلا بد أن أموت مطمئنا . اللهم أنزل على عبادك السلام [يخرج] .
الرجل : إن رأى برجوعك إلى الدنيا لم يخطر لهم على بال عند ما نصبوك قديسة ، فلا بد لى من الرجوع إلى روما للحصول على تعليمات أخرى [ينحنى المحناة رسمية ثم يذهب] .

الجلاد : أنا جلاّدُ أستاذ في صناعتي ، فلا بد لى من التفكير فى صالح مهنتى . وعلى كل حال فواجبى الأول لأولادى وزوجتى .
أمهلينى للتفكير [يذهب] .

شارل : عزيزتى المسكينة جان . لقد هربوا منك جميعاً إلا هذا الجندى الحقير الذى لا بد له أن يعود إلى جهنم إذا انتصف الليل . فإذا بقى لى أنا أن أصنعه إلا أن أتبع دُنُوا فأذهب إلى فراشى كما ذهب [يذهب إلى سريره] .

جان : [وهى حزينة] طاب لك الليل يا شارل .

شارل : [يتنم كالنفسان وقد دفن رأسه فى وسادته] طاب ليلك [يذهب فى النوم فَيَلْفُ الظلامُ سريره] .

جان : [إلى الجندي] وأنت يارجائي الوحيد ، ماذا عندك من السلوى للقديسة جان ؟

الجندي : قولى لى ، ما قيمة هؤلاء الملوك والضباط والأساقفة والمحامين وأمثالهم ؟ إنهم يتركون الجنديّ منا فى الخندق يَدْعَى إلى أن يموت ثم هم يَلْقَوْنَهُ بعد ذلك فلا يمجّد منهم إلا خدوداً مصعّرة وأوقافاً عالية . إنى أرى أن حقك فى التمسك بأرائك مثل حقهم فى التمسك بأرائهم ، أو هو أكبر من حقهم [يجلس كن استقرّ لإعطاء محاضرة طويلة فى الموضوع] . المسألة يمكن إيضاحها على النحو الآتى . فإذا . . . [تُسمَع الساعة من بعيد تدقّ الدقة الأولى مؤذنة بانتهاء الليل] لا تؤاخذينى . موعدٌ لا بد من وفائه [يخرج على أطراف أصابعه] .

[تتجمع الشعاعات المختلفة من النور فتتركز على جان ، من فوقها ، فتترأى بيضاء ناصعة البياض . أما الساعة فتدوم على دقاتها] .

جان : أى ربّ ، وقد خلقت هذه الأرض الجميلة ، متى تستقبل هذه الأرضُ قديسيك بالترحاب ؟ متى يارب ، متى ؟

« النهاية »

مقدمة المؤلف^(١)

جان ذات السجايا الأصيلة والطبع المتفطرس

جان دَرُكْ ، فتاة قروية من القوج^(٢) Vosges ، وُلدت في نحو عام ١٤١٣ ، وأُحرقت بتهمة الزندقة والسحر والعرافة في عام ١٤٣١ ، وُبرئت ساحتها نوعاً ما ، وأعيدت إلى شيء من مكاتها عند الناس في عام ١٤٥٦ ، ولُقِّبت « مكرمة » عام ١٩٠٤ ، وأذن في الناس بأنها « مباركة » في عام ١٩٠٨ ، ثم قُدِّست أخيراً في عام ١٩٢٠ .

وهي أشهر مجاهدة قديسة في تاريخ النصرانية ، وأغرب شخصية بين الكفايات الممتازة الشاذة الأطوار في القرون الوسطى . وكانت تمنتق الكثلركة باعترافها ، وكانت شديدة التقوى فيها ، وبدأت حرباً شعواء على أتباع هوس^(٣) Hus ، ولكنها

(١) لم نُؤخر هذه المقدمة عن الرواية في الطبع لأنها دون الرواية قدراً .
فقد مات برناردشو لرواياته تأليف تصلح أن تستغل بذاتها من حيث أقدارها . ولكن أخرناها ليكون القارئ أنهم لها بسد قراءة الرواية . وفي المقدمة ما يدل على أن كاتبها يفرض أن القارئ عالم بها أو أنه رآها تمثل على المسرح .

(٢) مقاطعة شرقية من مقاطعات فرنسا .

(٣) هو المصلح الديني المتهير ، ولد في بوهيميا عام ١٣٧٣ وأُحرق حياً =

مع كل هذا كانت في الواقع من شهداء البروتستنتية السابقين وكانت كذلك إحدى رُسل الوطنية الأولين . وكانت من الفرنسيين أول من طبق المذهب الواقعي في الحرب على نحو ما فعل نابليون ورفضت أسلوب زمنها في القتال ، وقد كان على نظام الفَراسة والفرسان رياضةً ولهواً ، وكان رهاناً ومقامرة ، يأسرون فيه ويؤسرون ، فيقتدون ويُفتدون ، ثم يعودون بالفدى إما كاسيين وإما خاسرين . وكانت أول من ارتأت رأياً جديداً في زى النساء : أن يبدلن ملابسهن بملابس أليق بهن وأوفق لهن . ورفضت أن يكون لها حظ النساء فاعشت كالرجال تلبس ما يلبسون وتحارب كما يحاربون ، فسبقت في ذلك الملكة كريستينا^(١) ملكة السويد بقرنين ، دع ما كان من الفارس ديون^(٢) Chevalier D'Eon ومن العدد العديد من بطلات أنثيات

= من أجل تعاليمه عام ١٤١٥ . تعلم في جامعة براغ ثم كان مدرساً فيها ثم عميداً للكلية الفلسفة بها ثم مديراً للجامعة . وطرده البابا من الكنيسة صرغين ثم حوكم وأُحرق وذرى رماده في نهر الرين .

(١) هي ملكة السويد ولدت عام ١٦٢٦ وماتت عام ١٦٨٩ . تولت الملك وسنها ١٨ سنة وأحسنّت فيه إحساناً كبيراً وكانت ترحى العلوم والفنون وأربابها . وطلبت رعيتهما منها أن تزوج فرفضت الزواج كرهاً له . وتزوجت عام ١٦٥٠ واتخذت لنفسها لقب « ملك » . وفي عام ١٦٥٤ اعتزلت الملك وساحت بقية عمرها في أوروبا واعتنقت المذهب الكاثوليكي فيها .

(٢) هو فرنسي ذو شخصية غريبة تفوق فارساً وقانونياً ودبلوماسياً . ولد =

خاملات الذكر تسترن فزيرّ بزى الرجال ليخدمن فى البحر والبر بحّارة وجندا . وجاهدت أن تفرض نفسها ودعاواها على الناس فرضا فى كل هذه المناحي ، فشاع اسمها وذاع فى غرب أوربا ولم تكن بلغت بعد العشرين ربيعا ، والحق أنها لم تبلفها أبداً . فلا غرابة بعد هذا أنها حُوكت ثم أُحرقت . وكانت حجة قضاتها فى الظاهر أنها ارتكبت عدة من جرائم كبرى لا تُمدّها نحن اليوم جرائم كبرى ولا نعاقب عليها مثل ما عاقبوا ، ولكنهم أحرقوها فى واقع الأمر لفطرسة لا تُطاق فيها وتيجّ لا يُنفتر من أنثى . وهى فى سنّها الثامنة عشرة ادعت لنفسها ما لا يدعيه أكثر البابات إعجاباً بنفسه ، وفوق ما يدعيه أكبر القياصرة إدلالا بسلطانها . فادعت أنها رسول الله وسفيره المفوض وأنها فى الواقع عضو من كنيسة الله فى السموات العلّى وهى لا تزال فى صورة اللحم على هذه الأرض . ونصّبت نفسها وصية على

== عام ١٧٢٦ . وأرسل عام ١٧٥٥ فى مهمة شاقة فى بلاط روسيا فلبس لها ملابس النساء . وعين أخيراً سفيراً لـ إنجلترا ثم اختلف مع حكومته ففارقتها وعاش فى لندن فى شبه نقي . وفى هذه المدة كان يلبس ملابس النساء أحياناً حتى شك الناس فى رجولته . وعاد إلى فرنسا عام ١٧٧٧ فأصر بأن يظل يلبس ملابس النساء ثم عاد إلى إنجلترا وهو امرأة حيث مات فى فقر مدقع عام ١٨١٠ . وأثبت الكشف الطبى عندئذ سلامة رجولته . ويظهر أن المستر برنارد شو لا يؤمن بما أثبتته الكشف الطبى .

مَلِكُهَا . وأرسلت إلى ملك الإنجليز تأمره بالتوبة وبالطاعة
لأمرها . وخطبت القساوسة والساسة فألقت عليهم الدروس
والمواعظ ، فإن حاجَّوها أسكتتهم ، وإن ناهضوها نحتهم .
وأطلعها قواد الجيش على خُطَطهم فسخرت بها وبهم ، وسلبت
منهم جنودهم فقادتهم إلى النصر على خُطَط من عندها . وكانت
تحتقر رجال الحكم ، آراءهم وأحكامهم وسلطانهم . وتهزأ من
رجال الحرب وما يدبّرون من حيل الحرب وأفانينها ، وكانت
تعالى في احتقارها وهُزُنُها وتظهرها في الناس إعلاناً . فلوأنها
أوتيت الحكمة والملك معاً ، فاجتمع في صلبها جلال الكهنوت
ومجد الملوك ، إذن لمُكرت صفو الحكومة بدعاواها وغطرستها
وسلوكتها تعكيراً شديداً ، ولأفلقت بالها بمنزل ما أفاق قيصر
Caesar^(١) بدعاواه وغطرسته بالـ كسيوس Cassius^(٢) . ولكنها
نهضت من الحضيض إلى العلاء نهضة باغته ، فلم يكن للناس فيها
إلا رأيان ، رأى يقول إنها آية من آيات الله ، ورأى يقول إنها
امرأة ثقيلة الظل لا يطيقها إنسان .

(١) هو يوليوس قيصر دكتاتور روما القديم الممير . وكسيوس عدوه
وصاحب المؤامرة التي قضت على حياة قيصر قتلًا بالخناجر في اجتماع السيناتو الروماني
في ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل ميلاد المسيح .

جان وسقراط

لو أن جان كان بها حب الذات ، أو لو أنه كان بها خباثة أو جن أو نذالة أو غباوة لكانت من أبغض الشخصيات التي عرفها التاريخ لا من أحبها . ولو أنها كانت من السن بحيث تعرف الأثر الذي تحدثه في الرجال عند ما تصيب ويخطئون ، وتذكر شعور الذلة التي كانوا به عند ذاك يشعرون ، أو لو أنها عرفت كيف تتملقهم وتسوسهم ، إذن لعاشت طويلا بقدر ما عاشت الملكة إليصابات^(١) Elizabeth . ولكنها كانت صغيرة السن ، وكانت ساذجة قليلة التجريب ، فلم يكن بها شيء من تلك الصناعات والمداهنات . فإذا عارضها معارض فظنت الحماقة فيه ، لم تستطع عليه صبرا ، وصارحته بأنه أحق وبأنها لا صبر لها عليه . وكانت من السذاجة بحيث أنها كانت كلما قومت للرجال معوجا ، أو حتمهم مواقع الزلل والإضرار ، حسبت أنها أسدت إليهم جيلا فاستوجبت عليهم شكرا . وليس هذا بفريب ، فالمقول الكبيرة الرجيحة يصعب عليها دائما فهم ما تستثيره من حقد وما توقده من غضب بفضحها جهالات قوم

(١) ملكة الإنجليز وقد تولت الحكم من عام ١٥٥٨ إلى عام ١٦٠٣ .

ذى عقول أخف في الميزان وزناً . حتى سقراط^(١) على ما بلغ من سن كبيرة وما كسب من خبرة طويلة ، لم يدافع عن نفسه لدى محاكمته دفاع رجل فقه هذا وقدر الغضب الطويل المركوم الذي رَكَمته ضدّه السنون حتى انفجر مُدَوِّياً يطلب موته . وما كان الرجل الذي قام على اتهامه في تلك المحاكمة بذى الخطر الكبير ، فلو أنه وُلد بعد عصره بثلاثمائة وألْف عام لكان كبعض من نلقاهم اليوم في عربات الدرجة الأولى من قُطُر الضواحي غادين إلى المدينة^(٢) في زحمة الصباح الأولى أو رانحين عنها في الأمساء . فلم يكن لديه في الواقع ما يقوله في اتهامه إلا أنه وأشباهه لا يطبقون أن يفتضحوا فتُشَرَّ غباواتهم وتُعرَى سواتهم كلها فتح سقراط

(١) سقراط هو الفيلسوف الإغريقي الشهير . ولد في أثينا حول عام ٤٦٩ قبل الميلاد . وكان نحاساً فناناً وكان جندياً شجاعاً ثم قاضياً . واختلف مع رجال الحكم فاعتزل الحياة العامة وعلل ذلك بأن صوتاً في ضميره دعاه إلى ذلك . وأخذ في التنسك فنجح في التغلب على شهواته وكانت عادة بطبيعتها . وكان لا يكتب شيئاً عن فلسفته فلم يخلف للناس شيئاً منها . ولكنه كان يدور بين الناس يباحثهم ويناقشهم فلم يصمد له في النقاش أحد فأثار عليه ذلك حقد الكبراء وخلق له الأعداء . وفي عام ٣٩٩ قام رجل من قادة الدماء بتهمة بانكار دين الأمة وإفساد شبابها . فدافع سقراط عن نفسه وقال إن رسالته نحو الجهل الشائع ومقصده خير الناس وإن حياته بركة على الأتبيين فلو أعفى من الموت جاهد في ذلك ما استطاع . ولم يمتأ بالموث . وحكم عليه بالموث ورفض فرصة هيئت له فيه . وبعد ثلاثين يوماً من حكم الاعدام شرب السم وهو هادئ النفس رزين فأت في عامه السبعين سنة ٣٩٩ قبل الميلاد .

(٢) يقصد بالمدينة لندن . وهذا تمرّض برجال الأعمال في لندن من ذوى الثراء والقباء على ما يرى شو .

فاه . ولكن سقراط لم يدرك هذا ولم يخطر شيء منه على باله ،
فأعجزه إحساسه بقصوره عن فهم مرامى هذا الاتهام إعجازاً
كبيراً . ومضى يُثبت أنه جندى قديم ، وأنه رجل طاهر الذيل
شريف العيش ، وأن متهمه صَليْف غبي ، فلما أثبت من ذلك
ما أراد ، كان في إثباته هلاكه والقضاء عليه . فعفى عليه جهله
بمبلغ ما أثاره رجحان عقله في قلوب الرجال من خوف وكره .
وما كان يحمل سقراط لهم في قلبه إلا الخير ، وما كان يدرك إلا أنه
أسدى إليهم كل معروف .

فرق ما بين چان وبين نابليون

وإذا كان سقراط يمثل هذه السذاجة في مثل هذه السن ،
فتصور كيف كانت سذاجة چان في السابعة عشرة . كان سقراط
رجلاً ذا حِجاج ونِقاش ، وكان يؤثر في عقول الرجال في بطن
وسكون . أما چان فكانت امرأة عمالة تعمل في أبدان الرجال
بشدة وفي غير هواة . وهذا لا شك هو السبب في أن سقراط
احتمله معاصروه عَصراً طويلاً ، أما چان فأعدموها وهي لم
تَشِب وتكتمل . ولكن كليهما جمع إلى مقدرة خفيفة صراحة
وتواضعاً وميلاً للخير كان من غير المعقول أن يؤدي بهما إلى

تلك الكراهة الفاضلة التي أهلكتها . فهما لهذا لم يفهما تلك الكراهة سبباً أو معنى . و نابليون كانت له مقدرة مخيفة كالتي كانت ل هذين ، ولكنه لم يكن مصارحاً مجاهرًا ، وكان مغرضاً فلم يخضع في رواجه عند الناس ولم يخطئ معناه أبداً . وسئل صرّة كيف يتصور حال الناس إذا تلقت نعيه فقال سيتنفسون الصعداء . ولكنه من الصعب على أصحاب العقول الجبارة الذين لا يبغضون ولا يؤذون أن يتصوروا أن رفقاءهم على الرغم من هذا يكرهون جبارة العقول ولا يألون جهداً في إهلاكهم ، لا عن حسد فحسب ، ولا لأن وضعهم إلى جنب رجال أعلى منهم منزلة وأسمى يجرح نفوسهم ، ولكن لأنهم بكل بساطة وبكل إخلاص وصراحة يخافونهم ويخشون من مكانهم إلى جانبهم . والخوف يدفع بالخلائق إلى الغلو ويجمع بهم إلى أبعد الحدود ، والخوف الذي يثيره ذو المكانة الأسمى ظاهرة معضلة من ظواهر النفس لا يمكن بالمنطق تفسيرها . وبما أنه خوف لا حد له فهو لا بد بالغ كل مبلغ ، خارج عن كل طوق ، إذا لم يكن عند الخافين الهالعين ما يخفف من حدته ويهون من سورته ، كاسباب تحملهم على أن يفترضوا قصد الخير أو يكفّلوه فيمن أناروا خوفهم ، أو تبعه أدبية يحملها هؤلاء يفترضها الخائفون

أو يكفلونها فيهم . واختصاراً يبلغ هذا الخوف ما يبلغ إذا لم يكن
باعثه ذا مقام رسمي يبعث في الناس شيئاً من ضمان واطمئنان .
ولنضرب مثلاً لذلك هيرودس^(١) Herod وبيلاطس^(٢) Pilate ،
وكذلك حنّان^(٣) Annas وقيافا^(٤) Caiaphas ، سمّوا جميعاً على
قربائهم سمواً رسمياً شرعياً وكذلك عرفنا فكان مُمَوّاً أثار خوفاً ،
ولكنه كان خوفاً محتملاً لأنه كان خوفاً معقولاً من عواقب
محدودة متقاة ، تراهي أنها قد تكون تجلبةً للخير ومدفعةً للأسوء .
أما المسيح فإن سُموّه في غرابته أَرَبَ كل من لم يتحسّسوا فيه
معنى الخير ، فكان جزاؤه منهم صريح الفزع الهلع : أن اصلبوه .

(١) ملك اليهود من عام ٤٠ إلى ٤٠ قبل الميلاد ، بدأ بحكم طيرية ثم تدرج إلى
أن صار ملكاً بجموعة أنتوني الروماني . كان ذا كفاية ممتازة في السياسة والحرب
والعارة أكسب اليهود مجداً كبيراً ولكنه كان ذا شهوة عنيفة جامحة حدث به إلى قتل
زوجته وأخاها وجدها وأُمها وأولاده منها . ومات عند مولد المسيح عليه السلام .
(٢) هو والي أورشليم الروماني وقت محاكمة المسيح . جاء في إنجيل متى :
« ولما كان الصباح تشاور رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يدوع حتى يقتلوه
فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس النبطي الوالي » . وجاء فيه بعد هذا ما يدل
على تلك بيلاطس في الحكم بالاعدام على عيسى وميله إلى العدالة ، ولكنه وقع عليه
الحكم أخيراً لما خاف هياج الشعب . وجاءه في المساء رجل غني من الرامة اسمه يوسف
كان تلميذاً ليسوع ، فطلب إلى بيلاطس جسد من صلب فأمر بالجسد أن يسلم إليه .
(٣) قيافا كان رئيس كهنة أورشليم الذين تألبوا على قتل المسيح . وحنان
حموه . وإلى حنان هذا ساق الجند المسيح بعد أن قبضوا عليه في البستان ، فأرسله
حنان إلى قيافا فسأله عن تعاليمه ثم أرسله إلى الوالي بيلاطس حيث حكم عليه بالاعدام .
جاء في إنجيل متى : « ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه
ومضوا به إلى حنان لأنه كان حياً قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة » .

شرب سقراط كأسه ، وقتل المسيح صبرا على صليبه^(١) ،
وأحرقت جان على ركازتها ، على حين أن نابليون يموت على فراشه
حتف أنفه بغض النظر عما كان من أسره في جزيرة سانت هيلينا
St Helena ، وعلى حين أن المدد المديد من أوغاد رسميين يقومون
في الناس فيخيفون ويذعرون ولكنهم لأسباب ظاهرة يموتون
حتف أنوضم في أوج الملك وسلطان الأمم ، مثبتين بهذا أن
القديسين أقرب إلى التهلكة من الغزاة الفاتحين . أما الذين جمعوا
إلى القداسة غزو الغزاة كحمد وجان فقد أدركوا أن القداسة
لا بد أن تُحمى بالغزو ، وأن الشهادة في الهزيمة والأسر . فأحرقت
جان ولم ترفع يده في أصحابها لخلاصها . فالرفقاء الذين اتبعوها إلى
النصر ، والأعداء الذين افتضحوا بها في الهزيمة ، وملك الفرنسيين
الذي توجته ، وملك الإنجليز الذي رفست بتاجه في اللوار ، كل
هؤلاء كانوا سواء في التبعة بقطع دابرها .

أكانت جان بريئة أو مذنبه ؟

وتلك حالة ما كانت تصير إليها جان إلا بسبب تدن في
سفه وإسراف وفساد ، أو بسبب تفوق يسمو إليه كل نبيل
طاهر . فأى هذين الماملين دفع بها إلى مآلها المروء ؟ سؤال

(١) مكنا يرى المؤلف .

لا بد من مواجهته . وقد واجهه معاصروها وأجابوا عنه في غير صالحها بعد محاكمة غاية في الدقة غاية في العدالة . ومضى خمس وعشرون سنة بعد ذلك ففضى القوم في أمرها بنقيض ما قضت به المحكمة الأولى ، بأن « ردّوا اعتبارها » إليها ورفعوها إلى مكاتها الأولى من احترام الناس وإجلالهم . ولكن الذين قضوا بهذا الحكم لم يقصدوا منه ظاهره ، وإنما أرادوا به تأكيد ما كان من تنويج شارل السابع وتصحيحه . ثم جاء بعد هؤلاء خلف أجمعوا على تبرئتها ونقض ما كان من تجريعها فكان نقضاً نفعاً مؤثراً حاصلاً كل شائبة ، وانتهى إلى تقديسها ، وأدّى عدا هذا إلى اتهام قضاتها الأقدمين اتهاماً لم يزل إلى اليوم أكثر إجحافاً وأقل إنصافاً من اتهامهم القديم إياها . ومهما يكن من فساد والتواء في « ردّ اعتبارها » الذي كان في عام ١٤٥٦ ، فإنه أظهر للناس أدلة تكفي لإقناع كل نقاد متزن معتدل بأن جان لم تكن امرأة صخّابة سليطة ، ولم تكن عاهرة ولا ساحرة ولا كافرة ، ولم يكن لها من عبادة الأوثان إلا بمقدار ما للبابا منها إن كان له فيها نصيب ، ولم تسلك قط سلوكاً معيباً إلا أن تكون احترفت الجندية ولبست ملابس الرجال وإلا أنها تهجّمت وتجرأت . ولكنها برغم هذا كانت لطيفة المزاج

بشوشة ، وكانت بكرأ عذراء ، وكانت تقيّة ، وكانت لا تشرب
الحمر إلا قليلا (كان طعامها خبزاً مغموساً في خمر فرنسا العادية ،
وهي ماء الشراب عند الفرنسيين ، فهل كان هذا إلا تقشفاً ؟)
وكانت شفوقة رحيمة . وبرغم جنديتها وشجاعتها وشدة
مراسها في الحرب كانت على نقيض الجندلا تحتمل السّفّة في
القول ولا الخلاعة في السلوك . وذهبت إلى مصرعها شريفة
الذيل طاهرته إلا من عبقرية بالغة هي التي صيّرتها إلى ما صارت
إليه . فن المبت بعد هذا إضاعة الوقت في تخطّيء ما جاء عنها
في الجزء الأول من الرواية التاريخية « هنرى السادس » التي
ظهرت في عهد الملكة اليبابات^(١) ونُسبت زعماً إلى شيكسبير ،
فقد صوّرتها مناظرها الأخيرة بصور مزرية قدرة إرضاء
لوطنية^(٢) حادّة ضلّت سواء السبيل . وقد غسّلت السنون عن
جان كل الأدران والأقذار التي أُهبلت عليها فلم يبق لكاتب
حديث ما يفسله . وإنما العسير غسلُ الأدران التي أُهبلت
على قضاتها بما اتهموها قديماً . والعسير كذلك غسل الطلاب
الذى نشره كشيّفاً عليها حتى أخفى معالمها فلم يعد يتعرّفها

(١) ملكة الانجليز التي عاشت في زمانها شيكسبير وقد مرّ ذكرها .

(٢) يقصد الوطنية الانجليزية وكان الانجليز أعداء جان والفرنسيين .

من ورائه أحد . فإن السفاهة الوطنية المتطرفة لما فرغت من إسداء ما أسدت لها من أسواء ، قامت السفاهة الطائفية [في هذه الحالة السفاهة البروتستنتية] فأتخذت من شهادتها في سبيل الله سبباً تضرب به الكنيسة الكاثوليكية وديوان التحقيق ، وأى سبيل إلى ذلك أيسر من قصة تصاغ تكثر فيها المفاجآت وتتوالى الفجيعات ، تكون بطلتها جانَ وأشرارها الكشلكة وقضاءَ ديوان التحقيق . فهذه القصة التي صيغت محض افتراء ، فجان أصابت من الكنيسة وديوان التحقيق قسطاً من العدالة أكثر مما يناله اليوم متهم من نوعها وفي مثل مكانها من أية محكمة زمنية حاضرة . هذا فضلاً عن أن حكمها الذي وقّع عليها كان وفق القانون كلّ الوفق . وما كانت لتصلح بطلّة للقصة التي أرادوها : فتاةً بديمة الحسن أضناها الحب ترامت على بطل يضارعها حسناً . فقد كانت جان قديسةً عبقريةً أبعداً ما تكون امرأةً من بطلّة قصة مُشجّية هزّازةٍ بحبها وفجائتها .

ولنعد إلى هاتين الكلمتين ، القديسة والعبقرية ، لنؤكد من وضوح معناهما وتحديدده . أما العبقرية فهي أن يكون المرء بصيرة ترى أكثر مما يراه الناس ، وتنفذ في بواطن الأمور أكثر من نفاذهم ، فيكون لها من ذلك مقاييسُ لقيم الأشياء

غيرُ مقاييسهم ، وأن يكون للمرء عدا هذا نشاط جم يدفع به إلى إنفاذ ما تستدعيه هذه البصيرة وما توجه هذه المقاييس على الأسلوب الذى يأتلف ومواهب المرء وكفاياته الخاصة . أما القداسة فهي أن يسوس المرء نفسه على خصال الكمال ويروضها على ألم الفضيلة ومحنها ، وأن يمتاز بإلهامات أو يكتسب قوى مما تسميه لغة الكنيسة خوارق ، فيتأهل عندئذ لأن يكون قديساً . فالْمُؤرِّخ إن كان كرهاً للنساء يعتقد أن المرأة لا تبغ فيما جرى العرف به أن يكون من عمل الرجال . فهو لن يستطيع أن يقدر ما أته جان من الأعمال ، ونبوغها إنما ظهر فى الجندية والسياسة . وإن كان المؤرخ لا يؤمن إلا بالقياس ، ولا يُخرِّج إلا بالدليل ، فلا مناص له من جحود القداسة وإنكار القديسين ، وعندئذ لا يستطيع أن يتصور لجان وجوداً أو يعرف لها شهراً . فمؤرخها الأصلح يجب أن يكون خلواً مما كان بالقرن التاسع عشر من زَوْغ وميل ، ويجب أن يفهم العصور الوسطى والكنيسة الكاثوليكية الرومانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة فهماً أوفى كثيراً مما فهمها مؤرخونا الرِدْكالْتون Whig ، ويجب أن يكون فى مقدوره أطراحُ المصيبة الجنسية وما يتصل بالنساء من أقاصيص الهوى ، وأن يعتبر المرأة أنثى الجنس البشرى

لا نوعاً منفصلاً مستقلاً من الحيوان يختلف عن الرجل اختلافاً كبيراً يتميز بصفات خاصة وسخافات خاصة .

جمال چان

ولإيضاح النقطة الأخيرة إيضاح إجمال أقول إذا أنت وقعت على كتاب عن چان يبدأ بذكر جمالها وفاتن حسنها فاعتبره فوراً قصة غرام لا تاريخاً لچان . فلم يدع أحد من رفقاءها في القرية أو في البلاط أو في مُحِيم الجند أنها جميلة أبداً ، حتى ولا عندما أجهدوا أنفسهم ليكسبوا عطف الملك عليها ويسرّوه بامتداحها . وكل الرجال الذين أشاروا إلى هذا الأمر أكدوا في غير لبس أن فتنة الإناث أعوزتها لدرجة خالوا أنها ممجزة إذا هم اعتبروا أنها كانت في زهرة الشباب ونضارة الصبا ، وأنها مع هذا لم تكن دميعة ولا لُحمة ولا مشوّهة ، ولم يكن بها ثقل أو فظاظة . والحق البين أنها ، ككل امرأة متجربة آسرة ناهية ، لم تنزل ميدان الحب لأن الرجال خافوها قهيوها فلم يقيموا في هواها . أما هي فلم تفقد أنوثتها برغم أنها نذرت إلى حدٍّ أن تبقى عذراء ما عاشت ، وظلّت فعلاً عذراء ولكنها قطّ لم تقطع قطعاً باتاً بأنها لن تنزّوج أبداً . ولكن

الزواج وما يستدعيه بادئ بدء من مغازلة فتاة فاقتناس زوج لم يكن من صناعتها . فقد كان لها في الحياة شغل عند ذلك . قال الشاعر بيرون^(١) : « حب الرجل يشغل بعض عيشه ، وحب المرأة يملأ كل وجودها » . فهذه قاعدة لا تنطبق على جان إلا بمقدار انطباقها على جورج واشنطن^(٢) George Washington أو أي ذكّر غيره من رجال الحياة وأبطالها . ولو أن جان عاشت في عصرنا هذا لبيعت صورتها على بطاقات البريد وهي في

(١) الشاعر الإنجليزي المعروف ، ولد في لندن عام ١٧٨٨ من أبوين نابيين . ومات أبوه وهو في الثالثة من عمره ، فكفله أمه ، وكانت مسرفة في أهوائها وشهواتها ، فأثر ذلك في ابنها لما شب ، فكان مسرفاً في شهوته مهتاج النفس أفاق . وفي عام ١٧٩٨ صار لورداً بالوراثة من عم أبيه ، فانتقل إليه مع القربى مقر الأسرة وثروتها . وفي عام ١٨١٥ تزوج ، ولكن اللادي بيرون هجرته بعد عام من زواجها فكسب من ذلك سخط الناس ، فترك إنجلترا غاضباً ناذراً أن لا يعود إليها . فطوف في أوروبا وأقام في إيطاليا زمناً ، وفي عام ١٨٢٤ ناصر الإغريق في حرب استقلالهم ضد الترك ، فجاءته حمى لم تمهله إلا أياماً فمات في عامه السابع والثلاثين . وشعره يحمل طابع حياته .

(٢) هو أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة . وهو متحدر من أصل إنجليزي . ولد عام ١٧٣٢ ميلادية في فرجينيا ، ومنذ عامه التاسع عمر أخذ يتقرب في مناصب الجيش . وحارب القوات الفرنسية في الشمال كثيراً . ولما وقعت حرب استقلال أمريكا قاد قواتها في ظروف غير ملائمة منها عداة ضباطه له . ولما وقعت معاهدة الصلح اعتزل الحياة ورفض أن يجزى على خدماته إلا ما تحمله من النفقات فعلا . وفي عام ١٧٨٧ رأس المؤتمر الذي أسس الروابط بين الولايات المتحدة وأنشأ الدستور الذي لا يزال إلى اليوم قائماً . وانتخب أول رئيس للجمهورية عام ١٧٨٩ وأعيد انتخابه عام ١٧٩٣ ، وقبل أن تنتهي مدة هذه الرئاسة استقال ، ولكن لما ساء ما بين فرنسا والولايات عاد يقود قوات البلاد . وكان في رأسته للجمهورية قدراً . وكان ذا عقل كبير ارتفع به عن كل حزبية . ومات فيكده كل الأحزاب .

زى قائد جيش لا سلطنة حَرَم . ومع كل هذا فلدى سبب واحد يجعلنى أعتقد أن وجهها إن فقد الحسن فقد كان عجيباً يستوقف الناظر إليه . ذلك أن نحاتاً من معاصريها نحت تمثالا لامرأة شابة على رأسها خُوذة ولها وجه وحيد في فته ، لا بأنه المثل الأعلى في الوجوه ، ولكن بأنه صورة مأخوذة من وجه حى غريب لا يشبه وجهاً رآه إنسان لامرأة أبداً . والظن أن فنائنا قد اتخذ جان أعوزاً له وهى لا تدرى . وليس لدى من برهان على هذا ، ولكن تلك العين المتباعدة الشاذة تبعث في الخاطر هذا السؤال بقوة : « إذا لم يكن هذا التمثال لجان فلمن هو ؟ » . من أجل هذا لن أتقصى الأدلة فقد كفانى هذا دليلاً ، فن ينكر دعواى فيه فأنا أتمدّاه أن يجد لها نقضاً . إنه وجه عجيب ولكنه ليس عجيباً بجماله وفتنته ورقته ، ولن يجد فيه طلابُ الجمال المسرحيون شيئاً مما يطلبون ، فإن كانوا لا يزالون في ريب بعد هذا ، فأنا أروى لهم عن صاحبتة حقيقة غير ذات جمال تذهب بما بقى في نفوسهم من ريب ، ذلك أنها اتهمت بأن وعدت رجلاً بالزواج ، ثم نقضت عهدها ، فلما جاءت إلى المحكمة دافعت هى عن نفسها بنفسها وكسبت القضية .

مكانة جان في المجتمع

كانت جان ابنة لمزارع يُمدّ عيناً من أعيان قريته ، ويقوم عن القرية بما يتصل بالإقطاع من أعمال ، فيفاوض عنها الرؤساء الإقطاعيين المجاورين ومن ينوب عنهم من محامين . وكان للقرية حصن يحمي فيه أهل القرية إذا غزاهم غاز فأهمل وهُجر ، وخرج من أيديهم ، فألف والدها جماعة من ستّة من المزارعين ليستولوا على الحصن مرة أخرى ليكون للقرية وقاء كلما داهمهم مدام . وعندما كانت جان طفلة كانت تذهب أحياناً إلى الحصن لتلعب فيه فتدعى أنها أميرة القصر الصغرى ، فتشركها أمها وإخوتها في لعبها ، فيأخذون مكانهم من بلاط القصر فيسلكون مسلكاً لا يزرى بهم كثيراً . فهذه الحقائق لا تدع لنا عذراً في الجرى على ما جرى به العرف القصصى الذى يفرض دائماً أن البطلة إما أميرة وإما شحاذة . ويشبه أمر جان في هذا الصدد ما كان من أمر شيكسبير ، فقد زعموا أنه كان فاعلاً أجيراً لا يقرأ ولا يكتب ، ثم اتخذوا من هذا الزعم القليل أساساً بنوا عليه أبحاثاً كثيرة متراكبة متراكمة ، فكان بناء كاهرم المقلوب له جرم كبير وامنٌ حقير . وأنغمضوا العين عن دليل غاية في

البساطة : أن أباه كان يعمل في التجارة ، وأنه كان يوماً وافر
النعمة ثرياً ، وأنه تزوج من امرأة كان لها بعض المكنة في
المجتمع . كذلك يميل بمضهم إلى زحزحة جان عن مرتبتها في
المجتمع إلى مرتبة دونها فيصورونها فتاة راعية أجيرة ، في حين
أن الفتاة الأجيرة الراحية في قريتها كانت إذا نادتها فإنما تدعوها
سيدة المزرعة الصغيرة .

إن الفرق بين جان وشيكسبير أنها كانت أميةً وأنه لم
يكن أمياً . فقد ذهب إلى المدرسة وعرف من اللغتين اللاتينية
والإغريقية بمقدار ما يستبقى خريج الجامعات منها ، أى شيئاً
قليلاً لا يُغنى شيئاً . أما جان فلم تكن تعرف كيف تقرأ أصلاً .
قالت : « أنا لا أعرف ألقها من بائها » .

ولكن كثيرات من أميرات ذلك العهد وعهود بعده طويلة
كانت لا تعرف القراءة . خذ مثلاً « ماري أنطوانيت »^(١)

Marie Antoinette ، فإنها في مثل سنّ « جان » ما كانت تدرى
أن تهجى اسمها هجاء صحيحاً . ولكن ليس معنى هذا أن جان
كانت فتاة جاهلة ، أو أنها أحسّت بما يُحس به الأئى في عصرنا

(١) صفى أولاد الإمبراطور فرنسيس الأول ومارية تريزا . وهي أرسدوفة
النمسا وملكة فرنسا ، حيث تزوجت الدوفين الذى صار فيما بعد لويس السادس عشر ملك
فرنسا . ولدت في ثينا عام ١٧٥٥ وأعدمت في باريس بالبلوتين عام ١٧٩٣ .

هذا من استحياء وخِزي وعجز عن دخول المجتمع والتقدم فيه .
وهي إن فاتها أن تعرف كيف تكتب الكتب والرسائل ، فقد
كانت تملئها وتُعنى بها عناية شديدة تَعْلُو فيها غلوها كبيراً .
وسماها بعضهم فتاة راعية في وجهها فأنكرت ذلك بشدة ،
وتحدّثت أياً امرأة من أى منزل طيب أن تباريها في فنون البيت .
وكانت تفهم موقف أمّتها فرنسا من السياسة والحرب أحسن
كثيراً مما يفهم خريجات جامعاتنا اليوم من موقف أمّهم ، ووصدر
عليهن ذلك الصحفُ السيارة . وأغرّت الناس باتباعها ، فكان
أول متبعتها جارّها كان قائد حامية في فوكولير Vaucouleurs ،
جاءته فأخبرته بأن جيوش الدوفين Dauphin هُزِمَتْ في وقعة
هيرنجز Harrings قبل أن يأتيه الخبر الرسمي عنها بزمن طويل
نخال أن وحيا جاءها فأخبرها خبرها . ولكن عِلْمُ الشؤون العامة
والاهتمام بأُمور البلاد لم يكن بالشئ الغريب بين المزارعين في
ريف تجتاحه الحرب اجتياحاً . فالساسة كثيراً ما كانوا يجيئونهم
عند أبوابهم في سيوف مسلولة ورماح مُشرّعة فلم يكن بدّ من
مراضاتهم . ولم يكن لأهل چان بدّ من معرفة ما يجري في بلاد
عمّها الإقطاع . ولم يكن أهلها أترياء ، فعملت چان في الحقول
مثل ما عمل أبوها ، فساخت الأغنام إلى المراعى ، وقامت

بأشياء هذا من الواجبات . ولكن لا يوجد دليل ولا شبه دليل يفيد أنهم كانوا فقراء مُدَقِّعِينَ . وليس من سبب يُستنتج منه أن جان استؤجرت كما تستأجر الخادِمات ، أو أنها غُصِبَت على العمل أبداً إذا ما هي شاءت أن تَدَعَه لتذهب إلى قسيس القرية لتعترف إليه ، أو أن تعبت بزمناها ترقب رؤاها أو تتسمع « لأصواتها » في أجراس الكنائس . وبجمل القول أن جان كان حظها من طيبِ المحتدِ ومن حسن التثقيف أكثرَ كثيراً من حظ كثيرات من طبقة بنات البلد السخيفات ممن يحتقرن العمل والعاملات .

أصوات جان ورؤاها

إن أصوات جان ورؤاها لعبت بسمعتها الألاعيب . فن أجلها عدّها قوم مدخولةً ممرورة ، وعدّها آخرون كذابةً نصّابة ، ومن أجلها حَكَمَ عليها قومٌ بمعالجة السحر وواصله الشيطان واحرقت من أجل هذا ، ومن أجلها منحوها البركة ونفحوها بالقداسة أخيراً . وليس في هذه الأصوات والرؤى ما يثبت شيئاً من ذلك أو يؤدي إليه . ولكن اختلاف النتائج يكشف عن قلة ما عرفه المؤرخون ذوو الخيال المنطقي عن عقول الناس ، فهم يجهلون كيف تعمل ، وحتى عقولهم هم يجهلون كيف

تدار . فإن في البشر أناسا احتد خيالهم وأتقد ، حتى إذا خطرت لهم فكرة جاءتهم صوتا مسموعا . وقد يترأى لهم كأن خيالا ينطق بها . وفي مستشفيات المجانين كثير من القتلة ما قتلوا إلا طوعا لأصوات هكذا سمعوها . فقد تسمع امرأة صوتا يأمرها أن تذبح زوجها وأن تحنق ولدها وهما نائمان فلا تجد مفرأ من طاعته . وعندئذ تتدخل خرافة طبية شرعية قديمة تسود في محامتنا تقول بأن المذنب إذا أتى الإجرام بتأثير خيالات كهذه لا يسأل عما يفعل ، وإنما يعتبر مجنوناً ويعامل معاملة المجانين . على أنه ليس كل من رأى رؤية أو سمع هُتافاً مجرماً سفاهاً . فالمبقرية لها وحيها ولها إلهامها ولها استنتاجات تتخرج في بطنه وخفاء من فروض دفينه في دخيلة النفس فهي تجري فيها دون أن يحس صاحبها بها . وكل ملابسات المبقرية هذه قد تتمثل صُوراً وأطيافا كالتى رأتها جان وغير جان . فسقراط ولوثر^(١)

(١) هو الصلح الدينى البروتستنتى الألمانى . ولد عام ١٤٨٣ من أب فقير يعمل في مناجم الفحم . علمه أبوه فبدأ حياته بأن كان قسيساً كاثوليكياً ولكنه خرج على الكنيسة الكاثوليكية وتزوج راهبة من اثنين تعاليمه وجاء منها بأولاد ستة وأخذ يناهض الكتلركة والإمبراطور . وفي عام ١٥٣٠ أعلن في الناس عقيدته البرتستنتية الجديدة . وكان بدأ في عام ١٥٢١ بمعمونة أصدقائه في ترجمة الإنجيل إلى الألمانية فأتمه في عام ١٥٣٤ . فزاد هذا العمل الكبير في توطيد تعاليمه في ألمانيا .

Luther واشفندنبورج^(١) Swendenborg وبلاك^(٢) Blake كل هؤلاء رأوا أطبافا وسمعوا أصواتا كالتى سمعتها ورأتها القديسة جان والقديس فرنسيس^(٣) Francis . ونيوتن^(٤) Newton لو كان خياله يُغرم بالمفاجئات المؤثرات وينحو منحى الدرامات

(١) عالم على سويدي المولد والنشأة والتعليم ، ولكنه رحل إلى هولانده وفرنسا وإنجلترا فدرس فيها جميعاً . وتابع أبحاثه العلمية والفلسفية من بعد ذلك . وفى عام ١٧٤٣ اتصل لأول مرة بعالم الأرواح . قال إن عيّن شخصه الباطن انفتحت فرأت الجنة والنار وعالم الأرواح ، وفى هذا العالم تحدث إلى معارفه الذاهبين وإلى عظماء المصور البائدة والمضاربات الفابرة . وكان له حظ كبير من احترام الناس له ، فوقت تصريحاته عن تلك الاتصالات الروحانية موضع الفرية من أفهام الناس ، لأنهم لم يستطيعوا اتهامه بالكذب لأنه كان أميناً صادقاً ، ولا بالجهل لأنه كان عالماً متبحراً ، ولا بالبله لأنه كان شديد الذكاء ، وكان فوق هذا تقياً .

(٢) هو وليم بلاك شاعر ورسام وقنان مما . ولد فى لندن عام ١٧٥٧ ومات عام ١٨٢٨ . كان شعره غزيراً ، وكانت رسوماته غامضة تنحو على الأغلب مناحى الرمز والاستعارة . وكان مما تفردت به عبقريته أنه كان ينظر إلى نتائج خياله من أشياء وأشباح فيتصنع له انصباحاً بالغا حتى لكأنها تتجسد له فيراها ويسمعا ويقمها ويمسها حسه الأشياء ذات الأجرام .

(٣) أغلب الظن أن المؤلف يقصد القديس فرنسيس مؤسس الطريقة الفرنسيسكانية ولد فى أسيسى بإيطاليا عام ١١٨٢ ومات فيها عام ١٢٢٦ . ولم يكن فى بدء حياته كثير الورع ولم يعزف فى شبابه عن نمرات الدنيا . ولكنه مرض فى عام ١٢٠٢ مرضاً شديداً خرج منه شديد السخط على أسلوب حياته . ثم تطور فزهد وتشف وتزم خطوط المسيح ما استطاع فبلغ فى ذلك مبلغا بعيدا .

(٤) هو إسمحق نيوتن العالم الإنجليزى الشهير ولد عام ١٦٤٢ ومات عام ١٧٢٧ تعلم فى جامعة كمبرج وبنى فى الرياضة النبوغ المعروف . وهو صاحب نظرية الجاذبية . وقد هبطت إلينا مع الأجيال حكاية عنه طريقة تزعم أن فتاحة رآها تسقط فى جبنية هى التى اقترحت عليه آراء أدى تفكيره فيها إلى اكتشاف تلك النظرية وإلى هذه الحكاية يثير المؤلف .

والمسرحيات لرأى خيال فيثاغورس^(١) رأى العين، ولرآه يدخل إليه في البستان فيعلّل له كيف سقطت التفاحة عن شجرتها . وعندها ما كان يجوز لأحد أن يتخذ من نظرية الجاذبية أو مما عُرف عن صاحبها من صحة العقل دليلاً يثبت به أن الطيف الخداع الذي رآه حقيقة واقعة . وعدا هذا ، وفوق هذا ، لو أن نظرية الجاذبية اكتشفها نيوتن على يدى هذا الطيف بدلا من اكتشافها بالطريقة العادية ما كان بين الطريقتين فرق أبداً ، ولما امتازت أولاهما على أخراهما بمثقال ذرة من إعجاز . كذلك صحة عقل نيوتن لا يستدل عليها من الطريقة التى سلكها فى اكتشافها وإنما مما فى النظرية ذاتها من دلائل التعقل . فلو أن نيوتن طلع عليه طيف فيثاغورس فأخبره أن القمر مركب من جُبن أخضر لسقناه إلى حيث يساق المجاذيب . ولكن نظرية الجاذبية الذى جاء بها نيوتن نظرية مستنتجة بالأدلة وقد وافقت

(١) فيثاغورس هو الفيلسوف الإغريق . ولد حول عام ٥٨٢ قبل الميلاد . قيل إنه جمع علمه من سوريا وبنيفيا وبابل والهند ومصر . والتف حوله تلاميذ فتكونت منهم رابطة قوية لدرس فلسفته والعمل بها . واشتدت هذه الرابطة من الوجهة الدّ اشتدادا كبيرا ، وكانت تناصر الحزب الأرستقراطى ، فعادها الحزب الديمقراطي اضطر فيثاغورس إلى الاعتزال . ومن عقائد فيثاغورس أن الأرواح تتناسخ لذ ينح قط حيوانا ولم يأكل لحما . ومن تعاليمه احترام الروابط الإنسانية كرابطة الزوج ، والولد بأبيه وأمه ، والناس بقضائهم وحكامهم وعلم جرا . وإلى فيثاغورس ينسب إثبات النظرية السابعة والأربعين من الكتاب الأول لإقليدس فى الهندسة .

0402791

